

رواية بوابة السماء

للأسير القسامي
جَعَال الهُور



2018-1439

بوابة السماء

جمال الهور

-سجن نفحة الصحراوي-



إِهْلَاءٌ

إلى كل امرأة
تبحث عن وطن

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي حرم الظلم على نفسه وجعله بين عباده محرماً، فهو اللطيف بعباده تعبدهم بالجهاد، واصطفاهم بالشهادة وأفاض على قلوبهم تزكية لسرائرهم أنواره وألطفه..

والصلاة والسلام على السيد الإمام، القائد الهمام محمد النبي الأمين الرحيم الذي صلى الله عليه وملائكته الكرام البررة وسلموا تسليماً زكياً، قاتل جهاداً وتعبداً، وجعل سنام الإسلام في جهاد واستشهاد دفعاً وفتحاً... دفعاً لظلم بغي طاغٍ وفتحاً لقلوب جاثية، وبلاد بائسة أعيها وأشقها البعد عن توحيد الألوهية وحقيقة الربوبية.. وبعد ..

ما كنت لأكتب روايتي هذه لولا لفتة ربانية كفلتني ساعة انتباهةٍ صاحبت حدثاً تاريخياً كان ذا تأثيرٍ عميمٍ على روحي وحسي فكانت نفثة ربانية أيقظتني من غمام الغفلةِ واللا انتباهِ لألتقي الحدث

على أمر قد قُدر.... فاستشهاد امرأة فلسطينية ترجمت على بساط السبعينَ النازفاتِ من عقب الشيخوخة، كان وقعاً جلاً طغى ببراعة فعله وجمال لونه وزكاة ريحه على اسم الثورة...

كان استشهادها نغماً انبجس من أوتار المقاومة فانقذح برقاً يموج بالسنة الذهب ويرمي بحب الشهب، فعميت بناره عيون باغية «بالظلم» وأبصرت بنوره عيون راعية «بالحق وللحق»... برقاً صارت دوائر موجاته ألحاناً تنقلها رياحُ مرسلات كنسمات بعثٍ انسربت في أسماع ناشئة ناهدة، فصارت أغنياتها الفضليات تشدوها زجلاً وشعراً على خطوط النار وعلى شرفات التحرير...

الشهداء إلهام الأقلام الأدبية المتدفق والمداد الفائز في قلوب الأدباء... لأنهم حقيقة القصة ولأنهم حكاية الحقيقة... وهم نقاط النور التي تشكل حروف البداية التي ستكون كلمة التحرير... فهم عندما يرحلون ترحل في أعقابهم أجزاء منا، كأنها أمانات الحب التي استودعوننا، وتبقى أجزاءنا الباقية لتحيي عرسهم في الأرض ليتواءم وعرسهم في السماء، فنحن نتهلل بدموع الحزن والفرح يوم بطولتهم، وهم يربعون في أفنان الجنان وحوار حسان فستان بين أعراس السماء ومناح الأرض.

ومن بعد هذا كله.... كيف لي أن أكتب بقلم الدنيا البائدة عن أقلام الشهادة، وأعلام الجنان الخالدة؟ وكيف لي أن أجيد الرواية عن «حكاية الآخرة»... ولكن يقين التقصير لا يغني من الحق

شيئاً، إذ إن الحق كل الحق أن تكتب هذه الحكايات السماوية
باصطفاء لتظل شامة في جبين الزمن يُهتدى بها... وألا نخشى ركافة
في عُقْدِها ولا ملالة في صورها فهي تأتي متناسقة المباني متناغمة
المعاني مترابطة الأطراف والمحاور... فالله العليم البصير جل جلاله
سطرها بالاصطفاء، وأغناها بالتوفيق، وأثرها باللون القاني، فأى
ثوب لحكاية ألوانه أجمل من هذا اللون، وأي صورة لحكاية أصدق
من حكاية الشهداء!

إن التفكير البكر لكتابة هذه الرواية، خالجنى عندما كنت في
مراجعة لكتابي القصصي «أعواد البرتقال» الذي تناول بعض قصص
ألوان البطولة والنضال الفلسطيني النسوي باقتضاب، فشعرت
بالتقصير المر تجاه هذه المرأة التي كانت من الاستعداد بمكان أن
تضحي بنفسها من أجل قضيتها المقدسة دون تردد أو تراجع، وكانت
على جهوزية كاملة لتشارك الرجل استنشاق غبار السنبك، وافتراش
حصى الخنادق، في سباق محموم نحو الشهادة والاستشهاد.

وعليه كان من واجبي أن أسخر قلمي لخدمة البطولة والعملاقة
النسوية التي ترجمت بالفعل وبالقول على صفحات النضال
الفلسطيني، والتي أسهمت بشكل كبير في نقل القضية الفلسطينية
إلى مراحل متقدمة من الصراع، وذلك عندما أسرجت بالدم بصيرة
العالم، وما زالت تشعل قناديل العودة بماء الحياة لأجيال التحرير،
ومن هنا انطلقت بعزيمة الواجب التي لا يفتها تردد ولا يثنيها
كسل غير لاو على عقبات الأسر، وزمانه البئيس فكان فضل الله

وكرمه أن جاد بمداد القلم المسطور على هذه الورقات، وكان حرصه وحفظه حليفيين ونصيرين حاضرين على الدوام، حتى اكتملت هذه الرواية بتوفيقه _ جل وعلا_ وخرجت بحلتها النهائية تحت عنوان «بوابة السماء»... وجاءت على أبواب وفصول، تناولت دور المرأة الفلسطينية في المقاومة والجهاد، وهذه فكرة الرواية الرئيسة التي تطلبت بدورها مناقشة بعض وجهات النظر التي ترفض وتتحفظ على إشراك المرأة الفلسطينية في مضمار المقاومة، ورأيت تسليط الضوء على الحق الفلسطيني «العربي والإسلامي» في هذه البلاد المقدسة، ودحض ادعاءات يهود بهذا الحق، ومن ثم تبيان مكانة القدس ومسجدها الأقصى في قلوب المسلمين، ومن ثم التنوير حول مكانة الشهداء، وقدسيتها العمل الجهادي والاستشهادي.... والارتحال من بعد ذلك بين محطات الأم التي أناخت على عتبها الأمة العربية والأمة الإسلامية عجزهما وتقصيرهما، عندما غرقت فلسطين «عين السماء» في جحيم الانهزام أمام الغزاة القدماء والغزاة الجدد على مدار حقبةٍ واسعةٍ من التاريخ السحيق ومن التاريخ الحديث.

وفي الختام أحببت أن أنوه للقارئ الكريم جملة من الأمور:

* إن أحداث الرواية تدور في ثنايا حقبة زمنية عمرها سبعون ربيعاً،
هن بعمر بطلة الرواية «الحاجة فاطمة النجار»

* أحداث الرواية منها ما هو واقع وحقيقة، ومنها ما هو ابتداع
الخيال

* شخوص الرواية أبطال عاشوا الأحداث حقيقة وواقعا ومنهم ما هو صنعة الخيال...

كل هذا جاء ليضفي عنصر التشويق ويثريه؛ لينسجم وذوق القارئ الكريم من جهة، ومن جهة أخرى ليعطي الحقائق التي تناولتها الرواية جمالاً أدبياً وإثراءً بلاغياً لتساوق ومصادقية تلك الحقائق وأهميتها الإنسانية والتاريخية.

ولا أنسى أن أشكر بعميق عرفان، وعميم إحسان فريق العمل الذي ساهم في إنجاز هذا العمل المتواضع بعد ساعات طوال من التدقيق والتمحيص.

فإن كان من إحسان وتوفيق فمن الله تعالى ولي كل توفيق، وإن كان من سَلَمٍ وتعوير فمن نفسي والشيطان.

الحمد لله رب العالمين... مع خالص الشكر

المؤلف

مدخل

أنا كرجل أدين للمرأة بكل شيء جميل في هذا الوجود...

فعندما أكتب عن المرأة، فأنا أكتب عن أمي التي استشهدت على عتبات العفاف، وهي تؤدي رسالتها في الحياة كبطلة أسطورية في عقدها الثالث، حيث استشهدت في أعقد عملية إنقاذ «لعشر نفوس» أغرقهم اليُتم في أتون الفقر والحرمان، ثم سبحت بهم بمجدافي الطهر والعفة في خضم الحياة المتلاطم... حتى رست على شاطئ السلامة قبل أن تُسلم الراية

إنها أمي...

عندما أكتب عن المرأة، فأنا أكتب عن زوجتي التي استشهد شبابها على عتبات الصبر والعفاف، وهي على مدار عقدين من السنين تتطلع بعين -يَقْدَحُ شعاعها «نور الأمل»- إلى بوابة الحرية المؤصدة بقيود الأسر وسلاسل السجنان

إنها زوجتي...

عندما أكتب عن المرأة، أكتب عن ابنة فلسطين التي استشهدت على
عتبات التحرير، وهي تدفع من رحمها وقود المقاومة وإمدادها،
يوم أن عقلت أرحام العالمين

إنها ابنة فلسطين...

عندما أكتب عن المرأة، أكتب بقدسية لأنني ابن امرأة، وعندما
أختم كتابتي لا يسعني إلا أن أسجد سجدة إجلال في محراب أُمِّي..
زوجتي..أختي..ابنة فلسطين

على مهد الرسالة

تضرب مياه البحر بقدميها العاريتين الصغيرتين، وتعبث بأصابعها البرعمية الغضة حبات الرمال المبللة، وترمي عن قوس حاجبها بسهام بصرها اللامعة الأمواج المتراكبة كالجبال بعضها فوق بعض، وتماشيتها تباغاً حتى تستكين عند فم الشاطئ ثم تذوب مختفية في أعماقه، ثم تعيد الكرة المرة تلو الأخرى، ويفتر فمها السمكي عن ابتسامة بريئة تحاكي البحر المائج كأنها ولدت من تلاحح أمواجه مع الأشعة المنصبة من أضاء الشمس..

ترقب بعيون جاحظة خديعة بحر جباليا الساجي كيف يستدرج شمس النهار بتماوجه، يستميلها حتى تدنو منه قاب قوسين؛ فينهشها بطغيان آثم من أسفلها غير آبه لفنائها البطيء أو انسكاب حمرتها المستحيلة إلى شفق مهين كأنه يولد من رحم جريمة أزلية عند ذيل السماء المبتل في وجه البحر...

صغيرة هي فاطمة في ربيعها الثامن، لكنها ترقب بعين ثابتة ذاهلة

غطسة الليل المتأمر الواثب بعتمته الآثمة؛ ليمحو آثار هاتيك الجريمة؛ ليغطي سوء الظلم خلف حجبه تمامًا كما تغيب الحقائق في متاهات الأفكار والمبادئ المبتدعة النابعة من عين الأهواء المعتورة التي ترى الحق باطلاً والباطل حقاً...

مع انسلاخ الليل الأخير عن جبهة الصبح الناصعة يحملها جدها العجوز في جوف قاربه الصغير السارح في حفظ القدر، تتناوله الأمواج الوليدة فيتهاوى بتناغم مينة ويسرة كهودج يتأرجح متراقصاً على ظهر جمل ضل بعروسه في صحراء المجهول، تنساب أصابعه الخشنة بين ضفائر شعرها المجدولة بتعرج أهوج، ويلثم وجنتيها المتوردتين بصفحة يده يدفع عنها لسعة الصبا القر، ويدفئ جسدها (الغض) الطري بأنفاسه اللاهبة، ويطرب أذنها بترايمه اللاحنة، ومهمزمار داوود الذي أوتي يغذي روحها الملائكية بكلام ألهم حفظه عن ظهر قلبه المؤمن المطمئن من كتاب الله المقدس _ القرآن الكريم _

يحبو بهم القارب بعيداً عن الشاطئ، وتنهذ الشمس من خلف الحجب متثابثة تنثل سهامها عليهم من الأفق القريب؛ فينتفض الجسدان من وخزة الدفء و تتحرر الأطراف من انكفائها، و تتمغط الأفواه عن آخرها، و يمدد العجوز رجليه اليابستين ثم ينتصب وسط القارب بقامته الطويلة النحيفة، ويفرد ذراعيه كجناحي نسر هرم، ويدور برأسه الكبير الثغم من حوله ماسحاً الجهات الأربع بنظرة خاطفة، ثم التقف شبكته المهترئة و بفضيلة المتمرس ألقى بها لتغوص بحثاً عن طعمة القدر، وهو يسعل سعال الهرم ثم اقتعد مقدمة

القارب هاشاً لحفيدته الشاخصة بعيون يحوم في تنورها ألف سؤال
وسؤال...

ناداها بأصابع مشهرة فخطت خطوات تئيدة حتى احتضنها حجره،
وراح يقص عليها حكايته مع ماضيه القريب والبعيد منه المليء
بمغامرات خاضها في لجة بحر يافا العروس، يطارد الحيتان و الأسماك
يصطاد الصغير منها و الكبير بألوانها و أشكالها الإعجازية الدالة على
عظيم قدرة الإله الواحد.

تمضي الساعات و القارب يتهادى بتؤدة، والعجوز الحكيم يرصع
جدران ذاكرة حفيدته بحكايات شكلتها سني عمره المديد، ووشمتها
بألوان الشواطئ المنسية من ذاكرة الأيام، ولكنها ما زالت تسكن
أعماقه، وما فتئت تعاوده بحيثياتها ومحتوياتها الأليمة.

بعد النقش راح العجوز يغرس في الذاكرة البكر و الوجدان الخصب
الماضي المفقود ببيوته الطينية والشجرية الصغيرة المتناثرة على طول
الساحل الفلسطيني والمطلة بنوافذها الخشبية على بحرها الأسر.

يتابع العجوز هذره وقد تملكته الرغبة بالاستمرار، لما استشعر
طروبها لأفانصيصه و سكونها اللامانع، فراح يسكب من معين
ذاكرته المشيخة إلى ذاكرتها اليافعة البكر، ويشممها شذى البرتقال
اليافاوي، ويصور لها بلسان القاص البارع روعة شوارعها وأزقة
حواريها وعبثية أبنيتها الطينية المتواضعة المدلّة على بساطة أهلها

و سلامة صدورهم وسريرتهم وروعة مسجدها الرابض على صدر الشاطئ «مسجد حسن بيك» وعمارته الإسلامية الدالة على عظم حضارة الآباء و الأجداد.

فاضت ذاكرته وجادت دون انقطاع أو تقتير، وكان قد ظن بها _ بذكرته _ سوءاً زمنياً مريداً و خشي منها عقماً ذهنيّاً و نسياناً خذلاً إذا ما احتاجها يوماً، إلا أنها أرتته منها فطنة حادة بهرته حتى الذهول.. فاضت بحشو السنين ومدخراتها، فأخذ لسانه يزين أحداث التاريخ الماضي ثم يفرغها في قارورة ذاكرتها، وكلما أنهى حكاية أو أباح بسر عميق تأوه بصوت هرم.. ربضت على عنقه شيخوخة مميتة.. وشده الجذل وصحا في قلبه حنين محموم لمهد طفولته ومنبت عوده و مشاهد عنفوانه وشبابه؛ فتجتاحه العبرات الخجولة من عيون صغيرة تسترق النظر مخالسة رقيقة عتيدة تقذفه بعواصف جامحة...

فيلتقط أنفاسه الفوضوية ويتلفح بكبريائه زاماً شفثيه، ومهدلاً حاجبين كساهما البياض كأن الثلج باض ندفه⁽¹⁾ عليهما، فتدرك بفطرتها حاجته للبكاء فتنحي لواظها عن وجهه وتكتفي بما رشفته من بين شفثيه المتشققة، وما سقاها من ماضٍ عريق حزين عاش بأرض جفاها الغيث أزمنة مديدة، هُجر أهلها البسطاء قسراً وبطلاناً.

(1) ندفه: ورقاته

اصطفاء

تتدافع الأيام و تتكرر الحكاية ولا يفتأ العجوز منذ بضع سنين يؤثر فاطمة بصحته على بقية أحفاده الكثر، وكأنه وجد فيها مأربه و استشرف غيبها وقابل أيامها، فعلم بيقين لا يساوره شك بأنها أهل لحمل الأمانة، فهو خبير استشفاف لنفسيات البشر فأثرها من بين أحفاده وعقبه، وحرص على صحبتها تحت كل الظروف ورغم كثرة القيل و القال، واشتعال الغيرة في قلب الكبير قبل الصغير، وقد رأى فيها ترجمة لتفاصيل رؤية كان قد رآها منذ زمن بعيد، وهي ما اعترضت يوماً ولا رفضت الصحبة تؤثرها على حياة الطفولة والصبا واللهم مع الأتراب في الأمسيات والصباحات، فرغم برعها الغض اليافع وطفولتها البكرية الناشئة زاحمت على صحبتته ورفقته وتعلقت بأعطافه، وباتت تحن إلى جوف القارب كأنه كهفها ومهدها، وترنو إلى حكايات العجوز وقصصه، وتطرب على نغماتها المنسجمة وانسياب الماء وسكون الكون، وشعرت وكأن جسدها يتشكل في قوالب حكاياته، وعقلها ينمو ويتضخم على مائدتها وتفاصيلها فأصبحت لا تقوى على فراقه، ولا تستطيع انسلاخاً منه،

وعلى صغر سنها كانت تدرك أن هذا العجوز ما حرص كل هذا الحرص على صحبتها إلا لأنه يضمر لها إضراراً عظيماً، وسيلقي عليها مع توالد الأيام حملاً ثقيلاً تجهل جوهره، وقاصر عقلها اليافع الحايي بعيداً عن عتبه التجربة والدراية عن استيعابه وفقه مضامينه وهي تستشرف ربيعها العاشر إلا أنه ثقل ثقل الجبال الراسيات الجاثمات على صدر الأرض فينوء عن تلقيه الفطناء، وما يحمله إلا الظلوم الجهول، وتطحن تحت أعبائه العمالقة و الصناديد من الرجال الأشداء وما يضرها وهي الدارجة شبله في مهب الطفولة والصباء، أن تستمتع بالحكايات وجمالها وتغذيها روحها لتكبر معها وعليها تشيب، كلما مدّ لها الزمان في العمر وبسط؛ ولهذا كانت تستشربها قلبها، وتعملها في عقلها وفكرها دون تنقية أو تمحيص، فلا هي أهل لهذا ولا هي راغبة في استباق الزمان أو استحضار الغيب البعيد قبل النضوج والاستواء....

فكانت تترك كلماته تنساب في خباياها وتدلف إلى بواطن عقلها النهم المتعطش، الذي جعلت منه وعاء لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من ذرب لسان عجوزها الحكيم، وقد قالوا إن عقول الصغار كآلة تسجيل ودفاتر بيضاء تحفظ كل ما يسطر عليها في زاوية اللا وعي حتى إذا ما كبروا استنهضوا الذاكرة ففاضت بمخزونها دون نقصان... وذات يوم وقد انكسر حر الشمس الصائفة، وراحت تهبط نحو الغرب بانحدار ملول، وقبل أن تحتجب بعقب البحر السحيق أدار العجوز قاربه المغترب نحو الشرق بحركة فنية فيها شيء من السحر،

وتكشف عن تمرس قديم، حركة استسلم القارب لخفتها وسرعتها
مذعنًا لقدمين مغروستين بثبات في جوفه...

رجع القارب بهم يسبح الهوينى، ويشق وجه البحر بصدرة الأحدب
المدبب كحد السيف عند ملتقى الأضلع، رجع متباطئًا يتهادى على
صوت العجوز الحادي الذي أطلق عنان حنجرته الجبلية لتصدح في
الأفق اللا متناهي، وحفيدته تدندن من خلفه كأنها رجع الصدى،
وبينا هو يغرق في أفانين الأهازيج ويقدح مواويل الأوف والعتابا
الحانية على الماضي المسلوب أمسكت عطفه الأيمن بيدها الناعمة،
ونظرت في عينيه ثم انفتق ثغرها القرمزي، وتحرك لسانها بجرأة
متحرراً من قيود التردد والخجل فسألت سؤالها البكر، ليش سموا
بلدنا جباليا؟؟

انحنى العجوز وهش إليها بحبور ذاهل ثم تلقفها بذراعيه وأقعدها
«حضنه»

وقال -في نفسه-: الآن وقد اطمئن قلبي أن ألقى الله في نفسك
الهداية، وأذنك بالكلام وأجرى على لسانك السؤال، وقد خشيت
شيخوخة مميتة تلاحقني وتطردني بغلظة الثبور الأخير -الهلاك-
المحتومة قبل أن أثبثك ما يعتمل في صدري وأفضي إليك بما يحور
في قلبي، ويجتره عقلي على مدار خمسة عقود ولى، لكنني أراك
تستبقين الموت القادم من السماء لينتشلني من براثن الشيخوخة
السئيمة، ثم أطلق آه متقطعة وقال بصوت خفيض:

- جباليا... آآآآه... إن كنت تفهمين وأراك كذلك.. إذ استوى عودك وأينع وأهلّ ربيعك الثالث عشر فاسمعي... اسم جباليا مأخوذ من الأمكنة العالية المرتفعة «الجبال»، جاءها الرومان غزاة وأقاموا على أراضيها قرية لهم أسموها «أزاليا» اندثرت فيما بعد، ويعود أصل عائلاتها إلى أجدادهم الكنعانيين والساميين، وقد أسلم أهلها سنة 15 للهجرة 636 ميلادي وأقاموا فيها جامع جباليا وحل فيها المماليك، ثم غزاها الصليبيون واحتلوا أرضها وهتكوا أستاذها وقتلوا أهلها واستحووا نساءها سنة 402 هجري 1599 ميلادي، وجعلوها إحدى أهم المدن الرئيسة في مملكة القدس، وظلت تحت وطأتهم تستنصر وتستغيث حتى حررها الناصر صلاح الدين 1183م

- واليهود جدي؟

- آه يا فاطمة، اليهود جنس غريب ليس له علاقة بجنسنا البشري، جاؤوا من وراء البحار وجثموا بصلف الغازي الباغي على أرض ليس لهم فيها سم الخياط، ولا موطن قدم، اغتصبوا البلاد على عين الشمس ولعقوا صرخاتها.. حتى ثملوا ووسموها بعار الدهر.

تحشرجت نفسه المضطربة وشعر بها تبلغ حلقومه لما اشتعلت حسراتها فغلبته العبرات فانهلّت على وجنتيه الجعد البارزتين، ثم تساقطت لتبلل ذؤبات شعرها، فلما أحست تدافع الأنفاس في الصدر المرتعد المتلاصق بظهرها أدارت عيونها فأجهشت ببكاء نحب، وسبحت العيون الطاعنة في السنين والغارب أوارها وتلك التي يتقد

أوارها، ويشرق زمانها الفتى بالدموع المنهمرة وتعانق الجسدان..

ذاك الذي أيسسته شقاوة السنين ولظاها، وأخذت تجفف من أوصاله ماء الحياة قطرة بعد قطرة حتى انحرق شعاره ودثاره، وذاك الذي تدفق الروح و الحياة في أوصاله و يربو في نضارة و يفاعه و التصق الوجهان، وجه العجوز الغارب في عقب السنين ووجهها المشرق في عين الزمن فاختلط الدمع بالدمع وصدحت لواعج⁽²⁾ القلبين، حتى رجَّع الفضاء البعيد صداها فتدارك الشيخ العجوز الأمر الجلل الذي أحدثه فكفكف الدمع، ولثم الوجنة البضة بغلو كأنه يمتص منها رشفة الحياة، ثم اتسق مع نفسه ولام في صمت استولاه عقله _اضطرابه_ ثم أسند ظهره الأحذب إلى سارية في مؤخرة القارب ونظر إليها بعيون ألبسها ثوبًا من الكبرياء والعظمة، يستر وراءها الخذلان والوهن اللذين نزلا به كصاعقة وقال: لا عليك يا فاطمة.. كفكفي دمعي بنيتي... فأسته بابتسامة رقيقة انسحبت في خفرٍ على محياها القمري، ثم أردف يقول: لقد ارتكب اليهود أبشع مجزرة ضد شعب فلسطين الأعزل، فقتلوا وسفكوا وهدموا وشردوا وهجروا؛ حتى تلونت الشوارع بلون الدم وعجعت الفضاءات بغبار الردم والهدم، وأقاموا دولتهم الغاصبة على أنقاض شعب عريق له أرومة⁽³⁾ ضاربة جذورها في عمق التاريخ، فصير بفعل الظلم والقهر شعبًا مهجرًا في بقاع الدنيا لا مأوى له ولا نصير.. راحت حيفا وصفد واللد

(2) آهات

(3) الموقد _ موضع النار

والرملة ويافا عروس البحر وغيرها من القرى والمدن والحبلى على الجرار والمجهول أعظم وأجل، فاليهود يؤمنون بأن توراتهم تطالبهم بإقامة دولة وكيان بين النهرين، وهذا يعني أن الغيب يحمل في طياته الشر الكريه والموت الزؤام إذ لم يبلغوا المرام بعد.

يَم وجهه شطر الغرب وبصوت نحيب مرتجف هامس، قال: رحل النهار يا فاطمة فلا بد أن نرجع أدراجنا، وحرك المجداف يحث قاربه الإسراع، فما أن هبط الليل بغلالته السوداء حتى انغرست المرسة في بطن الرمال، وسكن القارب على حافة الشاطئ، فترجلا يحملا صيد يومهم الضنين...

هنيئات كانا يدلفان⁽⁴⁾ بيتهم الرابض وسط جباليا بمحاذاة مسجدها التاريخي القديم، فتلقاهم الصغار والكبار بوجوه باسمه لعودتهم الميمونة من رحلة طالت على غير عادة من سابقاتها، احتضنتها أمها ولثمتها بقبلات عابرات وآخر ساخنات فاضحات؛ مما أثار الغيرة في نفوسٍ وأوغر صدوراً عاريات..

انداح العجوز عن الصخب إلى زاوية الفناء الشرقية، وانتصب هناك قائماً في صلاة خاشعة، وقبل التمام رفع يديه إلى السماء فناجى وابتهل بلسان راجف وشفاه راقصة بتمتمات مبهمات، ثم سلم عن اليمين وعن الشمال، فإذا بها منتصبه من خلفه فهمست بصوت

(4) ينزلان

وجل يخشى الرفض «بدي أنام عندك يا جدو»..

أطبق السبابة والإبهام على سوارها البرعمي وقادها إلى سقيفته الطينية المسروجة بالزيت الخالية من الأشياء إلا «جنيبة» صوفية افترشت جانب الحائط الغربي، تكوم عليها لحاف من صوف المواعز، وانبطحت عند الرأس منها وسادة محشوة بالقطن «المصري» الملبد، وعند عتبة الباب الداخلية دلة قهوة راسية عند فم الوجاق وجرة ماء متوسطة الحجم مصنوعة من الحمأ المسنون، وشعلة السراج تتراقص مع الريح المتسلل من شقوق الباب الخشبي ودرفة الباب المشرعة، فيخبو حيناً ويتسع حيناً فيفضي شاعرية على الأجواء ويزيدها سحراً.

أحمد العجوز جثته المنهكة على جنبيته، والتفتت هي كقطة صغيرة مستكينة في حضنه ووجهها ميمم شطر السراج، فزادها الوهج نوراً على نور وفي غمرة الحنان الأبوي الدافق قالت:

«جباليا»... فرد على عجل وكأنه انتظرها هناك عند النقطة الأولى، جباليا المتمردة على بحر خضم، عصي على الأعاصير، ما أخرجته جلبة الطغاة ولا خيول الغزاة ورجلهم فكما حلوا رحلوا، تأتي بهم الأطعمة فيرتدون ناكسين حفاة عراة ما بقي من أثرهم خلا حروف من حصي وضيعة مبعثرة إن جمعيتها نظماً قرأت (من هنا مروا)، وجباليا ببيتها الطينية المسقوفة بأعواد جرد، تمتد بتحد سافر لافت على هذه البقعة من فلسطين المقدسة، قال كلمته الأخيرة ولسانه

يترجرج، وقد غلبته تناؤبة طويلة و انزلق به الوسنان إلى نوم غطيٲ.

أرق الماضي

خطبهم شيخ الجمعة في مسجد جباليا عن نكبة 1948م، فأدار رأس العجوز إلى الوراء أعوامًا معدودات، وهو ساهم متدحرج يجرّ بطيئات الخطى و يشطر الشارع يم البيت، انزلق في فم البوابة وذرع الفناء ذرعات ثلاث، حتى واجهه صوتها الندي الذي نهر سهومه «عدت جدي»؟

-فاطمة !! تعالي..اقتربي..

اقتعدا صخرة مزية⁽⁵⁾ ملساء مستطيلة تمددت بطول المتر ونصف المتر تحت النافذة المطلة على الشارع، بلل لسانه الجاف متلمظًا بريقه ثم قال: خطبنا الشيخ اليوم عن النكبة، أتدرين ما النكبة؟ بحرت عيناها ولفها الوجوم، وأرجحت رأسها بين اليمين والشمال دون أن تنبس ببنت شفة، فبدأ يحدو بصوت خنن⁽⁶⁾ يوم النكبة

(5) الأحجار المزية الصلدة تشكل غالبية جبال فلسطين

(6) بداية البكاء

المشؤوم يوم الفجيعة الكبرى والغصة الآبدة...

ففي عام 1948 انقلبت عصابات الهاجانا الصهيونية القادمة من بلاد الخزر على التاريخ المسلم، جاؤوا بعدما لفظتهم الدنيا و أقصتهم دول الغرب ودول الشرق الأقصى عن بطاها إلى حزن الدولة الإسلامية (الإمبراطورية العثمانية وخلافة الإسلام الباسقة)، فأوتهم من ضياع وأطمعتهم من جوع وسترت عريهم المذل ولما اشتمل الجمع و قويت عصابته عضوا اليد الحبية⁽⁷⁾، وخاسوا العهد وزعموا أن الأرض أرضهم على ذمة كتابهم المقدس الذي طاله التحريف والتصرف بأنها أرض ميعادهم -أرض السمن و العسل- التي وعدھا الله نبيه موسى _عليه السلام_ فوثبوا على الضعفاء العزل و ثبة متنمر غادر، فقتلوا وهجروا واستباحوا وأقاموا دولتهم المشؤومة على بيضة البلاد، واستوطنوا السهوب والجبال من الشمال الشامي حتى الجنوب السينائي...

يوم كانت يافا وحيفا واللد والرملة وصفد والجليل والمجدل تبكي أهلها، وتنفرج لاحتلال غاصب

ميلاد بشرى

كانت جباليا اللاهية بطفولتك الغضة تستقبل أفواج المهجرين
المشردين الدافقين إليها من كل جانب، جاؤها حفاة عراة يكسوهم
الخوف ويقودهم الغيب إلى مصير مجهول، فتجمعوا في معسكرات
ومخيمات على أمل العودة يوماً ما إلى قراهم ومدنهم التي أحرقتها
القنابل والنيران، لقد كانت بينا والجورة والمجدل واللد وعكا وغيرها
من المدن الفلسطينية الساحلية فصارت اليوم أثراً بعد عين..

- أتذكر ميلادي جداه ؟

- آهٍ منفوثة من فم بركان غاضب خرجت من جحيم صدره، آهٍ يا
فاطمة ما زالت الحسرة تحرق كبدي، وما زال القلب يتقطع كلما
رجعت بي الذاكرة إلى شواطئ ذلك اليوم المشهود

- حدثني جداه فيني في شوق عارم

- ولدتك جباليا بين كثبان رملها الملتهبة، مخاضك كان عسيراً على

أمك الكلمى، لكننا رأيناك بذرة مباركة جادت بها السماء رغم الأم المرير المسافح لتزرع أمل الحياة في عيونٍ سكنها الرعب وعشعش في جنباتها الفرق⁽⁸⁾ ..

هنا في هذه الغرفة الطينية وضرب الحائط من خلف ظهره بساعد حاسر العطف، هنا انفتق الرحم المبارك، وهبطتِ تصرخين بصمتٍ وتثخين غشاء ملول، فقد حطتك الأقدار في يوم ذهلت فيه الأبصار، وذهلت فيه كل مرضعة عما أرضعت، ووضعت كل ذات حمل حملها، ورأينا الناس فيه سكارى وما هم بسكارى، هبطتِ وفلسطين بأسرها تصرخ وتولول، وغربان الغزاة تنعق والبوم تنعب خرابًا وهتكا للذمار والديار، فما سُمِعَ صُراخُكِ وعويلُكِ يومها وكأنك آثرت الصمت المميت في مهدك الممزق الذي صنعته أمك من أعواد القوص و القصب فرأيتك تغمضين أجفانك المبللة وتهدئين برضى قهري و تنامين على الطوى في عشك القشي ومنذ ذلك اليوم ألقى الله في قلبي حبك الذي يمدني بالحياة ويوحى إلي بأنك ستكونين صاحبة شأن عظيم في قابل الأيام.

دجنهم الليل فرماها بطرفه؛ فأحس بالسعادة تفيض من محياها، ولكنها كانت تقاوم الكرى الثقيل ببراءتها، وقال: اذهبي للنوم، فغداً سنرحل مبحرين جنوباً...

- أتقدر على الإبحار بعد هذه السنين؟

-أنتِ ترينني عجوزاً! لكن بين صدري قلب الشباب فما زال العظم صلباً، وما زالت جعبتني مليئة بأقاصيص وحكايات، ومضامين الر....

وقبل أن يلقي كلمته أمسك لسانه الهذر، ولامه على تسرعه بالإفشاء، وعلى عجلته بإفشاء السر إليها قبل التأكد من أنها أصبحت قادرة على حمل الرسالة وفهم مضامينها، ثم قال: إن موعدنا الصبح...

عرفت أن الحوار قد انتهى فرمته بابتسامة، وأمل عذب يطوف في أجفانها، وهي ترحل بأقدام مثقلة إلى حجرتها...

اندست في الفراش بين إخوة لها، وحملت عينها في الفراغ المزدهم بدوائر سرايبية متموجة، تشكلت بتداخل العتمة مع خيوط ضوء دقيقة تنبعث من توهج السراج، وتنسرب من الكوة الهرمية المنحوتة في حائط يفصل غرفة الصغار عن غرفة والديهما، وبدأت عملية اجترار سقيمة لحديث العجوز، ووقفت طويلاً عند ذكرى ميلادها المشؤوم وتساءلت: هل اختلط الأمر على جدي أم أنه يهزأ بطفولتي؟! كيف تكون ذكرى مباركة وقد غرقت البلاد في دموية الإنجليز وهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد، وعمت البلاد إضرابات شاملة، وخدمت ثورة البراق وعُلق أبطالها على أعواد المشانق، والمظاهرات تعم البلاد احتجاجاً على سياسة الانتداب الإنجليزي وتسليمه البلاد لليهود في مخطط سافر... كل هذا و ذكراري

مباركة! أراه قد جن العجوز! وقد أصابه الخبل و الخطل بلابل
صدرها تثور، حتى هجرها الكرى، وانقيدت بسلسلة أفكار طافت
بها في رحلة الغد، وما عساه يخبئ لها عجوز هرم و بما ستفيضه
ذاكرتها التي رعتها أنياب الشيخوخة.. لا أدري، إن الصبح لناظره
قريب وأسلمت روحها لنوم هنيء.

كانت مئذنة الجامع تعلن بتكبيراتها انبلاجة فجر آخر، لمّا هزت
كتفها العاري يد رحيمة، فانفجرت الأهداب عن حدقاتها، فرأته
نصف شبح أحذب يخيم من فوقها فعاجلها قبل الذهول.. قومي..
فاطمة.. قومي.. أذن الفجر وظهرت خيوط الصبح بالأفق..

انقلبت على ظهرها، وتركت جسدها يتمدد ويتمدد فتغشتها
سعادة ثرة، أثرت التلحف بها حتى نهايتها، إلا أنه قرعها بلطف
على تمللمها وتوانيتها وقال: ليس من شيم الر.... وأمسك.. فانتبهت
وقالت في صمت متوجس: ليست المرة الأولى يمسك فيها العجوز عن
إتمام كلماته! ماذا يضمير في نفسه يا ترى؟ ما الأمر؟ أمسك عن سوء
تراوده عنه نفسه اللائمة؟... لا أدري فإن كان من شيء ذي بال فلا بد
أن يفضي به يوماً ما، فلن يستطيع الصمت إلى الأبد.

كانت تهم بالخروج فنادتها أمها وهمست إليها يا فاطمة... جدك
ليس بالرجل القوي الذي عهدتيه، ولا بالبحار الذي كبرت ونشأت
على تمرسه ومغامراته، وأنت لست الطفلة الصغيرة التي لا يرغب
بها ولا يختلس النظر إلى مكائنها، فالحذر الحذر أماه، وعلقت على

كتفها زوادة فيها من خبز الشعير وزيت الزيتون والزعر المطحون
وقليل من الخضروات والفواكه الحمضية ما يسد الرمق ويقي باثقة
نهار وطواه، ثم طبعت على مياها قبله أموية رحيمة...

كان ينتظرها على مضض، ويتصبر واقفاً هملل أبله، وأرخی العنان
لضحكة هازئة قطعها متلمظاً بكلمات بكم: أطويل هذا اليوم
النكير؟! يلا يا فاطمة كفاك هدراً للوقت، فالشمس تزحف إلى
دائرة الحمل على عجل، هيا بنيتي.. اتبعيني.. خرجت في عقبه،
فولّوا وجوههم شطر الغرب يشطرون الشوارع الترابية.. هو يطوي
الأرض و هي تركل الحصى من خلفه، يلف رأسه و شطراً من وجهه
بكوفيته المرقطة وهي تخفي مباذله تحت غلالة سوداء، وشال
موشى يحجب مفاتن وجهها البدرى من خلسات مارقات قد تنثلها
عيون شيطانية رجيمة..

لغة الريح

خمسة عشرة دقيقة كان القارب يشق مسربه في عباب البحر، يدفعه العجوز المنغرس في بطنه بمجدافين معمرين، واتخذت فاطمة من أقصى المقدمة مجلساً وعرت صباحها للصبا البحري مما زاده تورداً و بهاءً، وقالت بصوت ندي: إنها ضحوة رائقة جميلة، سيكون يومنا غنياً بالصيد يا جدي.. أين الشباك؟

-دعك من الشبكة، إنها ليست سرحة صيد

-إذن.. ماذا نسمي ما نحن فيه؟

-إنما أردت الإبحار بك بعيداً في رحلة استكشاف

-هاهاهاها..

ضحكات مستشرزات متناثرات في عليل البحر قابلها العجوز بصمت

مقرع

-ماذا سنكتشف اليوم في عوالم البحر وغوامضه؟ ثم إني لم أعهدك
غواصًا يطارد الحيتان برمح وحربة

-سأكتشفك أكثر وتكتشفيني

-جدي.. إن لحديثك اليوم نشوة لاهبة ورحيق كاسر

صمت وخيم وشرد باهت ابتلعا الحوار الشّره وها هي ريح البحر
الهبوب تصفر بتناغم متسق و تعزف ألحانها مع سكون الكون
الصاحي من غيبوبة الليل المنصرم...

بعد ساعة إبحار كان القارب يترنح الهوينى وسط البحر البعيد،
وقد حجبته المسافات عن الشاطئ، حرر العجوز أعقاب المجدافين
من قبضته، وارتبع خشبة المؤخرة الناهدة عن التجوف قليلاً وقال:
أنصتي للريح في لجة الصمت المندحرة..

أخذتها الحيرة من السؤال، ولم يخاطرها في الخلجات المضطربة في
صدرها جواب، فاتخذت من الصمت متراسًا... فتابع القول: للريح
لغة رصينة لا تسمع ولا تقرأ إلا في مثل هذا البُعد المنقطع عن
ضوضاء الدنيا وضجيج نهاراتها

-أرهفت إليه أذنيها وصاقتها بشوق اللهفان واتسعت عيناها قاذفة
باستفسار وتبيان.. أخرف العجوز وحثل عقله؟! أم أنها حكمة تتفجر
من جوانبه!

- لغة الريح هي صوت السماء ونداءاتها في عريّ هذا الفضاء الفسيح، تمر الملائكة السماوية مع تيارات الريح كل صباح فتلقي برسائل السماء وتوزع الأقدار على أبناء الأرض، و فقط هم الصالحون المصلحون المتحركون بإيجابية منسجمة ومتناسقة مع فطرة الكون السليمة هم الذين ينعمون بالتلقي دون حجاب، الأنبياء تلقوا رسالاتهم على رؤوس الجبال في الكهوف المعلقة بالعنق الجبلي المعرى في عين السماء... موسى _ عليه السلام _ من على جبل الطور صار كليم الله، وتلقى الألواح، ومحمد _ عليه السلام _ في عنق الجبل في فم الغار قيل له اقرأ؛ فصار معلم البشرية الأول.. ولتكون عظيمًا عليك في كثير من الأحيان أن تتواجد في الصفاء اللامتناهي، والسكون الكوني الذي يشف لك مكامن الغيب بعد التوحد... هذا البحر المنبسط وهذه القبة العاتية ألا يشكلان تجويفًا كهفيًا ليس له حدود يبتلع في جوفه الدنيا بأشائها القزمية الحقيرة!، والريح تعبر هذا التجويف محملة بأوامر السماء؛ فتلقبها بسمفونية لا تعيها إلا أذن مختارة تجيد الإصغاء اللامتناهي.. وقبل أن تنبس بينت شفة تابع قائلاً: إذا ما انحدرت الشمس من سدرتها، وأخذ النهار يتأصل بأصيل مُبرد بعد هاجرة الظهيرة، انهريني من غطيظ النوم.

انسبل في قعر التجويف ثم غرس ركبتيه في بطنه واستدرك قائلاً: لا تنامي.. عليك الحذر حتى يصل القارب إلى عين المعرفة ثم راح في سبات ذاوٍ ورقدةٍ دبكة...

- إن لحديثه نشوة تسكر العقل وتشعل الذاكرة، هذا العجوز الهرم

يفيض بحكمة السماء وعلمها الثر الغزير الوسيح، وهذا الرأس الكبير بارتباع جبهته وهرمية شذقيه.. إنه لرأس أغنته الحياة بتصاريفها واعتلالاتها عن مدارس التلقين والرتابة المملّة السيّمة، لكن... لماذا نهربي عن النوم؟ وأنى لضلال في هذا الانبطاح المائي اللامتناهي! لا خير.. سأغالب الكرى بالبحث عن أذنان الحيتان أو فقعات تقذف بها أفواه أسماك طاردها الخوف من الانسحاق في عوالم البحر التحتية فتفر إلى السطح بحثًا عن نجاة مستحيلة..

فتحت زوادتها، دست يدها في الجوف فعادت بكسرة خبز، قضمت قضة فاستحيت ولامت نفسها لومة صدق.. أتأكلين؟! والجد الأكبر يغط في سبات هانئ نعيم.. همت بإرجاعها وفي لمحة راحت تقضمها وتتفلها في البحر وتدنن لسماكته بترنم فوضوي تدعوها إلى النقاط القضات المعطرة برضابها الفياح الزكي، ثم بادرها خاطر مغامر، فانتصبت قائمة ثم سلخت قدميها من حفاية بلاستيكية نصف مخرقة فأعادتهما إلى طبيعتهما الفطرية العارية، ونزعت رأسها من لفافة الشال الموشى، فانتعت عاريًا في خلاء بعيد إلا عن عين الشمس والملائكة العفيفة الطائفة مع تيارات الريح _ إن صدق العجوز _، حلت دُوبات شعرها ليتناثر بفوضى عارمة على الوجه الوضيء و ينسدل بتعرج بين كتفيها، رفعت رجلها اليمنى فغرست قدمها العارية في الحافة اليمنى عند أقصى التجويف الأمامي، وفعلت بتطابق و تشابه مع رجلها اليسرى.. فانفرتنا بتناسق قسري فرضته انفراجة طرفي القارب... وبتمطيط بطيء حذر راحت قامتها

تشق الأفق السفلي حتى انتصبت عن آخرها، وأطلقت ذراعيها عن يمين وشمال، فتشرع الجسد النضر الغض في مصب الريح، فغمرتها نشوة ذاهلة تفيض سعادة بكرية، وهي تصدم مجاري الريح فيخترقُ مبادلها حتى الأعماق، فشعرت بجوانبها تتفجر بنور ملائكي وروحها ترقص بانعناق فاضح على أنغام ريح هبوب، وساعدها قاربها السبوح دون وارب⁽⁹⁾ وانسجامه التام ولعبتها الطفولية البلهاء الخطرة، فانفصلت بروحها ونفسها عن دورة الأيام، وذوت في توحد مع الكون وانفكك سوي عن محظيات الزمان والمكان، وهامت في ربي خيال عذب ارتقى بها إلى مساكن الملائكة وعروشهم البلورية..

وبينما هي في تألقها الملائكي الساحر، انبجست من العيون الهرمة نظرة خاطفة، فرأها كطير يحلق بجناحين من نور في أفق سحيق فأوجس خيفة، فهَمَّ قيامًا ليلقفها قبل سقوط رعيب لكنه انثنى عن عزمته وأثر الاختلاس من وراء الصمت..

همس لنفسه..إنها تتوحد مع الفطرة السليمة وتحبو على عتبات عرش ملائكي في المكان اللا مرئي، يعاوده وحر الصدر⁽¹⁰⁾ خيفة من سقوط غادر فيهمُّ ردعها، لكنه يستسلم مرة أخرى لإداركه بأنها وجدت مفتاح القوة الكامنة في روحها، القوة الملائكية التي تمتطي الريح وتدفع البحر وتسلخها عن الطينية اللازبة وترتقي بها إلى

(9) التواء وانحراف

(10) بلابل ووساوس

ملائكية يقظةٍ رحيمة... وبيننا هي في غفوة حلم طليق دغدغتها
 نسمات رقيقةٍ وردت وجنتيها وأحست بريح بليلة⁽¹¹⁾ تغسلها من
 علقات الدنيا وتنقي روحها من أرجاسها، و كأنها تتطهر في حوض
 لحي من أحواض الجنة، فانتبهت لنفسها فإذا الشمس قد ودعت
 دارتها، وانزلقت عن سدرتها و صار الأصيل خلف الزمن.. فشهقت
 خيفة من غضة العجوز، فهبطت من أبراجها وخطت بتؤدة نحوه
 وقالت بنغمٍ طفولي: لقد ودعنا الأصيل يا نؤوم..

(11) باردة ذات ندى

سر المفاتيح

- ادعى انتفاضة من عثار النوم، ورفع يده من فوق حاجبيه وألصقها
نصف قوس بجهته، ونظر نحو الغرب، وقال بلهجة غضبي: أما
قلت لك انهريني عندما يهبط الأصيل؟

- لم أنتبه

- أراك غرقت في نوم أعمى أو سهوم أهوج في اللا شيء... أم هي
عبثية الطفولة وفوضى اللا فهم لضرورة الوقت وأهميته؟

- قالت في وجل وخفر ترد الهجوم المسافح: بل عبرت عين المعرفة
فوجدت المفاتيح!

بهت الرجل ودهش...

- أتقصدين مفاتي...؟

- قاطعته قائلة: الإيمان، اليقين، التوكل، مفاتيح القوة الملائكية

الكامنة في الروح البشرية المحصنة بنفحة من روح الإله..

* إيمان بالله الواحد

* يقين بالقدرة الإلهية

* توكل وتسليم بعد أخذ بالأسباب

- الآن ففهمت لغة الريح ورسالاتها

- قل ما شئت فالأمر سيان عندي.. المهم أنني أستطيع امتطاء
الريح، والرقي في الآفاق السحيقة متى شئت وأستطيع كذلك تحريك
الأشياء متى شئت ونظمها على الوجه الذي أريد

- أراك تتلألئين، يتفجر من جوانبك نور سماوي

- هزت رأسها..

- لا أهزأ إنها _حقيقة صبح_ لكن هناك معراجان، أحدهما
عمودي يخترق الفضاءات الصاعدة إلى السماء، وهذا فيه مساكن
الروح، وأراك قد سلكتيه باقتدار، ومعراج أفقي يخترق الجهات
الدينوية، وفيه مساكن الجسد ومراتعه، وتعتريه شوائب وتعتوره
عقبات كآداء، وإذا ما أردت أن تجوي دروبه وأن تحومي في أزمنته
لتأدية رسالة ما، أو البحث عن فكرة ما، يكون لزاماً عليك أن تملكي
المفاتيح.. وهي

* التفكير الواعي في اللا مدرك للناس

* الصبر المديد المرير على ما لا طاقة للناس به

* الصمت الطويل فيما لا قدرة للناس عنده

هي مفاتيح إن جمعيتها قهرت الدنيا وملكتها

- وأنى السبيل إلى ذلك؟

- هذه السويغات التي اختليت بها في خواء السكون، وجعلت روحك حرة سبوحة في الملكوت اللامتناهي كما هي الغيوم في أعالي الأفق... يمكن أن تكون البداية نحو المقصود، وتابع: أرى قرص الشمس قد برد، ولاحت خيوط الشفق في محيا الأفول الوديع، فلا بد من الرحيل، التقط مقبض المجذافين وراح يحرفه ببطء حتى يمهه باتجاه الشرق ثم قال:

- هل أكلت يا فاطمة؟؟

-غذاء روحي أغناني عن غذاء جسدي

-الضرورة التي تطرد طوى المعدة المحرق وتسد الصلب وتُقوي تجويفك الذي يحرس روحك الملائكية... خذي ما شئت من الزوادة وهاتيني بكسرة خبز.

وفاء ذاكرة

كان الليل يهبط ببطء أبكم، ولاحت وصوصات نجماته المتعلقة في تجويف القبّة، وبدا القمر بهيّا في حلة نورانية، تتدلى منها خيوط ذهبية تنير الدرب البحري العائد إلى الشاطئ الغزي البعيد.. قالت وهي تجلس القرفصاء وتهيم بمحياها البسيم في سحر الليلة القمراء.. جداه: كنت قد ذكرت في معرض حديثك إليّ ذات مرة.. مدينتنا الأم غزة

- ذاك يوم بعيد، غار في عمري خمس سنين قضين، إذ حدثتك حينذاك عن جباليا

- قل لي من أي الأردية نسجت ذاكرة حادة متقدمة، ظننت أنك نسيت

فقاطعها قائلاً:

-لا تظني، فذاكرتي لم تخذلني يوماً، وهي من الوفاء لي بمكان يجعلني

مطمئنًا على كنوزها وفخورًا بحدتها ونشاطها، منذ ذلك الحين ظلت تطارد ذاكرتي كلمتان اثنتان من جملة ما قلت، ولم يساورني شك بأنك يومًا ما ستسأليني البيان والتبيين عنهما، هذه واحدة

- ٥١..صحيح

وقبل أن تنطق الثانية استبقها بالقول:

غزة مدينة عريقة قديمة ضاربة في عمق التاريخ، وقد قيل إنها رابع مدينة بنيت على وجه الأرض، وقد بناها الكنعانيون القدماء

-يغويها حديثه... تدهشها فطنته وحده ذاكته التي دخلت حومة السبعين، وما زالت جدرها مكينة حصينة، يبهرها عقله الزاخر الفياض، وهذا الحضور الأخاذ يشدها ويطغيها بالاستزادة فلا غضاضة ولا ملل في حديثه، تمنى لو أن وعاء رأسها يتسع لكل ما تفيض به ذاكرته العجوز.. لا.. لا بل ذاكرته الفتية مستدركة انزلاقة لسانها بعدما أراها من ذاكرته وعلمه واطلاعه الواسع عجبًا، ويتابع قائلاً: لقد علمنا أن المدينة كان يحيط بها سور عظيم وله أربعة أبواب من جهاتها الأربع..

أخذ نفسًا عميقًا وسكت هنيهة، فأوجست خيفة من أن ينهي الحكاية فقالت بدهاء:

- سمعت أن القدس مدينة الأنبياء _عليهم السلام_، وأن محمدًا

النبي _صلى الله عليه وسلم - عرج إلى ربه سبحانه من قبته
المشرفة

-يومًا ما سيحدثك أحدهم عن القدس، وتابع قائلاً: من حيث..
قاطعه بجملتها الاعتراضية الأنفة، وكان أجدادي يقولون: إن فرقة
من بني إسرائيل القدماء جاؤوا من مصر فاحتلوها، وبقيت قرونًا
مديدة حتى حررها الفلسطينيون القدماء، ثم جاء ملك اسمه
شمشون حطم أبواب المدينة واحتلها من جديد، ونقل أبوابها إلى
جبل جنوب المدينة يعرف بجبل المنطار، وقد أسر شمشون فيها
فيما بعد، ثم جاء الإسكندر الأكبر المقدوني حاصرها لمدة ثلاثة أشهر
حصارًا مميّتًا، لكنها صمدت أمام بطش جيوشهم وخيلهم ورجلهم،
فأحرق الحقول ودمر ونكل، وهي تأبى الاستسلام، وقد احتلها من
بعده الرومان وضموها إلى سوريا الشام

- يا جداه... كيف لك أن تحفظ تاريخًا سحيقًا بمسمياته وأزمنته على
هذا النحو الدقيق؟ في أي الكتب درست ذلك؟ وهل عليّ الاستئنان
بك؟ وهل من واجبي أن أعي وأكون على بصيرة بكل ما ذكرت!؟

- لقد تعلمنا ذلك في الكُتّاب، وأثريت معرفتي بالتاريخ من بعض
المخطوطات القديمة الموجودة في المساجد، ومن كان قدره أن يكون
عظيمًا يجب أن تكون له رأس كبيرة تحتضن عقلًا كبيرًا، ومن العار

أن يعيش المرء بأرض يأكل كلأها ويشرب قطرها ويأوي إلى كهوفها
ويدعي الانتماء إليها وهو يجهل بياناتها وجغرافيتها ولا يعرف منها
إلا اسمها...

أول الأمر

وأنت يا فاطمة تحملين رسالة، قال كلمته الأخيرة وتابع السرد دون أن يلوي عليها، وتركها تهيم في بوتقة عقم جهول، وتذوي في حومة الفكر الضليل وتهاجمها خواطر نكراء

- أحمل رسالة؟! أي رسالة؟! لمن هي؟! وما مضامينها وحيثياتها؟! أهى من ملائكة السماء إلى أهل الأرض السادرين؟! لكن معلمة المدرسة قالت لا وحي بعد النبي محمد _ صلى الله عليه وسلم_، لقد انقطع الوحي برحيله إلى رب السماء، والله إن هذا العجوز قد أصابه مس يقلقني، أراه قد انحرف فكره، هذا إن كان يحمل فكرًا أصلًا، وكأني به يزج بحفيدته إلى أتون دعوة نكراء باطلة، وأصبح يحدثها عن الرسل والرسالة بشكل صريح دون تردد أو انقطاع

- قال: «لم تختص الرسالة بالرسل وحدهم يا هذه»

- تنبهت من سهومها الفج آه... لقد تاب العجوز.. أب إلى رشده.

-لقد أعلمتك في يوم سحيق كنت تدرجين على آجامك شبله بعد، أن الناس يخلقون بنفحة من روح الله الواحد، وهذا التكريم لهذا المخلوق الصلصالي على سائر الخلائق، حاشا لله أن يكون من ضروب اللهو أو اللعب «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَآعِينَ»⁽¹²⁾ لأن في عنق الإنسانية رسالة سماوية ابتدأها الأنبياء والمرسلون، وعلى ورثتهم أن يصلوا بها إلى الهدف المنشود، وإنها لرسالة عظيمة وثقيلة المعنى والمضمون، و فقط النبي المؤيد من السماء والمعصوم هو الذي يستطيع أن يحملها جملة واحدة بأعبائها الجسام وأثقالها التي تنوء بها الجبال، ولما كان الإنسان ضعيفاً ولا يملك المعجزات ولا يعتره وحي السماء، كان لابد من تجزئة الرسالة، والذين يختصهم الله بالتوريث هم فقط المصطفون الأخيار من قبل الله وهم العظماء، وإن التجزئة يأتي شكلها ومضمونها حسب حاجة الزمان والظروف المكانية ومتطلباتها، لكن هناك أمر مهم أن الأجزاء جميعها تبقى تحوم في الإطار الأسمى للرسالة، وهو سيادة الفطرة الإنسانية الأولى التي بعث عليها خلق الله... بمعنى أن يكون الحق سيد هذه الأرض كما أن السماء لا يمكن أن يكون للباطل الظالم فيها سهم ولا نوال...

رمال وحضارات

وغزة هذه تحت رمالها النحاسية ومبانيها وشوارعها ترقد مظاهر الحضارات السالفة، إغريق، رومان، بيزنطة، الإسكندر العظيم... كان هنا جذور أجدادك أرومتك السحيقة حتى أول الكنعانيين، أتراك، يونانيون، فراغنة قدماء، تثار هولوكو، المغول، صليبيون وغيرهم، تراث وتاريخ ثاو ثواء الخواء اللامتناهي، منسي في ذاكرة البشر، على ظهرها ما زالت دلالات وآثار شاهدة على عمق حضارتها وعراقه تاريخها، فهذه المقبرة الرومانية في (أرض نمر)، وهناك في أرض حلاوة مغارة الملكة هيلانا وغيرها، مما دثرته عوامل الطبيعة وجشع الطبيعة الإنسانية البائسة، فكلما جاءت أمة لغت أختها، وهذا من شنيع الفعل البشري

- لا ملل إن لحديثه طلاوة وبلاغة لسان تأسر المستمع وتريح النفس المضطربة، حتى الأشياء الجامدة تخشع وتتمايل، هذا القارب الخشبي يتهادى ويسبح بصمت الخاشعين، إنه لساحر جدي هذا

- في بطن هذه الأرض يرقد هاشم جد النبي _ صلى الله عليه وسلم _

-تهمس مرة أخرى إنك والله لعجيب، من يوحى إليك بهذا كله
تفيض من عقلك كأنه لوح محفوظ أحالته رغبتك بالكلام إلى كتاب
منظور

- كانت أيام الفتح الإسلامي من نصيب معاوية بن أبي سفيان..
صحابي جليل من صحابة النبي محمد _ صلى الله عليه وسلم _،
ولقد آثرها الله بميلاد نبيه سليمان _ عليه السلام _ الذي سخرت له
الريح غدوها شهر ورواحها شهر

-قالت وقد خطرها خاطر بأنها ستوقع العجوز بسؤالها الثائر في
كمين الجهالة، فقد يكون هذا العجوز حاز من العلم، وعرف
من التاريخ ما يجعله أستاذًا فذاً، لكن من غير المعقول أن يقف
على إجابة لسؤالٍ... جداه... لقد ذكرت من الحضارات العريقة
والمسميات العملاقة التي عبرت تاريخ هذه المنطقة النائية من
الأرض واستوطنتها ردحًا من الزمن، ثم أردفت تقول في خفر:

-أتدري جداه ما هي الأسباب التي تجعل هؤلاء العمالقة يبذلون
أرواحهم في سبيل السيطرة على هذا الفج الرملي من بين فجاج
الأرض الخصيبة؟

أوحره⁽¹³⁾ سؤالها، فبلّ لسانه مع زمات متتابعات لشدقيه الهرمين، وطقق عنقه الدقيق قبل أن ينطق بشيء، فظنت الظنون المتشفيات التي أوهمتها بأنه سقط في حفرة اللا دراية فغضت الطرف عن كبريائه المتهاوي وأطرقت تسمع عجزه واستسلامه فصفعها بجواب متجهم: هي سنة التدافع التي استتّها الله بين عباده، وتفضل بها عليهم، فقد جاء في الكتاب المقدس (القرآن) قوله تعالى: «وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ»⁽¹⁴⁾

عوضًا عن الأهمية الجغرافية التي تتمتع بها هذه المنطقة النائية كما أسميتها، وهذا من الخطورة بمكان أن تبيتي على معتقد مغلوپ كهذا، والعظماء يقصدسون أهمهم التي ولدتهم وآوتهم مهما كانت وضيفة وطيفة في عيون الآخرين.. ثم إنها نقطة وصل بين القارة السوداء «أفريقيا» مع بلاد الشام الآسيوية وهي مدينة مهمة في الحياة التجارية التي هي من أهم مقومات الحياة البشرية، وكانت ميناء تجاريًا مهمًا للقوافل العابرة من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام

-أعلم أن رأسك يتصدع، والجهد أعياءك، لكنني سأزيدك جرعة أخرى غصبًا منك أو رضى فلا أبه لذلك..

(13) غاظه بشدة

(14) قرآن كريم، سورة البقرة: آية 251

هذا البلد وُلد لكبراء العلماء وعظماء الدنيا أمثال محمد بن إدريس الشافعي صاحب المذهب السني الذي نتبعه

- الشافعي هذا، ذكرته معلمتنا في معرض حديثها عن الدين الإسلامي ولكن...

- إن عادت إلى ذلك ففيضي عليها بما كنت تجهلين..

قطع وأوجز كأنه لا يريد مقاطعة منها لإسهابه السياب بتناسقه المذهل

- بلدك هذا يوم أن كان العالم البعيد يخبط في شعاب الجهل، ويرسف في متاهات العمى الفكري والضلال الإلحادي الظلوم، كانت غزة منارة العلم والتنوير يخطبها كل باحث عن الحقيقة ويزورها من أراد لعقله هداية ونوراً، فجاءتها قوافل الطلبة رجالاً وعلى كل ضامر من كل فج عميق من أثينا بلاد الغرب اليوناني، بلد الفلاسفة والمفكرين العباقره وبلاد فارس بلاد العجم تستعير أساتذتها لتنوير العقول وتحريرها من جهالة دامسة.. هذه غزة يا فاطمة!

قالت في سرها: بعد اليوم لن أشك في معرفة هذا العجوز وقدرته اللامة بالأشياء، وفروعها وأصولها وأسبابها ومسبباتها.... إنه رسول

توجس أم

كانت أمها خديجة قد دخلت في حالة من القلق الحذر، لما رأت الشمس تغرق في حجاب الغروب، ولم يعد العجوز بابنتها بعد...
فقال بصوت متهدج لزوجها: يارجل، ألا تخشى على ابنتك؟ فقد هبط الليل ولم يعودا بعد!

-يا خديجة، أتخشين على فاطمة وهي مع جدها؟

-يا رجل، إنهما في البحر والبحر لا يؤمن غدره

-يا خديجة، البحر لا يغدر بمن يحب

-كلامك فاضي...البحر غدار، والعجوز اليوم مش زي زمان

-يا امرأة، اطمئني فلا أعرف أحدًا في غزة كلها يحبه البحر مثل أبي، ولا أحد يفهم البحر وأسراره مثله

-والله يا حبيبي أنا مش مطمئنة قوم انزل البحر شوف ليش تأخروا

-ياخديجة.. الله الحافظ اصبري شوي بيوصلوا

-والله ما أنا صابرة وأنا اللي نازلة البحر

كان القارب يضرب وجه الشاطئ ويلتطم برمله، والليل قد أكمل عتمته وحجب الأفق لما ترجلا كعاشقين سبحت بهم الأحلام يوماً نعيماً لطيفاً، وعلى غفلة منهم ثغر صوت متهدج.. فاطمة!!.. عماءه!!.. لقد أخفتمونا وتوجسنا الشر بكما، وجئت هائمة على وجهي حتى صدني هذا الفراغ اللامتناهي فجلست أرقب والوسواس يأكلني ويهشم أوصالي

- مَنْ؟ خديجة؟ الأم الرؤوم تخشى على ابنتها، هي الأم وطبيعتها، يا لقلب الأم

- بل خشينا عليكما معاً

- فطينة وذكاؤك أبله يا خديجة، ولم العذر؟!، فالأم أكثر ما تخشى وتخاف إنما على فلذة كبدها... هذه طبيعة البشر فلا ضير، ها هي سالمة إلا من قليل صداع وطوى يقرقع معدتها تفقديها تحسسيها وأظنها غنمت اليوم، وحببت بشيء لا تعطيها إياه الأيام والسنون، والبحر لا يبتلع من يفقه لغته يا نسوة

- قالت الصغيرة في نفسها: إذا جمع فإنه حتماً يعينني يا لهذا العجوز لا تفتأ الحكمة تنسرب من بين فكيه الدقيقين، لكنه حدثني فيما مضى عن لغة الريح، ولم يذكر أن للبحر لغة

-قالت الأم في نفسها: عن أي غنيمة يتحدث هذا العجوز! فلا أراها قد حازت شيئاً ولا جعبة لها تخبئ في ثناياها لؤلؤاً ولا محاراً، إنه خرف مُضَل

اهتزت جلايبته بفعل قهقهة هازئة حبسها في العمق الأبكم... فأوجست الأم وجفلت عيناها وهمست في ناحية الليل الأخرى لقد سمع العجوز هذرتي وثلمة قولي البئيس... يا ويلتاه!

تقدمهن يشق العتمة على وصوصة النجوم والخيوط القمرية المنهلة من فضاء حَيِي بالنور على دنيا الظلام، وهن يردفنه بخطا عجلي متهامستين متضاحكتين في ستر الليل، وما هي إلا حفنة من الدقائق المعدودات حتى دلفوا فناء البيت وأذان العشاء يصدح في الأفاق بتكبيرات ندية أضفى عليها صوت حنجرة جبلية رحبة المخارج قوية الأوتار بنغمة شجن أسرة وقبل أن تبتلعه سقيفته نظر إليها وهي تخطو بهلانكية نحو عشاها، وقال: إن موعدنا اليوم⁽¹⁵⁾ من الشهر الجاري يا بنيتي

(15) اليوم الأخير من الشهر

موعد غيب

- أي نوع من البشر هذا العجوز يتّعدني آخر الشهر وما زلنا في خرطومه وغرته؟ ثم أنى يضمن حياة طويلة كهذه! أخذ على الله سبحانه عهدًا ألا يموت أبدًا ويحيا مخلدًا! ثم كيف يتجاهل هذه الشيخوخة التي تهوي به إلى حضيض العمر، وتجره على عجل إلى مثواه الأخير! أطلع الغيب وقرأ الأجل؟!

- من طرف خفي يدرك وسواسها الحتمي وكأنه فهم حيرة فكرها فقال بصوت صرير: إن أصحاب الرسائل نوعان أو فرعان اثنان من البشر، فرع لا يموت إلا بعدما ينهي رسالته ويقلدها وريثًا من بعده، وفرع فقط يموته تصل الرسالة للعالمين من بعده

- يا ترى من أي فرع أكون إذا ما كنت صاحبة رسالة؟

- أنت كذلك..مؤكدًا حملها لرسالةٍ أو جزء منها وتركها في حومة حيرة داكنة، وزاد من بهيتها أن قال: اذهبي إلى أعوادك، وأشار بقوس حاجبيه مودعًا قبل أن يغيب في جوف سقيفته...

-أعوادي !! كيف ذلك؟ من أعلمه والله إنه يعلم الغيب ولا ريب!

لكن كيف له أن يعلم وقد رَمست فعلي هذا عن كل البشر، وأسرت به بين نفسي وربي، إنه يذهلني بل يقتلني عجبًا ويترك قلبي يتصرمُ حرقه وشوقًا لما يخبئه لي هذا العجوز الآفل.. بت أخشاه وأهاب سلطان عقله الطاغي معرفة واطلاعًا، فإما أن يكون وحيًا يوحى إليه وهذا مستحيل كما عهد إليّ في زمن مضى بأن وحي السماء انقطع بموت السيد المرسل محمد_صلى الله عليه وسلم، وإما شياطين الجن تسترق له الغيب وتأتيه بما يعجز عن تصديقه إنسي.. إن عقلي يرجح هذا، نعم هو، هو كذلك

كان الأود نال منها وبلغ أقاصيه، ففضلت الاضطجاع وهي تروي رحلتها لإخوتها الذين كانت تأكلهم الغيرة، ويزداد في صدورهم الحسد منها والكره لجدهم الذي خصها بكل هذه الحظوة ولم يعر إليهم انتباهًا، فقد رأوا كيف أنها بصحبته أصبحت تفهم الأشياء والحياة وكيف أصبح لها عقل كبير يفيض بالقصص والحكايات.. كانت تحدثهم عن إحدائيات رحلتها بعيدًا عن كشف الأسرار، وأمها تسمع إليها بشغف وقد تملكها خوف شديد على ابنتها وساورتها شكوك بأن هذا العجوز لا بد من أنه يضمّر أمرًا عظيمًا فقالت: «الله يستر من عواقبها»

ولما انفض الجمع قامت فاطمة متناقلة منسلة من الباب الشمالي إلى زاوية الفناء الشمالية الخاوية التي تخفي عصبة أعواد برتقال

يابسات جرد داخل اسطوانة حديدية لولبية صدئة ألقته هناك
بلا مبالاة حتى لا تثير فضول المتطفلين، تناولتها بخفة المتلصين
ودفقت ما بداخلها عدتها بعيونها الموصولة... نعم صحيح أكدت
قول عينيها بلسان هامس بأن العدد مضبوط غير منقوص، تحسستها
برفق ثم لاطفتها بشفتيها النديتين قبل أن تودعها من جديد في
مخبئها المؤقت، ورجعت الهويني إلى مخدعها فاندست بين الجثث
الهامدة، وشخير متناوب بين مناخر تنخر وأفواه مشرعة تزفر بالنوم
العميق... وبينما هي شرودة الفكر فاءت إلى قولته الأخيرة « أصحاب
الرسالات فرعان اثنان من البشر»

فحامت في طوايا سؤال النفس الهاجم بسفور غير متردد، من أي
الفريقين أنت يا فاطمة!؟

أعيها الليل البهيم وضنَّ عليها الجواب، فعقدت العهد مع النفس
الملحاحة إن كان من الصباح حياة، ستطغى عليه بتطفل الصغار و
بابتساماتها الوادعة البريئة؛ حتى تستخرج السر المكتوم من صدره،
وإن لم تنجح في ذلك فستقطع كبده بعبراتها الحرى، وستبكي لطيمة
ونواحًا حتى تحترق عاطفته الجحود ألمًا على حالها فتطامن مرادها،
ليس لهذا العجوز مناص ولا فكاك من حبال، إن موعدنا الصبح
أليس الصبح بقريب يا عجوزي المسكين!

ضحكت لنفسها رضا وهداية وغطت في نوم سحيق...

في السقيفة كانت ترانيم الابتهالات قد بدأت تعزف على أوتار العتمة، فقد انتصب العجوز في مقام الرحمة رافعاً يديه إلى وجه السماء:

«اللهم إنك تعلم أن عبدك محمود هذا لا يملك من أمره شيئاً، ولا علم له إلا ما علمته ولا حكمة عنده إلا ما آتته فإنك تؤتي الحكمة من تشاء، ومن تؤتيه الحكمة فقد أوتي الخير كله وحاز العلم على سعته، اللهم إنك تعلم أني أرفل في شيخوخة مميتة تلاحقني بأشباحها وتثقل كاهلي وتجثم على صدري وتقهرني إلى الاستسلام المقيت، فاللهم أمد في العمر حتى أوفي العهد، وأنجز الوعد الذي وعدت، وخر ساجداً في محراب الهزيع الثالث من الليل حتى أخذته سنة من النوم... فعاود المنام القديم فرأى أن ابنته فاطمة كنخلة باسقة فارعة في سماء لا متناهية مثقلة بثمار ناضجات، حلوة المذاق وتميل بقطوف متدييات حتى تدنو من رؤوس الفئام من الناس، شعث غبر فيتناولونها بأصابع جوعى، فتقلب حبات من نور منشورة تصعد في السماء حتى تبتلعها

أحياء أذان الفجر من غفوته، وهو في حبوة رضية وحبور فياض يشع من جوانبه

جاءته تمشي على استحياء، وهو يفترش صخرته الصماء الرابضة عند صدر البيت يتهلل وجهها الوضاء كأنه البدر في تمامه، وطلعتها تسبي العين واللب كطلعة شادن من على عين غدير عذب

-استويت يا فاطمة واحترق جمالك تورداً.. بادرها قائلاً

-مغازلة أم مجاملة جداه؟

-سيكون من أترابك غيرة وحسد فتحصني بالمعوذات المقدسات،
فربيعك الخامس عشر مورق يانع

-كنت قد عقدت نية من ليلتي البائدة إن كان لي من حياة أن....

-أشار إليها بيد الصد المقذع... لا تسألني ففي فمي ماء، وأراك
مطرودة اليوم من مدرستك لتأخرك الفاضح هذا، هيا اذهبي

انقلبت بوجه عابس وبنفس حانقة ومشيت خطواتها الجرحى،
وهي تولول وتطعن نفسها بسكين الجبن طعنات داميات... جبانة..
جبانة... جبانة أنت يا فاطمة... كيف لجبانة مثلك أن توهم نفسها
بأنها صاحبة رسالة!... وا أسفاه على ليلة حاملة راودتني بأمل التحرر
من جُبني الفاسد المتعفن، مدت يدها تفتح ردفة الباب المفضي إلى
الشارع فردفها صوته هنيئاً لك يا فاطمة..

- على ماذا؟ على أي جبانة بكماء متهاوية أمام كبريائك الفظ؟،
صفعت الباب خلفها وولت وجهها شطر مدرستها، وهي تلعن
يومها النكر، وتأسف على تهورها الأهوج النكد المسفوح حياؤه على
عتبة العجلة البلهاء

بلوغ ذاكرة

دخلت معلمة التاريخ وبدأت الدرس بعجرفة من يدعي معرفة، ويعتبط فهمًا ويؤدي مهمة بتأفف وملل سقيم، فبدأت تسرد تاريخًا مشوهًا وتهرف بما لا تعرف، تغرب وتشرق على غير هدى، حتى جعلت من غزة بؤرة تائهة في مهب ريح زمن تاريخه عابر وليس لها أثر ولا تأثير في ماضي الأزمنة ولا في حاضرها، تخبط خبط عشواء، وفاطمة تتلمل في مقعدها ويتصرم قلبها ألمًا على تاريخ الآباء والأجداد الملتاك بشدق أعجمي معوج، فما تطيق صبرًا فوثبت كمنمة تمردت على خوفها، فاثال التاريخ سياحًا من ثغر وردى أخذ يتفتح عن رحيق تاريخي معتق، فصوبت وأخذت وردت وأنهدت مفحمة هذه الحقيقة المنسية من ذاكرة الناس المهمشة يا معلمتي... وجلست تنتحب انتحاب الشكلي على ولدها... ضج التصفيق وتعالى الإطراءات والمدائح، فما كان من المعلمة إلا أن تفاعلت مع الموقف ثم أشارت بالهدوء، فهجع الصف وانتظم من جديد، ثم سألت من أين لك هذا يا فاطمة؟ فما أجابها إلا الصمت.. فأردفت قولها بجملة موجزة بليغة.. لقد نطقت الحكمة يا فاطمة فهنيئًا لك

-انتفضت في مقعدها وهمست... هنيئاً لي للمرة الثانية أسمعها، وما زالت ضوته تحبو بعيداً عن مركز السماء...ولكن أفهم تهنئة هذه المغفلة...أما التهنة التي صفعني بها العجوز قبل تطاير الندى عن سوء الدنيا، لما أفهم كنهها ومقصودها بعد.....ها.....ها..بلى والله هي...وجدتها...إنها الرسالة أصول العقول ومفاهيمها، وإعادة صياغة التاريخ وتصحيحه وتنقيته من غبار التشويه الذي تكس على عينيه وعلق بتلابيبه....وإلا ما كان لله أن يفتح عليّ فتوح العارفين ويجعل من ذاكرتي حاضرة حادة على نحو لم أعده من قبل، إنها لم تخذلني ولم تعثر بي في حفر التأتأة بل كانت مناسبة كالريح في مجاريها، وعلى حين فطنة تهيأ لها العجوز بسحنته ومحياه المخدد بتجاعيد العمر السبعيني، وقالت: يا لذاكرتين ولعقلين تطابقا وتشابها إلى هذا الحد البعيد إن هذا لعجباً!

ومن ثم كيف يخطر لي خاطر طفولي البارحة، إذ كنت قد تمنيت على الله تعالى أن يمنحني فرصة أمتحن فيها ذاكرتي وقدرة استيعابها وفطنتها ونباهتها ساعة أحتاجها، فجاء الأمر على قدر في هذا اليوم، إنها إجابات القدر لدعوات خالصات... اللهم لك الحمد إذ أريتني من نفسي اليوم عجباً...

هرولت إلى البيت فرحة طروب تتهادى بين الأزقة والبيوت الصغيرة المتناثرة على خجل على ضفاف الطرقات، تركل الأرض وتنفخ اللهاث بزفرات متتابعات حتى انسلت في شدة الباب المنفرج وصاحت جدي..جدي.. فتلقاها بذراعين دافنتين، وقال على رسلك يا فاطمة..

التقطني أنفاسك بنيتي..

- لو أنك رأيتني اليوم، وقد بلغت ذاكرتي ورشدت، فلقد أريتهم من الأمر عجبًا

-صك وجهه، وتجهم وفغر فاه

- لا...لا ما تظن.. لقد كان درس التاريخ اليوم هو جوهر حديثك لي بالأمس عن غزة العريقة بتاريخها وحضارتها البائدة، وكانت المعلمة تجهل كثيرًا وتطوي عقلها على تشوهات فاضحات، فاجترأت عليها واقتحمت بما أفاض الله عليّ من ذاكرة حافظة وعقل واعٍ لكل ما طارحتني من علوم ومعرفة على مر السنين السالفات

- تنهد الصعداء وما زاد على أن قال: أنا فخور بك بنيتي...وطبع
قبلة بعد قبلة على وجنتيها العندبيتين⁽¹⁶⁾

فراصة حكيم

كان ينحدر به العمر في مزلق السبعين وتعاريجها لما صحت الأمة العربية من سباتها الآمد وسكرتها المنكودة، وراحت تنفض غبار هزيمة نكراء_يوم كشفت سوءتها وعريت مبادلها في نكبة 1948_ بتحشيد الأحاشيد، وتجييش الجيوش، وتعد العدة، وتتعاهد على الثأر والانتقام وغسل عار الدهر المذل، فناداها ليجلسا تحت الشجرة على مثاب البئر الغائرة في بطن الأرض المحاذية للبيت من غربها، كان العرق يسح من جبهته

-جداه.. أبك خطب..أراك مأروفاً⁽¹⁷⁾

- لا بنيتي..إنها حمى نكدة، لا عليك سرعان ما يبرد مرجلي، اهدئي وأنصتي..

-أرى في الأفق اهتزازات تلوح بشؤمها لا تلبث أن تلد حسرات
داميات من رحم هزيمة نكراء جديدة تحل بهذه الأمة البائسة، ولا
أدري بنيتي أيمدّ الله في أيامي

قالت على عجل: وأيامي...

-الله يحفظك أنت، فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين، أنصتي
لا تخافي ولا تيأسي فلن تموتي وأنا لم أنجز مهمتي معك بعد، أظن
وظني بربي خيرًا أن يمد لي حتى أبلغ المرام

- أراك موقنًا بهزيمة العرب على كثرة جيوشهم وتعدادها الطاغي
أمام دولة فتية نشاز في موقع جغرافي غير صحي إذ هي محاطة
بالتطوق العربي من جهات ثلاث والبحر من خلفها...

- إما للنصر مقوماته وركائزه فلا يمنح ولا يعطى إما يؤخذ غالبًا

-إيمان يقيني، إعداد سليم، رؤية واضحة، عقل واعٍ مدبر....هذه
رباعية النصر وإذا ما فقد ركن فيها يصبح النصر بعيد المنال..

أما الإيمان، فأمتنا إيمانها هش مضضع زائف أجوف بعيد عن
الروح والاتصال السماوي، وشريطة الإيمان على الناس للنصر «إِنْ
تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ»⁽¹⁸⁾

(18) قرآن كريم، سورة محمد: آية 7

فيجب أولاً أن ينصر دين الله بإحيائه في النفوس، وتجسيده في حياة الناس كما كان حال رسولنا محمد _ صلى الله عليه وسلم _ وصحبته من بعده، فهذه الأمة مهما ابتغت العزة بغير دين الله «الإسلام»، وبغير الجهاد أذلها الله ولن تقوم لها قائمة أبداً..

أما العدة والعتاد، فالله في كتابه المقدس يقول «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَأَخْرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ»⁽¹⁹⁾...
وأيّن الأمة من ذلك؟، فهي متخلفة عقوداً في مجال الإعداد ومتطفلة على أعتاب غرب صليبي يلقي إليها بفتات متهاالك من مخلفات الحروب العالمية البائدة، وعدونا يتطور بسرعة الريح ويسابق الزمن بتسلحه، ويقال إنه يملك الآن ترسانة لسلاح مدمر لا تملكه إلا دولة أو اثنتان في هذا العالم، هذا عوضاً عن طائرات حربية تجوب الفضاء اللامتناهي، وجيش متدرب متمرس ومعد بما يليق ويوازي حروب العصر

- والرؤية الواضحة؟ قالت باهتمام شديد

-قال: أما الرؤية لدى الأمة ففيها من الضبابية والتخبط ما يجعلها تهيم في مستنقعات قذرة بغيضة من المصالح والمطامع الذاتية، والله _ عز وجل _ يقول «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا

تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ»⁽²⁰⁾، والرسول _ صلى الله عليه وسلم _ يقول «تركتم فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي»

والأمة اليوم ضلت السبيل وسلكت سبل الشيطان فتغول عليها طغمة من القادة والحكام الجهلة الظلمة الذين يقودونها من هزيمة إلى هزيمة وستبقى تعيش ذل الدهر حتى تنتفض وتشرع لسنة التغيير والتبديل «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ»⁽²¹⁾

والعدو رغم تلموده المضل وتوراته المحرفة، فإنه يملك رؤية واضحة ويعرف ما يريد تماماً، ويعلم كيف يمكن تحقيق مآربه، فهو يتهيأ لهذا ويستثمر لأجله كل الإمكانيات المادية المتاحة ويسعى دوماً إلى تطوير نفسه دون تراث أو توانٍ فهو في سباق مع الزمن، باختصار هو يعرف أن عليه أن يقيم دولة دينية من النهر إلى النهر غير مكثرت بالتضحيات التي ستقدم لأجل هذا ولا على حساب أي الشعوب سيكون هذا...

*أما العقل المدبر.. فعقول قادتنا وسادتنا من حكام وسلطين عقول عقيمة سقيمة، تحشوها الأطماع والملذات، وتتشعشع في جمجمتها

(20) قرآن كريم، سورة الأنعام: آية 153

(21) قرآن كريم، سورة الرعد: آية 11

الهاوجس والمخاوف ويسيطر عليها الجبن، ويأكلها الحرص على كرسي العرش، فلا تُقدم ولا تغامر، وأيضاً تحكمها الأهواء الذاتية التي تفرق شمل الأمة وتشتت قواها، عوضاً على أنها مأجورة لغرب أو شرق يتحكم بها ويرسم لها ما يخدم مصلحته أولاً وأخيراً

وعدونا ذو عقل متنور بارع في التدبير متنور عسكرياً ولديه دربة في الحروب والمعارك، ولديه طموح ليس له حدود، وبات في شراهة لنصر جديد بعد نكبة 1948 ليعزز قوة الردع وينمي أسطورة الجندي الذي لا يقهر

وعليه فالهزيمة إذا ما اشتعلت الحرب واقعة بالعرب لا محالة، وأراك تنظرين من نافذتك أرتالاً من الدبابات الصهيونية تشق الشوارع إلى غزة الأم

-أخفتني يا جداه-

-أصحاب الرسائل لا يخافون بل يحذرون فيا حبيبة جدك إن كان فراق بيننا...

-بالله عليك لا تكمل يا جدي

- أنصتي هذا واقع لا محال، ولكن أنا واثق بأنه سيكون لنا لقاءات ورحلات قريبة، فما زال في الجوف ما أود إفاضتك به... على أي حال سأضع وصيتي إليك من تحت زنار البئر بقليل في ذاك الشق، أترينه

هناك؟ وأشار بيده المرتجفة كأنها وقع بها الرعاش على حين فجأة
منه

- نعم.. أراه جيداً.. لكنك لن تموت!

- يا بلهاء، الكل يموتون، ومن قال لك إنني لن أموت؟

- الذي قال لك إنني لن أموت اليوم

- اغربي عن وجهي ولا تنسي موعدنا

- أنتظره على حرارة الشوق ولهفة الظمآن للقطر

أمنيات بريئة

لكني أراني بك وأنت تقدمه أو تؤخره لأن الشتاء يطرق أبواب الدنيا،
والسماء تحمم اليوم ببريق زائف لا يلبث أن يتولد منه هزج⁽²²⁾
مدوٍ وتنفجر مزن وسحب هوجاء

-أفتر عن ضحكة معرودة في سماء الكبرياء وأسر لنفسه لا تدرين
ما خبأ لك العجوز الهرم يا غرة⁽²³⁾ ثم قال بهمس فرح: ما أجمل
عقلها!

انصهرت أيام آب الصيفية المتبقية في أتون شمسه اللاهبة، وعاجله
الشتاء الجامح بزوبعة رعديّة على عقبه الثابر، ونضحت السمااء فرج
الأرض بوابل هطال بغير انقطاع ينبئ بشتاء خصب لسنة قابلة...

قالت بفرح عاثر: بعد الغد يومنا الأيوم الذي تعاهدناه لرحلة

(22) صوت الرعد

(23) قليلة الدراية

سابعة، وها هو شتاء أهوج يقتنص الجد العجوز في مقتل الثقة العمياء، أراه يحوس ويلوص بعيون حائرة، وعقل عاثر وقد أسقط في يده، أراه في هذه اللحظة المبللة ينظر من شقوق نافذته ويدعو الإله ألا يخيب رجاءه وألا يفضح عثار ثقته الطائشة التي تجرأت في استشرافها للغيب بمنادلها الشيطانية دون الوقوف عند مساحة من خط الرجعة تحفظ شيبته وهيبته.

حبسه انغزار المطر من الاجتماع المسجدي لأداء صلاة العشاء فافتش جاعده الصوفي باتجاه القبلة في محراب سقيفته، وركع ركعات خاشعات وسجد سجدة منيبات مثابرات ثم انتصب ينظر الانهمار السماوي الذي تجلت فيه قدرة الإله وملكوته، فالسما تصيح بهزيم مفزع، وتشتعل احتراقاً بيريقي كهربائي وصواعق نارية تريك جبروت الله وجلال عظمته فتبتهل لا إرادياً، وتلهج داعياً في محراب العظمة الإلهية.. أمطري أيتها السماء لا تقلعي، أفيضي أيتها الأرض العطشى، أثقلي أمنا العظيمة ثم انضحينا نحن أبناؤك الأشقياء بالبركات والرحمات.. اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، اللهم اسقنا سحاً غدقاً وانفعنا به، ثم اضطجع على شقه الأيمن وانطلق عقله مسبحاً معظماً في كنف ليلة بارقة أعراسها زوابع وعواصف هوجاء مرعبة، فخشي على سقيفته من الانجرافات والانزلاقات الرملية ثم أطبق عينيه، وجمع قلبه على إيمان مطمئن وهمس لروحه: «اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك وفوضت أمري إليك ورغبة ورهبة إليك لا ملجأ

ولا منجى منك إلا إليك عليك توكلت وإليك أنبت»

تدافعت أمواج شخيره تفر من ضيق السقيفة إلى فضاء مهووس
بعتمة عاصفة...

توافق القدر

كانت ضحوة جميلة لنهار مغسول بحمام أبي في نزعه الأفولي الأخير، فانسريت خيوط شمس الخجولة الباردة إلى حنايا الغرفة الطينية التي تبتلع بضعة أنفوس ذكورية وأخرى أنثوية.. فاطمة أكثرها إشعاعاً وطهارة وانسجاماً مع الكون وتقلباته وتجدداته، فما أن طافت خيوط الشمس على محياها حتى انبجس نور عينيها المتناقل، وما أعجل انتباهتها للصبح المشمس النعيم، فوسوست لنفسها بعدما فتحت درفة النافذة وأطلقت النظرات تترا تجوب الأفق، أين البرق؟ وأين الرعد؟ أين الانهمار السيولي؟ أنى لشمس باردة حاوية أن تخدم عواصف الليلة المعرودة، وأنى لها أن تطفئ غضبة البرق الجحيمية، ها.. وقد صفعتها لمحة وعي خاطفة وأنى لها أن تتواطأ مع عجوز يجر آخرات العمر نحو الثبور السرمدي، يا لهذا الكون المتآمر ويا لهذه الشمس الجبانة، رجوت ولو لمرة واحدة أن يتواطأ هذا الكون مع أمنياتي بالإيقاع بهذا العجوز الكبريائي الغارب في حومة الزمن الأخير، وكأنها تجيب على سؤال طرقتها به روحها الشفيفة أنا لا أعيش تناقضاً البتة فأنا أحبه حباً جمّاً، وآلف صحبته حتى الاعتلال

والجنون، وأعشق حكاياته وألتذ بها حتى الانسحاق في عوالمها، ولا أعرف على وجه هذه البسيطة أسعد مني بجده وحكيمه ومعلمه، لكن نفسي اللثيمة دائمة الوسواس والمرادة والتمني أن يعثر هذا العجوز ولو لمرة واحدة للتشفي البريء به، بل لالتقاط العبرة والحذر من الرجم بالغيب... بكل هذه الثقة لم يبق له إلا أن يقول إنه الملك المخول من قبل الإله لإدارة الكون وغيبياته...

جلبة أمها في الفناء قطعت عليها حوارها البغيض مع وسواسها، فألقت بوشاحها على شعرها الفوضوي، ونفضت عن فستانها المزركش بالوردات الباهتة عثار النوم، وخرجت تهز كشحها وتمطط جسدها.... صباح الخير أماه

-فاطمة لم كل هذا التبكر، أراك قلقة على شيء أو شغلك أمر عظيم
حرمك رقدة الضحى الرائقة

-لا لست قلقة أمي، إنما هذا الصباح النقي بعليله العذب سباني،
تشعرين أن روحًا ملائكية تنسرب في تجويفنا الطيني كلما عبنا
النسيم العليل، ما أجمل صباحًا كهذا الصباح ينفرد بكل هذا السحر
من بين الصباحات النادية

لاحظت الأم التورد الأسر لخدين نضرين ولامتشاق لولبي لجسد فتي
اليفاعة والتماع مشع لعيون عروس تجلى فيها جمال إلهي حتى
تمثلت بشرًا سويًا فقالت:

أتسرين عن أمك أمراً ما ؟

-هاا... لا لا شيء ذو بال أُمي

-أراك ساهمة على الدوام

- في اللا شيء أُمي، لم أر جدي... لا يعقل أن السقيفة تلفعه حتى الساعة، هل رأيتَه؟

- فطنتك ونباهتك تنجيانك وتفتحان لك مسارب الهرب ودروبه، أحسبه في الجامع لا يلبث أن يطرقنا فمن عادته أن يركع الضحى هناك ثم يعود

انبكم الحوار وساد صمت حذر لاذت فاطمة في حومته من سؤال متطفل آخر تبغتها به، فانداحت عدة خطوات حتى لا مست يداها مخبأ أعوادها الكتوم فألقت بنظرة خاطفة من فوهة الاسطوانة، فتمتمت ومحياها منفرج البسمة يوحي عن رضى تام...

وبينا هي ترمي ببصرها أقصى الأفق ترقب الغيوم العابرة كالجبال طلع العجوز من الدفة المشرعة للبوابة...فبادرهن قائلاً: صباح الخير، أغراكن صباح شمس فبكرتن.. ثم تابع قبل أن يسمع رد التحية.. خاب رجاؤك أيتها الصغيرة..

-باحث عيناها بالحيرة وابتلعت لسانها البكمة

-قالت الأم أي رجاء ؟

-لا عليك أنت، دعيها واقتري يا خديجة

-اقتربت حتى دنت بأذنها من شدقه الهامس وأنفاسها تتصاعد

-لقد اكتملت الترتيبات لرحلة الغد، إن وجهتنا القدس

-سنصلي الجمعة في المسجد الأقصى.. لا تبوحى بذلك لفاطمة إلا إذا
كان الفجر من الغد، لا أريدها شرودة الفكر في ليلتها الدانية، أريدها
صاحبة الفكر فلديها يوم طويل فيه من الجهد والمشقة ما يعيي
الأشداء الأسوياء

-هزت الأم برأسها في إشارة إلى موافقتها، كتم الأمر وهشت في وجه
العجوز برضى وحبور

-تجهزي أنت أيضًا

- فقالت بعبق الفرخ: جزاك الله عنا خير الجزاء، إن هذا المعروف
سيبقى في عنقي ولن أنساه لك، لكم تمنيت زيارة مسرى رسول الله
صلى الله عليه وسلم وكادت فرحتها تفضح الأمر لولا عضة حادة
من أنياب دهرية على شفة بالية لعجوز غارب أعادتها إلى رشدها

-فاطمة تعالي جدي..اقتري..

مطأطئة الرأس وبأطراف مرتخية مثلت أمامه، وما زالت تفكر كيف استطاع أن يطلع على خلجات صدرها وبلابله التي راودتها ليلتها المنصرمة، أهو وحي؟ لا إما قرينه من الجن يسترق له كل همساتي وسكناتي ويعد له أنفاسي.. لا إنه الرجم بالغيب والتنجيم!!

-هل ألم بك خطب بنيتي؟

- إنك تقتلني تشير جنوني بقدرتك على التنبؤ بالأحداث، ضربت موعداً في بطن الغيب البعيد وها هي الدنيا تتطامن وتتواطأ بقواها الطبيعية لتمضي لك رغبتك، وها هي قوة الجن الخارقة تتسخر لك فتفضح حتى وساوسي وهو اجسي البلهاء المريضة

- إنها إجابات الكون يا فاطمة، ما عليك إلا أن تؤمني بيقين وترددي رغباتك وأمنياتك على نفسك على أنها واقعة دون مواربة أو شك، فلا تملك قوى الطبيعة التي عنيت إلا أن تتطامن وتتسخر لك، وإن أردت تقبل الحق إنما هي بصيرة المؤمن التي تكشف له حجب الغيب وتحيله إلى قوة قاهرة ذي قدرة على اجتراح المعجزات، فالله عز وجل في حديثه على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه»

- هكذا ببساطة جداه!؟

- ليس بين العبد وربّه حجاب يا بنيتي، واعلمي أن الله تعالى يحب من عباده العبد اللحوح ويعترض دعوات عباده وابتهالاتهم في الصباحات والمساعات، فما عليك إلا أن تتمني على الله وتحسني الظن به.

إسراء على خطى الرسول

هل ما زلت ترغبين بالرحيل مع جدك العجوز؟

-كل الرغبة.. لكن ألا تخشى أن ينقلب هذا اليوم المخادع بشمسه الباردة إلى حال الليلة البائدة ونحن نجوب عباب البحر من غدنا، فيلتطم الموج ويهيج فيصير قاربنا الصغير كقشةٍ تتناقلها الريح في فلاة؟

-بلى أخشى فلا يعلم الغيب إلا الله، لكني تمنيت على الله أن يجعل من يومنا الموعود يوماً مناسباً لكل ما خططت له وأرى بأن الجو يتواءم ودعواتي، فها هي سحبه تنقشع وهوأوه يسخن شيئاً فشيئاً، ودلالة على أن الغد سيكون صيفياً في غرة شتاء عجل

كانت قد صدمتها كلمة (ماخطت له) فوقفت تحللها وتتفحصها بعقلها الجهول وتتساءل في شرود سافر ما هي مخططاته وهل كان يخطط لكل رحلة مسبقاً؟ أم أن هذه الرحلة ستكون استثنائية فخصها بشيء من الاهتمام الزائد؟؟ أموت وأدرى ما هي مخططاته...

لفها دوار عاتٍ فأمسكت طرفي جبهتها بين السبابة والإبهام، فضغطت عليها مرارًا ثم انتبعت إلى جدها وقد أسند رأسه على عكازته وسكن في سنة من النوم اليقظ... قررت احترام غفوته فاستدارت وبدأت الخطى فصفعتها حفنة كلمات في عقر مسمعها: «أعوادك جزء من الرسالة يا فاطمة، اغرسيها في التراب ولا تتركها حبيسة حديدة صماء»

لدغتها كلماته وأفرحتها في آن واحد فقالت بتخابث مفتعل دون أن تدير وجهها ودون أن تحبس الخطى: لكنها لن تورق فهي جرداء ميته

-يكفيها أن تورق بنات أفكارك وتبقي تربة ذاكرتك خصبة

في صدرها همست «سائلة» ماذا تقصد أيها العجوز! وأتبعته الهمس ردًا موجزًا سأفعل جدي سأفعل، قالتها بشيء من الاستفزاز والحنق في إشارة ورغبة بإنهاء حوار فجائي فيه من التعدي والطغيان على أسرارها ما يفوق توقعاتها

اجتمعت العائلة حول أطباق الزعتر وزيت الزيتون مع أرغفة الدقيق الأسود الساخنة، وإبريق الشاي الذي يفوح منه رائحة النار ودخانها الذي يضيف عليه مذاقًا استثنائيًا، وبينما الأيدي تتخاطف الأرغفة والألسن تلعق الأصابع المغمسة في الزيت، رمت فاطمة بلحظها إلى أمها فوجدتها في سهوم نظر وشرود فكر، فكمنت لها

السؤال... فما أن لبثت المائدة أن سحقتها البطون الجائعة حتى تفرق الجمع فراحت الأم تجمع بقايا الخبز وتلملم الصحون ورأسها في دوامة بائن أثرها على محياها فرمتها فاطمة بسؤالها عن قوس فجأة

- أين شرودك أماه؟ وما كل هذا السهوم الداكن؟

-ها... ليس هناك شيء

-رأيت جدي يهمس إليك صباحًا وليس من عادته فعل ذلك... هل للأمر علاقة بي؟

- لا... لا دخل لك بالموضوع وهربت بالصحون إلى ركن يربض وسط الفناء، ولا يبعد عن بئر الماء إلا خطوات، فوضعت فيه الصحون وسكبت عليها قليلاً من الماء، وأضافت إليه من الصابون وبدأت تفرکہا بالليف

- إذن هناك موضوع شغلك به جدي

- وما دخلك أنت؟ لماذا كل هذا التطفل الذي لا يجديك فتيلاً؟

- لا ليس طفلاً، أردت فقط أن أعرف إن كان للأمر علاقة برحلة الغد

- ها عن أي رحلة تتكلمين، لم يحدثني جدك بهذا الشأن!

ثم أسرت لنفسها.. هل يعقل أن هذا المخادع الخرف أبلغها فإن فعل هذا فلماذا طلب أن أخفيها أمر الرحلة..لا...لا ثم أردفت: هل تستنطقيني سرًا يا فاطمة ألا تخجلين؟ قلت لك كفى!

- لا عليك أُمي ولكن عليك أن تعلمي أنني لا أريد الزواج من أحد قالتها... وهي مدبرة إلى غرفتها

- يا بنت عن أي زواج تتكلمين؟ أنت تهذين بُنيتي...ثم انتبهت الأم وبشيء من التركيز العقلي قالت: الزواج! صحيح كيف لم يطرق بابنا أحد حتى اليوم لخطبتها، وقد امتشقت طولاً ونهدت صدرًا وتدورت بمحيا صبوح و مَبَسَمٍ ناعم نضر..كيف مرت السنون على عجل وأدخلتها في ربيعها السادس عشر، وغفلنا حالها في شطط الأيام والليالي؟! ثم واست نفسها قائلة: على أي حال إنها تملك قسطًا وفيرًا من الجمال، فلا يخاف عليها من العنوسة وما هي إلا فينة حتى تزوجها الأقدار فالنصيب مصيب... ورمت السماء شعاع بصرها وخاطبت الشمس قائلة : أُنحِبِينَ متثاقلة اليوم وتتواطئين مع سيف الانتظار البغي الذي يَحْزُ مفصل صبري، ميلي واغربي ولا تدمي ثقل الانتظار السيدم عليّ...

وا شوقًا إلى مسراك يا حبيبي يا محمد وانطلقت من جوفها نفحات ثرة من مسرة وحبور وعادت إلى حومة الشرود الوله...

رحلة الغد

وقف مع ثلة من الرجال وسط الجامع بعد أداء صلاة العشاء، ودار بينهم حديث مطول وضعوا خلاله الترتيبات الأخيرة لرحلة القدس، ورسوموا درب المسير واتعدوا أن تكون ساعة انطلاقهم بعد صلاة الفجر مباشرة بعد أن يجتمع الرجال في باحة المسجد الملاصقة للشارع الرئيس.. عاد إلى البيت في عتمة دهماء فما أن دلف الفناء حتى طارحته التحية.. مساء الخير

- من ؟ خديجة؟.. مساء الخير كنت عازماً على مناداتك

- لا عليك حبذت انتظارك هنا حتى تؤكد أو تنفي

- لا.. لا تغيير ولا تبديل، إنا راحلون غداً بإذن الله ولا تنسي وصيتي إليك بعدم إخبار فاطمة إلا ساعة الفجر

- لا لن أنسى رغم ربيتها الشديدة وحدثها الذي أوحى إليها أننا

نكتمها سرّاً يخلصها

-ما هي إلا ساعات ليل ستنفضي في حلم نعيم، يطوف بها على جناحي ريح هبوب.. تصبحين على خير... آه كاد الشيطان ينسيني... اصطحبي معك مزيداً من الثياب فقد نمضي ليلة الغد هناك

-أحقاً ما تقول؟! -

هز برأسه مؤكداً ما قال

_تصبح على خير، ورمته بنظرة زاخرة بالحب والشكر

كانا يتهامسان تحت جناح الليل، وظلالهم تتأرجح في نقاط النور المتناثرة على حائط السقيفة والمنبعثة من سراج الزيت المتوهج في كُوتِه المنحوتة في خاصرة الجدار المقابل، وهي تسترق السمع والنظر من الخلف ومن شقوق نافذتها الخشبية المطلة على الفناء الخارجي، وتتحدث إلى نفسها بتوتر حاد، وتساءل نفسها بجنون أخرج ما القصة؟! ما هذه العلاقة التي انبثقت من رحم الصدفة بين عشية وضحاها ما بين جدي وأمي؟

لو لم يكن الأمر يخصني لكان حديث جدي مع أبي وليس مع أمي، حتماً الأمر يتعلق بي لا ريب، دورات من الدوار المورق تجتاحها وأحاييل من الشك والقلق تجرها إلى هوة شيطانية سحيقة ولعبت بها الوسوس الضالة، فتفرقت بها سبل التعقل والتروي فلدغتها

فكرة صماء أن تبغتهم على حين غفلة وتسقط بأيديهم.. لكنها
تراجعت لبلاهة فكرتها وسفاهتها، واستبدلتها بأن تتطفل بخبث
ودهاء على أمها، فما أن دلفت أمها من الباب وطرقته خلفها حتى
رمتها بالتحية وأتبعها قائلة بلسان بريء من الحياء: ماذا يريد
جدي منك؟

-فاطمة أكنت تسترقين السمع!، لقد تجاوزت حدودك

-لكن الأمر يخصني، قالت بجرأة مفاجئة

- وما أدراك؟ ومن أعلمك بأن الأمر يخصك؟

- حدسي، شيطاني، وحي من السماء، القرود، أمني إني أختنق رأسي
تدور وتغلي كالقدر

ماذا تخططون؟؟ ماذا تخبئون لي ؟ كان صوتها يعلو شيئاً فشيئاً،
كأنها أصابتها نتف من الصرع

- اهديّ بنيتي واذهبي إلى النوم فغداً يوم رحلتكم

- لا لا أريد النوم، لا أريد الذهاب معه غداً، لا أريد شيئاً... فقط قولي
لي بماذا كنتما تتها مسان وأقسم ألا أبوح إليه

- ألا تخجلين يا فاطمة؟.. تراوديني أن أفشي سرّاً أوتمنت عليه!

- آسفة أماه سامحيني..

ودعتها إلى فراشها والوساوس تجدف بها من شرق إلى غرب، وشطت بها الأفكار العقيمة كل شطوط ولم تهتدي إلى مسعاها سبيلاً فأعيابها الأرق، فاستعانت عليه بتمتمات داعيات حتى غطت في نوم منكود قلق يقلبها ذات اليمين وذات الشمال ووساوسها باسطة سهامها على أعتابها حتى ناداها صوت أمها

- قومي يا فاطمة... انهضي بنيتي كي لا نتأخر

- أصخت السمع فاختلط الصوت بنداوات الفجر الصادحة في الأفق...
لكأنها أمي! صوتها يناديني ماذا دهاها؟ عن أي شيء تتكلم؟ عن ماذا لا نتأخر؟ ولماذا بصيغة الجمع!

أسندت ظهرها إلى الحائط وفركت عينيها المرهقتين، وبينما هي في زحمة الأسئلة خرجت عليها أمها قائلة: هيا يا فاطمة قومي تجهزي فالقدس بانتظارك

- شهقت... ماذا؟.... القدس... اللعنة!.....الآن فهمت فيما كان تهامسكما البارحة!

- فاطمة إياك وجموح الغضب وسفاقة القول.. إنما أردنا مفاجأتك، ولكي تنامين ملء جفنيك هكذا أراد جدك ولا أدري ما الحكمة في ذلك!

-أنام! عن أي نوم تتحدثين؟ لم أعرف للنوم شكلاً ولم أذق له طعمًا
في هذه الليلة البائسة النكدة

-لا أدري هكذا أمرني فهيا ودعك من ثرثرة القول وخطل اللسان، فلا
وقت لدينا المسير بعد ساعة من الآن

نفضت عثار النوم وراحت تتجهز بلهفة المشتاق وتترنم القدس،
القدس يا ملكرك أيها العجوز! ظننت أننا سنبحر غرباً حتى مهبط
الشمس، تركتني أهيم على وجهي وبفكري الضليل أخبط خبط
عشواء كنجم ضرير في ليلة زاعقة بالعواصف الهوج، القدس
-الأقصى! إنها حقاً مفاجأة ما كنت أظن أن أزورها يوماً على الأقل
بصحبتك عجوزي الفطين.. كانت تنوس نوسان الرياحين وتردد دون
توقف.. قدس الأقداس يا قدس.

نظرة على الأطلال

أطفأت حافلة الحجيج مصباحيها، وزادت من سرعتها لما امتطت الطريق المزفلت تشطره بانسياب على هدى الصبح المنبلج المبشر بيوم ربيعي دفعته زحمة الأيام إلى أن يتماوه بين صيف بائد بقصره وحره، وبين شتاء ناهد بخصبه وقره...

- هذه المجدل، مجدل آبائك وأجدادك المهجرين انظري الحقول والسهوب الشاسعات... هناك كانت ترعى أغنامنا وأبقارنا هاتيك المرابع.. مرابع لهونا ومرحنا، بين تلك البيوت المستوطنة وسط المدينة كان الجامع الكبير الذي بناه سيف الدين سلار أحد أمراء المماليك سنة 1300 ومن المؤكد أنه أصبح أثرًا بعد عين

- كم عمرها جدي؟

- ما يزيد على ثلاثة آلاف سنة ق.م، وهي من المدن الكبيرة والعريقة

وقد أسسها أجدادنا الكنعانيون الأوائل وتوالت عليها حضارات واستوطنتها أمم بائدة، وها هي اليوم ترزح تحت احتلال بغيض بعدما هجر أهلها ودمر حاضرها وأسمائها «أشكولون» في محاولة لطمس الحقيقة ولشطبها من ذاكرة الزمن

- أهٍ بنيتي... اليوم يوم نكء الجروح وإشعال حرائق الذكريات من جديد، وقد استأثرت بهذا المقعد في المقدمة مجلسًا لنا حتى تتمكن أشعة أبصارنا من اختراق الأفق والتخليق بحرية في سماء الذكريات فلا تجعلي للسهم والشroud إليك سبيلاً في هذا اليوم العظيم

- لكني أهيّم في القدس وأشرد في شوارعها وأسوارها وضخامتها وبواباتها العليات و...و...و

-دعي القدس الآن.. هناك_ هناك_ مشيراً إلى البعد الغارق في الأفق خلف تلك السهوب الممتدة تربض قرية بينا، أشار بيده لما كانت الحافلة تبطئ من سرعتها حتى وقفت تماماً على مفرق خربة المسميات لتجعل قرية بينا على يساره.. تلك القرية الكنعانية التي بنيت قبل القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وقد سماها الرومان « يمنيا » وفيها ميناء بحري تجاري فتحها القائد المسلم عمرو بن العاص، وبقيت في عهدة المسلمين حتى هاجمتها عصابات الصهاينة في 4 يوليو/ حزيران من عام 1948، واستباحوا أهلها وهتكوا قدسيتها وهجروا من بقي على قيد الحياة إلى غزة والضفة والشتات... وهناك قرية الجورة واسدود وعشرات القرى التي عاث فيها الاحتلال فساداً

وإفساداً واستعمرها قسراً

-وأين الرملة واللد ويافا؟

-تتعجلين نكء الماضي المرير، وتلمسين بعقلك المراهق أشفار الجرح
الدامي.. يافا يا عروس البحر

نفحات ثرة من الآهات والأوجاع نفثها بتناقل مؤلم، ثم أردف قائلاً:
ماهي إلا دقائق حتى تعبق أنفك بعطر ليمونها وبرتقالها، إني لأشعر
بطبيها يلفح قلبي والحافلة تدنو بنا منها شيئاً فشيئاً

-قالت مستفسرة: هل سنعبرها أقصد ستشقى حافلتنا خاصرتها أو أياً
من أطرافها؟

-لا بنيتي بل سنخلفها جميعاً ورائنا عندما تبدأ الحافلة التولي بنا
نحو الشرق

طويت بضع دقائق وديست تحت عجلات الحافلة المنسابة في
مجرى الريح كأنها لم تكن قطعة من الزمن، أو كأن الزمن تجاوزها
تواطؤاً مع أمنياتها العجلى فإذا به يقول لها أتشمين؟ استنشقي..
عُبي الهواء والنسيم العليل، إنه عليل يافا واللد والرملة من هناك
من هذا الاتجاه من وراء تلك التلال المنبطحه يصفعنا الشذى
البرتقالي، تعطري تعبقي بنيتي إنه عطر الجنة جنة السماء في الأرض

-لقد عهدت هذه الرائحة من قبل وكأني كبرت عليها وشببت

- إنها الأعواد يا فاطمة

-ها الأعواد؟

-نعم الأعواد فإنها من نسل بيارات يافا والرملة واللد..هي امتداد التاريخ المنسي من ذاكرة الإنسانية هي الماضي المسحوق في زحمة الأحداث

اجتاحته العبرات وخنقت صوته الشاحب، فراحت تربت على كتفيه وتمسح ما بين منكبيه بأصابع يافعة مهددة، فانتبه الحجيح وظنوا أن شراً وقع بالعجوز محمود، فتقدم إليه حاج طاعن في السن

- ما بك يا حج محمود عساه ما شر؟

-هبوب الذكريات أدمى قلبي وأبكى عيني

-آه صدقت لقد ضاعت أرض الآباء والأجداد في غفلة منا وجهالة

وا حسرتاه... وا حسرتاه

رجع الحاج مغبر الوجه مرتعد الجسد الهزيل، فاقتعد مقعده وألصق وجهه النافذة، فاندلقت العبرات سحاً على الزجاج، وراح النحيب يعلو ويزداد ويتمدد في خواء الحافلة وكأنها عدوى البكاء أصابت الحجيح جمعاء، فرمتهم عن قوس الماضي والذكريات الأليمة، فما بقي أحد إلا وابتلت لحيته وخضبت وجنتاه بدموع الحنين الحرى

٢٦ أبريل / نيسان ١٩٤٨

- يافا بنيتي تاريخ سحيق ضارب في بطن التاريخ، «أربعة آلاف سنة قبل الميلاد» وضع الكنعانيون حجر أساسها لما تجرأ البشر على سكنى الساحل البحري

- وهل كان يخشى الإنسان البحر؟

- نعم لقد هاب البشر طغيان البحر ومدوده المهلكة، فاعتلوا سفوح الجبال وقممها متخذين منها كهوفاً لسكناهم، ثم إن يافا جاءها الفراعنة محتلين ومن بعدهم الآشوريون والبابليون والفرس وغيرهم، ولقد فتحها عمرو بن العاص زمن الفتوحات الإسلامية فصارت مرسى للحجيج، وهي من الأهمية بمكان يجعلها مطمح الغزاة فهي تصل فلسطين بدول حوض البحر المتوسط، وتميزت حمضياتها عن نتاج العالم كله أتشمين زهر برتقالها أتشمينه يفوح في الآفاق ويطؤها عطراً... يافا عروس البحر في الصباحات ترينها آية من الجمال الإلهي، وفي المساءات تتراءى لك من بعيد بأضوائها وأسرجتها الموصولة

والمتراقصة على صفحة البحر الساجي... ظلت ترفل في أثواب الطهر
والعفاف والمروءة حتى افترشها الاحتلال اغتصاباً في عملية شنيعة
أسموها «عملية درور» في يوم مشؤوم أرخ ب 26/نيسان أبريل من
عام 1948

- لم يدافع عنها أهلها جدي !!

- أهلها العزّل المساكين!! بلى بنيتي لكن المعتدي الظالم كان أكثر
عدة وعتاداً، ويتمتع بخبرة إجرامية عالمية... يجيد الذبح والقتل
والتحريق والتشريد، وليس للأخلاق والإنسانية صلة به لا من بعيد
ولا من قريب، دافعوا بأكفهم العارية وتلقوا الذبح بأعناق باسقة،
إنها مجازر دموية لا تبيد ولا تذر ومن نجا هام على وجهه في
منحدرات الشعاب والأوداء لا يلوي على أحد ورغم كل هذا فقلة
قليلة صمدوا ولا يزالون حتى اليوم، حفظوا هويتها رغم محاولات
التهويد وصانوا ثقافتهم رغم التشويه الممنهج والمستمر

كانت الحافلة قد أبطأت من سرعتها، وبدت تجر عجالاتها بتثاقل
وهي تصعد عقبات «باب الواد»، فتنهد العجوز وبدا محياه باسمًا
وهو ينظر الأشجار الحرجية التي جعلت من السفحين يمين الحافلة
ويسارها كأنهما أيكاتان خضراوان متباهيتان بأشجارها الباسقات

لاحظت فاطمة سعادة تمور في عينيه، جعلت منه إنساناً آخر عن
الإنسان الذي كان ينتحب قبل هنيهة على مصير يافا المسفوح،

فشعرت وكأن ذكريات جميلة لفحته بحينها من على السفوح
والمرتفعات الملتفة بسروها وصنوبرها و عُليها وبلوطها وزيتونها
الرومي، إنها بالفعل خليط حرجي.. آية في الجمال الكوني تستبيك
وتناديك لتتفياً ظلال وفرتها وخضرتها

-باب الواد.. قال عائداً من سكونه المفاجئ: إنها مفتاح القدس
وبوابتها العربية، هنا بين هذين السفحين كانت الملحمة الكبرى
والمقتلة العظمى في يهود لما التحمت بعض الفرق من الجيش الأردني
الباسل وقتئذ بقيادة الجنرال البطل نواف جبر محمود ويساندها
مجموعات من أبطال الجهاد المقدس التحموا مع جيش اليهود
الغازي هنا جندلوهم وحرروا القدس وأطرافها منهم 1948، كما أن
صلاح الدين الأيوبي كمن لقوات قلب الأسد الصليبي بين هذين
السفحين، فردهما على أعقابهما بعد هزيمة نكراء أواخر القرن الثاني
عشر .

القسطل

أندرين فاطمة.. الحافلة تحبو بنا حبوًا صاعدة الجبال، وما تلبث أن تطل بنا على قرية فلسطين كان لها تاريخ مشهود له وما زالت تتغنى به النسوة.. انظري ها هي القسطل بأحجارها الصوانية وبيوتها البازلتية المتناثرة على قممها وسفحها كالدر على عنق الحسناء، نعم ها هي قسطل الحسيني، في ثغرها الصامد استشهد في محاولة لاسترداد القرية من قبضة العصابات الصهيونية التي احتلتها في 2 أبريل 1948، فقد حاصرهم فيها بقوة لا تزيد على 56 رجلًا من فيلق جيش الجهاد المقدس، وتوجه إلى جامعة الدول العربية وجيشها العميل طلبًا للمدد والإسناد، لكنهم خذلوه وأسلموه حتى قال صديقه قاسم الرمادي يومذاك: فليسقط دمي على رأس عبدالرحمن عزام أمين الجامعة العربية وطه الهاشمي وإسماعيل صفوت قائد جيشها «ثلاثي الخيانة البائد»

الخيانة ليست فعلًا طارئًا، إنما هو طبع خفي متأصل في النفس المريضة لا يلبث أن يتحول إلى ممارسة وفعل جلي، إذا ما سنحت

له الفرصة، فالخائن لا يصبح خائناً بين عشية وضحاها فهو خائن بطبعه يلبس قناع الانتماء والفضيلة، وعندما يقرر الكشف عن وجه الخيانة، فإنه فقط يستخدم مسحوق المعاذير الفعال

-إنها القسطل التي تعتلي غرب القدس وتطل بعينها الحارسة.. تنهد ثم قال:

الشهداء أنى يسقطون تبقى أرواحهم قناديل مسروجة بدمائهم، تطوف كحراس لا يغفلون ولا ينامون، يلعنون الظالم حتى يندحر، ويستنهضون المظلوم حتى ينتصر.. فالقدس محروسة.

درة السماء

بدأت الحافلة تنحدر بانسياب مع مجرى الريح، فانتشى الحجيح ومدوا أعناقهم بعيون شاخصة، ينظرون القدس التي تجلت لهم بقبتها الذهبية كعروس من الجن وقفت منتصبة بكبرياء في مصب البصر، تترأى من بعيد للناظرين.. فكبروا تكبيرات الفاتحين ثم أنشدوا:

الله أكبر ... الله أكبر	الله أكبر ... الله أكبر
والأقصى مسرى نبينا	القدس عروس شامنا
للقدس أسد فاتحينا	عمر قالها قبل
سن لنا شرعاً يقينا	وصلاح حطين بعد
نازل التتار تلقينا	وبيبرس جالوت يوماً
وصار الذل لهم شانا	وعرب اليوم لهاة

كان القبة الأخاذ المتمحورة في الأفق المتضائل قد سلب شعاع
بصرها، وزحزح عقبها من مقعده فألصقته بالمسند الظهري، وامتد
عنقها قدامًا فكاد يخترق النافذة الأمامية -لولا أن يد العجوز لاطفتها
ووعظها صوته المتهدج في رحاب الجمال المتجلي من بعيد - أمهلي
نفسك رويدًا بنيتي

لم تعره انتباهًا ولم تشعر باليد التي تطوف بين منكيها، فقد
سلبتها البيضة الذهبية المكنونة في عش الفضاء، فغابت بها عن
خواء الحافلة وأراجيز حجيجها وشطت بها في دروب الجمال الإلهي،
وتعاهدتها اختلاجات قلبية وفاضت عينها بغزل مستباح، وهي في
امتطاء حنون لريح هبوب وتملكتها نشوة ذاهلة سعيدة فلا عادت
تسمع من حولها ولا تدري لهم حالًا

ركنت الحافلة في كراج الحافلات في أحد جوانب منطقة باب
العامود، وترجل الحجيج تتقدمهم فاطمة المقيد معصمها الغض
بقبضة العجوز التي غار بين براجمها الزمن، كأنه يخاف عليها التيه
في حومة الجمال اللا متناهي، فتضل سبل الوعي والرشاد وتذوي في
محاضن الجنون العشقي إلى غير رجعة

كان الحجيج يتشكلون من رجال ونساء من أعمار مختلفة، يرفلون
في ثياب تفوح من حناياها البساطة ورائحة الافتقار، وعلى محياهم
تخيم هالة من المهابة والوقار، تخللوا في سيل من الناس يحشون
الخطى باتجاه سور القدس العظيم المنفتحة في أسفله الغربي بوابة

عملاقة سميت «باب العامود»

-أبطأت فاطمة الخطى وقالت وهي تحملق في أعجوبة من عجائب الدنيا: ما أعظمها!! من فعل هذا جدها؟ من بناه؟ وكيف؟

-جرها برفق وأردف قائلاً: هيا بنيتي سيكون لنا وقفات طويلة أمام هذه الأعجوبة، وما جئت بك اليوم إلا لهذا، هيا وأكثرى من الصلاة على النبي محمد _ صلى الله عليه وسلم _ فهذه ساعات مباركات تتفتح فيها أبواب السماوات، ويتجلى فيها الإله لحجاج بيته المقدس يتلقى دعواتهم، ويستجيب لهم بمغفرة ماحية ويتغمدهم برحمة لا متناهية... دقائق معدودة حتى كان «باب السلسلة» مشرعاً في وجوههم ببوابته العملاقة، فعبهم عباً حتى أفضوا يطؤون باحة المسجد الأقصى المبارك بخطى وئيدة، تتهادى على بساط بلاطي من الصخور البازلتية الضخمة

لا تدري ما مر به الحجيح وما اعتراهم، لكنها ما أن داست المسطبة الصخرية حتى دخلت في حالة من الذهول اللا إرادي، وانتابتها قشعريرة راجفة رغم دفء الشمس المتدفق من قرصها المشع، وشعرت بأنها في حضرة العظمة والجلال وهي تقف أمام القبة الذهبية قبة الصخرة المشرفة دلالة واضحة على عظمة هذا المكان وعظمة الإنسان الذي يقدر هذا المكان فنبست قائلة.. آية.. آية من آيات الجمال الكوني، ما أروعها وأغناها! لا بد أن الأرض تباهي السماء بهذه اللؤلؤة الكبيرة

حرر العجوز يدها من يده وما لبث أن قال: موعد تلاقينا بعد انفضاض المصلين هنا بالضبط أمام الباب الرئيس للصخرة المشرفة، والآن اذهبي مع أمك والنسوة ولا تذوي بعيدًا في جمال الحجارة ومحوري عقلك وفكرك في الجمال الروحي والقدسية التي تجوب هذه البقعة المباركة، ولا تنسي انفتاح أبواب السماء وتجلي الإله لحجاج بيته المقدس، وقولي لأمك إنك ستكونين برفقتي من بعد الصلاة حتى ما قبل المغيب وملتقانا سيكون في نفس المكان.

الدليل

كانت تقف على بعد خطوتين على يمين باب مسجد الصخرة المشرفة في المكان الذي تواعدا لما أقبل عليها، وعلى يساره رجل أربعيني العمر كهل أفحم البشرة طويل الجذع دقيق العنق على جبهته تدلت خصلتا شعر غلب البياض سوادهما، وأبقت سكين الحلاقة خطأ ربيعاً من شاربه متصللاً تماماً بلحية مشيبة زادته البدلة رمادية اللون أبهة ورجولة، وفي يده اليسرى مطوية من ورقات بدت قديمة وعتيقة من كثرة الاستعمال

-السلام عليك بنيتي: هذا عمر السلوادي دليلنا التاريخي لهذا اليوم، قال معرفاً

- قال عمر: السلام عليكم

- هزت برأسها ردّاً للتحية دون أن تنطق

-قال العجوز: من أين تفضلين البدء برحلة التعرف على أقصاك

- أقصاي؟ وهل الأقصى لي! حدثت نفسها؟ دليل؟ وما حاجتنا إلى دليل؟ هل نحن في رحلة استكشافية؟ وهل عجوزي لا يعرف كثيراً عن القدس والأقصى؟ لو لم يكن جاهلاً بالمكان وتاريخه لما اصطحب دليلاً، وقد تكون الاستعانة به بمقابل مالي.. لا أدري.. لكنني بت متأكدة أن العجوز لا يعرف كل شيء، ولا يستطيع الإحاطة بالعلم والتاريخ على ما لديه من علم وسيع زاخر.. وبلحظها الخفي رأيت بقايا بسمه كانت تتبدد من على محيا عمر هذا

-تابع العجوز منهياً حيرتها وحديث النفس الذي نأى بها قليلاً: أقصد الرحلة رحلتك اليوم، فأسألي كل ما يحور في خلدك ولا تتردي

-رحلتي! أقصاي! دليل! من المؤكد أن الموضوع جزء أصيل من الرسالة، وإلما كان العجوز قد اهتم بهذا اليوم كل هذا الاهتمام، ولما أحكم وأحسن التخطيط على هذا الوجه... إذن سأكون حريصة كل الحرص ألا يفوتني شيء مما سيتفوه به هذا العمر، و ألا أمر على شيء مرور الكرام ودون سؤال

وتابعت بصوت يسمعه عمر: أفضل الانطلاق من قعر التاريخ السحيق والبدء من سور القدس

-فليكن.. ثم نخرج منقلبين إلى سور المسجد وبواباته ثم إلى هذا المحضن الأثري والمتحف العمراني الهائل

انتحوا من وجه الأمواج البشرية المندفعة نحو الأبواب، متخذين

من جذع نخلة باسقة مسندًا، فقال عمر: أرى بأن ننتظر قليلاً حتى تندرس هذه الكثرة، ثم نشق طريقنا من هذا الباب، وأشار بيده وأردف قائلاً: باب السلسلة الذي سيفضي بنا إلى باب العمود من سور القدس

ما هي إلا حفنة دقائق حتى تمهدت السبيل لهم وخلت إلا من فرادى يروحون ويجيئون.. فتابع عمر قائلاً: هيا بنا فأماننا يوم طويل وعمل يتطلب جهداً كبيراً

انطلقوا تباغاً يحثون الخطى يتقدمهم عمر، وهي تردف جدها حتى حط بهم التعب خارج السور، فاقتعدوا درجات في مواجهة باب العامود، فقال عمر وهو يلتقط أنفاسه وقد بدأ بفتح المطوية الورقية وراح يفرد لها على الأرض.

عبقرية عمالقة

- اعلمي أن هذه المدينة هي من أعظم مدن فلسطين خاصة، والشام عامة من أقدم مدن العالم قاطبة، ويعود تاريخها إلى أكثر من 6 آلاف سنة، ويؤكد علم الآثار والتاريخ بأن البيوسيين الذين ينحدرون من بطون العرب الأوائل هم بناء المدينة المقدسة، وكان ذلك نحو سنة 5000 قبل الميلاد ودعوها باسم ييوس

- أهُم من الجن؟ قالت وهي تغرس أشعة بصرها في صدر السور، انتبه إليها ولم تتوقف عن الكلام: أولئك أجدادي البيوسيون كما تسمونهم كانوا من الجن، وإلا لما استطاعوا أن يبنوا هذا السور العظيم أم أنهم عمالقة تغيب رؤوسهم في الفضاء البعيد لأطوالهم الفارعة: من يستطيع قدرة على هذه الصخور الرابضة كالجبال؟ من رفع بناءها ومن سواها؟ إن هذا والله لعجيب..

- هم كذلك، بصوت خفيض قالها عمر.. هم عمالقة لكنهم ليسوا من الجان ولا من الشياطين، إنهم الكنعانيون بناء السور وهم عرب

قدماء، فضحك مشاركاً العجوز ضحكته.. لكنها لم تأبه لسخريتهم اللا مبررة وظلت على انشداهاها الذهول..

تابع عمر ما ابتدره كأنه يؤدي مهمة عليه الانتهاء منها في وقت حُد له من قبل واعتاده حتى أصبح روتيناً مملاً:

-ثم غدت مدينة داوود، وسادت بها اليهودية منذ سنة 1049 ق.م إلى أن أخرجهم منها الفرس سنة 586 ق.م ثم اليونان ثم الرومان سنة 63 ق.م، وقد دعاها « هدریان » قائد روماني يدعى إيلياء كابتولينا في القرن الثالث الميلادي ثم البيزنطيون لمدة 3 قرون، ثم الفتح الإسلامي سنة 636 م الموافق 15 هجري على يد الخليفة عمر بن الخطاب _رضي الله عنه_

كان عمر يسرد الأحداث كأنه يقرأ مادة مقرر عليها سماعها كطالبة تاريخ في مدرسة تلقينية...فشعرت بسامة وملالة قائمة تجتاحها وتخنق روحها خاصة عندما كان يطيل النظر في مطويته...فمالت على جدها قائلة بهمس حيي: ليس لحديثه روح فإنه يدقل التاريخ دون أن يعيشه أو يتفاعل معه!

- همس العجوز بأشاً في وجهها.. أعلم ذلك، ولكن من الواجب عليك أن تتحلي بكثير من الصبر والتركيز العقلي في هذا اليوم

- أما كان يجب.....

- قاطعها بإشارة من كفه المسيف، فهمت أن الحوار قد انتهى
فعدت تصغي للدرس

كان عمر ينقل ورقة_من مطوياته جاء على كل ما فيها_ من وراء
ورقة لم يبتدئها بعد، مبدئاً لهم أنه لم ينتبه لنقاشهم فأردف يقول:
الصليبيون هم أكثر من عاث في هذه المدينة فساداً وقتلاً وتدميراً،
حتى قيل إن الدماء جرت جري الأنهار في هذه الشوارع وعلى
مصطبات المسجد الأقصى، وإن الجند والخيل غاصت فيها حتى
الركب، وظلت المدينة ترزح في قيد الصليب حتى حررها القائد
صلاح الدين وأعادها إلى حظيرة المسلمين

لم تسمعه يذكر تاريخاً لحادثين مهمين، ولم ترد أن تمر على شيء دون
معرفة... فلعله يكون من الأهمية بمكان في الرسالة، فسألت: ومتى
حدث ذلك؟

- سنة 1099 م دخلوها واستباحوها بعد حملات صليبية عديدة
أعلنها البابا «أوربان الثاني»، وحرص عليها مما جعلها حرباً دينية
مقدسة... قال العجوز هذه الكلمات وعيونه تترقق بالدمع وهما
من حوله في بهتة ودهشة وحال عمر يقول أني لهذا العجوز عابر
العقود أن يعرف مثل هذا!

أما هي فلم تتفاجأ من المعلومة العجوزية، إنما فاجأها تدخل
العجوز في الحوار، وكأنه يعرب عن عدم رضى من أداء عمر... فكيف

له أن يمر على مثل هذه المفصل التاريخية المهمة دون أن يؤرخ لها!

ولم يمهلهم العجوز فأردف صوته النشج يسمعهم.... ثماني حملات صليبية على الأقل حتى نجحوا في تصليب المدينة وتنصيرها، والمسلمون في ضياع و تيه ليس لهم رأس كقطع أغنام يطردها ذئب في شعاب ووهاد بعدما أكل راعيها، ثمانون سنة عجاف والقدس تستصرخ وتستنصر حتى خطب نصرتها صلاح الدين ثم استحلها بعد تمحيص من الله تعالى وتوفيق فأعادها كريمة إلى عقد الأمة سنة 1187م...

كان عمر مأخوذاً بما يفوه به العجوز لما أشار إليه أن يكمل ودون تبطيء قال عمر: يقال إن السور بني في عهد الكنعانيين، ثم تعرض للخراب مرات ومرات من قبل الغزاة حتى أعيد بناؤه زمن سليمان القانوني القائد العثماني انظروا ذاك البرج في أعلى السور يوجد على شاكلته أكثر من ثلاثين برجاً استخدمت للمراقبة ونبل الغزاة، ومن أشهر هذه الأبراج برجا اللقلق وكبريت، وللصور سبعة أبواب من أضخمها هذا الباب الذي نقف أمامه وسمي باب العامود ويسمى أيضاً باب دمشق؛ لأن القوافل كانت تخرج منه قاصدة وآية من وإلى الشام، وكما ترون هو في الحائط الشمالي من السور، وباب الأسباط وسمي أيضاً باب الأسود لأنه يوجد تمثالان للأسود على جانبه، وهو في الحائط الشرقي من السور، وباب المغاربة وهو أصغرهما، وباب النبي داود، وباب الخليل يقع في الجانب الغربي ويسمى باب يافا، وباب الحديد يقع في الجانب الشمالي فتح عام

1898 أبان زيارة الإمبرطور الألماني «غليم الثاني» للقدس، وآخرها باب الساهرة...

-آخر الأبواب المفتوحة يا عمر، تدخل العجوز قائلاً: فهناك أربعة أبواب مغلقة عداها منها باب الرحمة الذي يسمى الباب الذهبي لجماله، و يرجع إلى العصر الأموي... ومد يده إلى قربة ماء كانت منداحة على جانبه، فرفعها إلى فيه وجرع جرعات متفرقات، ثم ناولها عمر الذي كان يبيل لسانه بريقه وهو مشنف بهجوع ملفت يستمع للعجوز، فجمع شفتيه زمًا على فم القربة ومصل منها حتى أروى جفاف حلقه الذي تسبب به العجوز من حيث يدري أو لا يدري، فما يبوح به العجوز من معلومات يبهره، ويشهد بأن هذا العجوز أعجوبة زمانه بدقته في حفظ التاريخ، أدركت المفاجأة التي سقط فيها عمر فتبسمت بخبث وهي تحوم ببصرها على الأبراج المنغرسة في عنق السور..

- العار كل العار أن تظل جاهلاً، قالها عمر بشيء من الغضب وكأنه فهم تشفيها الماكر من خلال بسمتها المتخابئة

- التفتت إليه وانفتق ثغرها، لكن تدخل العجوز حبس الكلمات قبل اندلاقها، وقطع مجاجة الجدل قبل أن تبدأ بقوله: لا يمكن للمرء أن يحوز العلم كله، وما يزال هناك مزيد من العلم كلما طلبه وسعى إليه، ولقد صدقت بني فيما قلت، فنحن أمة اقرأ ولا نقرأ وإن قرأنا ما فقهننا، ومن أكثر الأمم التي لا تحترم ماضيها وتاريخها،

وهذا أحد أهم أسباب انهزامها وانحطاطها وتكالب الأمم عليها...
والآن أظن أنه لم يبق شيء تحدثنا به عن هذا السور..

- صدقت وعلينا أن نتقدم نحو السور الداخلي « سور المسجد»

-إذن هيا بنا..

دلفوا الباب عائدين وهي من خلفهم مُشكلة رأس المثلث، وقد
ابتدأ حوار هادئ بين الذكرين، وهي من خلفهم تسترق السمع
وتحاول فهم ما يدور بشيء من الإصغاء المركز.. كان عمر قد ابتدر
العجوز قائلاً:

- هل لي بسؤال عماه؟

-لم يُحرم السؤال بني..على الرحب والسعة

- اعذرني إنما هو فضول الطبيعة البشرية

- لا عليك

- أكد اعتذاره مرة أخرى ثم قال: هلا أخبرتني من أين أُثريت
التاريخ ؟

- أصدقائي من العثمانيين وآخرين من المشايخ رجال الإخوان الذين
كانوا يحرصون كل الحرص على تحصين العقل العربي عامة والعقل

الفلسطيني خاصة في وجه غزاة الفكر ورجال التغريب الذين أخذوا على عاتقهم تشويه الحقائق وتزييف التاريخ ودثر الماضي وصهره في أتون الأكاذيب والمزاعم المفتراة على هذا البلد المقدس، ولا أنسى فضل الاحتكاكات السياسية في المنطقة بسبب الانتداب الإنجليزي على البلاد منذ 1917م الذي تعهد بإقامة وطن قومي لليهود على هذه البلاد... وعد بلفور المشؤوم 2/نوفمبر 1917 يوم أسود في تاريخ الأمة ومن بعده ثورة البراق المقدسة 1929، ومن بعدها أحداث الثلاثينيات والإضرابات السياسية التي عمت البلاد، ومن ثم تسليم البلاد لليهود ليقيموا عليها كيانهم بعد اندحار الانتداب وانتهائه وقد كان ذلك سنة 1948 وعرف ب «عام النكبة»... كل هذا دفع الغيورين إلى البحث في أسباب الهزائم التي لحقت بالأمة بدءاً من انهيار إمبراطورية الخلافة العثمانية ومن ثم تقسيم البلاد بين قوى الغرب المستعمرة فرنسا وبريطانيا وإيطاليا وآخرها دولة يهود المقيتة، التي قامت على أنقاض بلاد الآباء والأجداد ولا أنسى الحوارات والنقاشات السياسية التي كانت تتركز على التاريخ والماضي غالباً فقد أثرت العقول وحرزتها

مروا بطفل لم يتجاوز العاشرة من عمره يقف خلف خشبة مربعة أجلسها على مسند حديدي، وفرش صفحتها بكعك مقدسي مسمسم تفوح منه رائحة زكية، وعلى أطرافها وعاء بلاستيكي ملى زعترًا برياً مطحوناً اختلطت فيه حبات حمراء اللون من السماق البري، فقررت معدة العجوز فتوقف قائلاً_ويده تلامس الكعكات

المسمسات _: من منكما يشعر بالجوع؟

- قال عمر: أنا لا أريد رغم الطوى الذي ينهش معدتي، فالزعر
يشعل حرقة في معدتي

-زعر البلاد المقدسة دواء لكل داء يا بني

هي لم تتكلم البتة ولم تبدِ أي إشارة لا بالرفض ولا بالموافقة فقال
العجوز: أما أنا فالطوى نال مني كل منال وحتماً أنت يا فاطمة قد
أخذ منك الجوع مأخذه..

- هزت رأسها مؤكدة قوله

-ابتاع ثلاث كعكات وقليلًا من الزعر، نهش قدر قزمة من إحداها
ثم وضعها في كيس وناولها إياها..

تدحرجت بهم الخطى على درجات يهبطن سوق العطارين الذي
ازدحمت طريقه بالباعة والمتطفلين على بضاعته التي تعرض نفسها
بالوان زاهية وروائح عبقة زكية وعمر يستعرض تاريخ المدينة
وأسواقها ومسمياتها ويطوف بهم شوارعها وأزقتها وحراراتها هذا
سوق العطارين وهناك سوق اللحامين وهذا سوق القطنين وهناك
السوق العتم ونحن الآن في خان الزيت وهناك يكون سوق الذهب
ومن أشهر حراراتها حارة السعدية وحارة النصارى وحارة اليهود
كان عمر ينثر معلوماته ويشرح خريطة المدينة حينما كانت هي

تستنشق عبق الماضي وتستشعر حياة السالفين ممن عبروا هذا التاريخ ورحلوا مع زمانهم مخلفين عبقريتهم العمرانية نقشاً في وجه الزمن، لم يفتأ عمر يطوف بهم حتى دلفوا سور المسجد من باب الأسباط الواقع في الزاوية الشمالية الشرقية للمسجد الأقصى، فاقتعدوا حجراً مستطيلاً منداحاً تحت ظل شجرة زيتون معمرة يلتقطون أنفاسهم بعد مسير مضمّن، ويلتفحون بالنسيم الشفيف الذي تضربه الأغصان الخضراء من فوق رؤوسهم، فقال العجوز: التقي لقمات تقيم صلبك بنيّتي، ولما رآها لم تقدم على ذلك، ولكي يكسر خجلها قال: ناوليني نشاركك الطعام، فمن المؤكد أن عمر غير رأيته بعد هذا التطواف فقد لقينا منه نصّاً

لم ينطق عمر بأي كلمة لكنه مد يده وتناول كعكة واقتسمها إلى قسمين، أعاد واحداً إلى الكيس ورفع الآخر إلى فمه دون أن يحوسه بالزعر، ابتلع القضة الأولى وقال: دعي هذا الباب باسم آخر وهو «ستي مريم» على اسم كنيسة قديمة كائنة في الجانب الخارجي من السور، وتلك المئذنة مشيراً بيده إلى رواق غربي الباب. تدعى مئذنة باب الأسباط شيدت أيام السلطان شعبان جده السلطان الناصر محمد بن قلاوون حسب التاريخ المنقوش في خاصرتها

كانت فاطمة قد ذوت في الفخامة العمرانية الماثلة أمامها باب يرتفع بضعة أمتار، صخور عملاقة رابضة على أكتاف بعضها البعض، وقوس ثماني يمتطيها وإلى الغرب قليلاً تنغرس مئذنة بسقت في الفضاء كنخلة فرعها يسبح في مجرى السحب وجذرها غائص في

بطن الأرض البعيدة... جمال معماري ينبئك عظمة العقول الإبداعية
التي صممتها

-تنحج عمر للفت نظريهما ثم قال: قد حان موعد أذان العصر،
الرأي أن نؤدي الصلاة ومن ثم نتابع رحلتنا

-هز العجوز رأسه موافقاً الرأي ثم تدارك وعاد ناطقاً كأنه تفتن
لأمر، ما رأيك فاطمة أم أنك تعب؟

- لا بأس فرغم النصب ما زال في الجسد قدرة احتمال، وما زالت
روحي ترنو لمزيد من نبع هذا التاريخ السحيق، وما زال القلب
يضخ الدماء لقدمائي، ويمدها بالقدرة والطاقة للغوص في عمق
الماضي الأبدي والخطو على آثار العظماء والأوائل

كانت الشمس تنحدر بعيداً عن قبة السماء متناقلة لما انطلقوا
رهوًا، يتقدمهم عمر بصوته الجهوري المبين: هذه مطهرة باب حطة،
وهذا سبيل باب حطة يعود إنشاؤه إلى العهد العثماني

-لكن المظلة الحجرية هناك فوق القوس أضفت عليه سحرًا جماليًا،
وهناك تلك التقويسة المجوفة في عضده الأيسر والإكليل الحجري
الدري على جبهتها زادها بهاء وقال في شيء يشبه الانتهاء: كان من
بناه صاحب عشق وجمال!

مروا وهم يجوبون الرواق الشمالي للمسجد الأقصى بالمدرسة

الدوادارية وبالمدرسة الباسطية حتى وقفوا أمام باب ضخم فقال عمر: هذا باب الملك فيصل الذي جدده سنة 610 هجري

- من الملك فيصل ؟ قالتها _بشيء من السخرية_ وكأنها أدركت أن الاسم لا يشبه الأسماء التاريخية في شيء، وأنه تطفل على التاريخ ودخيل عليه، بل سارق لديه من الجرأة و قلة الأدب الطاعي الذي سول له حسن فعله بأن يحشر نفسه بين صفوف العظماء، حتى لو أنهم ثووا منذ أمد بعيد في ذمة التاريخ المنصر، انتهت من حديث النفس الطارئ لعجوزها وهو يندف كلمات متأوهات: هناك من يصنع التاريخ، وهناك من يسرق التاريخ، وهناك من يجده التاريخ بفعاله، وهناك من يلعنه التاريخ على فعاله... وتابع قائلاً: لكنه تبرع بعمارة المسجد الأقصى، لهذا دعي باسمه تخليدًا لذكراه وفيصل ملك العراق مشهود له بالخير

بدا العجوز وكأنه يدافع عن الأموات بحق حرمة التراب لا بحق احترام متبادل بين الماضي والحاضر...

«هذا اسم جميل»، قالها العجوز متهللاً

نظرت فاطمة إلى المبنى الذي أشار إليه عمر، فإذا به لؤلؤة حجرية باهرة بنوافذها القوسية المتلاصقة والأهلة التي تباينت في الشكل والحجم والبادية في الحائط الأمامي للمبنى، وقالت بصوت خفيض: يا لروعة هذه العمارة لا تفتأ عجائبها تبرز لك أسرار جمالها تستبيك

كلما أمعنت النظر.. إنها لروعة حقًا!

- وهناك عديد من المدارس التي تنتشر في ساحات المسجد وباحاته من أجملها المدرسة التنكزية التي اعتلى سطحها عديد من الأقواس العالية والسرايا الضخام ثم أردف عمر قائلاً: إن كان هناك متسع من الوقت فسيكون لنا وقفات أمام وداخل هذه المدارس ولكنني أرى السماء تنذر بالمغيب، وما زال أمامنا كثير كثير من كنوز هذا المكان المقدس لنجول ونصول فيها...

- صدقت يا عمر ولكن ما زال أمامنا ثلاث ساعات شافيات لإنهاء المرحلة الأولى من الرحلة.. فلا تتعجل الخلاص

- تبسم عمر وقال: حاضر يا حجي أنت تأمر وأنا أطيع

- لم تشاركهم حوارهم الممجوج وكانت تفكر في نفسها معلقة على الثلاث ساعات التي نطق بها العجوز: بعد هذه الساعات سيكون النهار قد انسلخ وهبط الليل، وهل يفطن العجوز لرحلة العودة وزمنها؟ أم أنه خطط للمبيت كمفاجأة أخرى؟، فإن كان كذلك حقًا فيا لفرحتي، فإننا لم ندخل المسجد الأقصى بعد، ولم نكحل عيوننا بجمال القبة الذهبية ولم، ولم، ولم..

- رأى العجوز شرودها الذاهل فمال عليها هامسًا: نحن في ضيافة الأقصى الليلة، وربت على كتفها باشًا في وجهها الذي تبسم بانسراح وحبور

- وقف عمر ماطًا عنقه على أقصاه ومشيرًا بسبابته اليسرى: انظروا إلى تلك الجوهرة المعمارية إنها مئذنة باب «الغواصة» وهي أجمل وأطول مآذن الأقصى

- صدقت.. إنها جوهرة معمارية، قالت وهي تضع كفها الغضة من فوق حاجبيها تقي بصرها من بقايا أشعة الشمس المبعثرة في لجة الغروب ولتجمعه حفنة واحدة رامية به على قبة صغيرة جثمت على برج مئمن الأضلع، وبه ثماني نوافذ بأقواسها المتلاصقة شكلت عنق المئذنة لتكون هي من تحته بأضلاعها المربعة، وعلى ارتفاعها الشاهق انفتقت نوافذ زوجية يفصلها عمود حجري ناعم... إنها درة معمارية رائعة

وبعد هنيهة قصيرة جعلها عمر للتمتع بالجمال المعماري قال: هناك على بعد خطوات يقع باب الغواصة نسبة إلى عائلة غواصة التي وصلت مع صلاح الدين الأيوبي إلى البلاد، ثم أيضًا باب الخليل، وهناك في الحائط الغربي يقع باب الناظر أو باب الحبس نسبة إلى الحبس الكائن في غربه خارج المسجد الأقصى والحبس هذا تركي العهد، وأيضًا في السور الغربي يقع باب الحديد وهو قديم البناء، أما باب القطنين فلا بد من الوصول إليه

- لماذا؟ قالت _وقد أثير فضولها_

-ستدركين ذلك عندما تقفين في حضرة الباب، هيا بنا إلى الجهة الغربية، وما هي إلا دقائق تفصلنا عنه...

حثوا الخطى دقائق فإذا هم أمام تحفة معمارية شامخة آية في الجمال والتناسق والإتقان، فقد فاق في جماله وعمارته الأبواب قاطبة باب عملاق يرتقيه ثلاثة أقواس متراكبات آخرها نصف قبة تجمع أشعة الشمس، فتتكسر على صفحاتها وتنثال ثلث من ضوء مشع على رؤوس العابرين في الاتجاهين، عضداه مدعومان بأضلع عملاقة متكئة بعضها على بعض، وتبرز الواحدة عن الأخرى بحركة عمرانية فنية، لوحة من الإتقان الهندسي تجعل منه قلعة حصينة منيعة في حد ذاته

- تابع عمر قائلاً: سمي بالقطانين نسبة إلى سوق القطانين المحاذي له من الجهة الغربية، والآن بقي لنا باب المطهرة الذي تعرفونه، وهو قديم العهد دعي هكذا نسبة إلى قطرة المسجد التي يفضي إليها

-على هذا النحو تكون المطهرة خارج السور فمن أقامها؟ قالت في خفر مبالغ فيه لفت انتباه العجوز، فأدرك حاجتها إلى ذلك فانبرى قائلاً: من الجيد أن نزور المطهرة فتجدد طهارتنا ونستعد للصلاة القادمة

- حدثت نفسها: يا لهذا العجوز لا تخفى عليه خافية، وفي كل مرة

يؤكد لي أنه خبير استشفاف نفوس البشر، وهذا يرضيني خصوصاً هذه المرة؛ لأنه يلبي حاجتي ورغبتني في قضاء حاجتي وأخذ الماء على وجهي _ الذي اصطلى بحر الشمس النكد الذي لم أكن أتوقعه _ لأعيد له بعض الحيوية والنشاط..

أثناء حَظوهم البطيء إلى المطهرة راح عمر يقول بلسان مبین: بنى الأيوبيون المطهرة ثم جدت في العهد المملوكي، فما أن وصلوا حتى غابت هي في القسم الخاص بالنساء وما هي إلا دقائق حتى التقوا ثانية تحت سقف الباب المقدس فقال عمر: ذاك باب السكينة المغلق ومحاذاته في الجهة الجنوبية منه باب السلسلة قديم عهد البناء، وسمي بباب الملك داوود وهو نبي الله تعالى، والآن لم يبق لنا إلا باب واحد يقع في السور الغربي للمسجد وهو باب المغاربة دعي بهذا الاسم نسبة إلى مسجد المغاربة بجواره، وقال عمر منهيّاً كلامه: هذا كل ما حوته هذه المطويات حول الأبواب والمدارس _ أقصد كل ما طلبته مني لهذا اليوم من الرحلة _ والآن اسمحوا لي أن أستودعكم الله، وقبل أن يسمع رداً من العجوز خطأ خطوتين ثم التفت قائلاً: إن أردتني ثانية تعلم أين تجدني ولتعلم أنني أكثر سعادة بصحبتك، وشكراً لك على كل شيء ثم رفع يده مودعاً لتعانق كف العجوز الخشن فوجدها تفور حرارة، فنظر في عينيه فبادلته الشكر والعرفان فقال العجوز: نفع الله بك وأدام فضلك وأطال عمرك يا ولدي..

ولم تزد هي على أن قالت: جزاك الله خيراً لما كان يخطو مبتعداً

زاويًا بين أمواج الناس الذاهبة والآية، فلم تدر أسمع شكرها أم لم
يسمعا

- والآن يا جدي ماذا بعد؟ قالت _بشيء من الراحة في صوتها_
وكأنها كانت تحبسه كل ساعات الرحلة

-تعالى أريك شيئًا مذهلاً أتبعيني، مشى خطواته بين الرهو والهرولة
وهي في عقبه لا تدري ما يخبئ عجوزها، حتى وصل بها إلى أقصى
نقطة من باحات المسجد الشرقية، ليجعل القبة الذهبية في عين
الغرب فاقتعدا المصطبة بعدما افترش عباءة، وأسندا ظهريهما على
الجدار وقال لها: انظري وتفكري ولا تتكلمي...

سياحة في حضرة الجمال

كانت القبة الذهبية تتراءى كلؤلؤة بلورية على بساط من نور الشفق العندمي، كانت تغرق ببطء في غروب آسر وقد أخذت زخاريها، فما استطاعت صمتًا في حضرة هذا الجمال الذاهل فتدافعت عباراتها بشيء يشبه الهذيان ما آآآآ أجملها! إنها بيضة مكونة من بيضات الجنان السماوية، أهبط بها لتكون صلة الروح الدنيوية بمسكنها السماوي الأزلي، وإنها حقًا منارة أرضية في عين السماء، كما أن الشمس والقمر منارتان سماويتان في عين الأرض عاودت الصمت وعيناها تجوبان الروعة اللامتناهية بنظرات زاخرة بالحب، الحب!، أي حب؟! إنه العشق.. إنه الهيام الذي يدير الرأس ويفور لواعج القلب، والله إن عروس الحور ضاربة الجمال بما يفوق حسن الشمس والقمر لتغار من هذا الجمال الأخاذ فكيف بعرائس الإنس؟

هنا في مثل هذه الروعة يصب الغزل المستباح، في هذا الامتطاء اللطيف للريح تعرف المعجزات وتقرأ، يا لهذه العبقريّة الخالدة! يا لهذا العقل الهندسي الخصب الذي أتقن فسوى وقدر على خطف

الأبصار وسلب الأبواب! وقالت بخفيض الصوت الندي: غيبي...
اغرقني في عتمة الليل السديم فوالله ما زادتك هذه العتمة إلا
جمالاً، وهل لليل بهيم أن يطفئ جذوة الجمال اللاهبة منك!

كان أذان المغرب يصدح من أعناق المآذن الأقصاوية بصوت ندي
يفوح بالأشجان، كأنه يبكي ذكريات أناس عمالقة ثووا في حنايا
التاريخ السحيق، مما جعل العجوز يطلق نفحات ثرة من الأم
والحسرة، ثم قال بصوت فيه شحوب وحنين: هيا بنيتي اذهبي إلى
«أمك» واقضي ليلتك على الوجه الذي تشائين وإن موعدنا الصبح

- كنت أود مسامرتك الليلة ولا أطيق لك فراقاً...

- لا بد من الراحة قليلاً حتى نقدر إحياء ليلتنا بالصلاة والعبادة،
ولا تنسي أن الركعة في هذا المكان المقدس بخمسمائة ركعة كما قال
رسولنا الكريم _ صلى الله عليه وسلم _

- كما تريد ولكنني لا أشك بأنك ستغير وتبدل رأيك، فإن حصل
وفعلت فأنت - أعلم مني كيف تجدني ولكن لا بد من سؤالك لماذا
اصطحبت «عمر هذا» وأنا على يقين بأنك تعرف كل شيء عن هذا
المكان المقدس؟

- قال بشيء من التفكير المَهَل: الذكريات التي يعتريها شيء خارج عن
المألوف أبقى أثراً، وأثبت صورة في الذاكرة من غيرها.. هزت رأسها
وقالت: أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه

كانت أمها تقف في ذهول نكر ملفعة بثوبها الفلاحي المورد وشالها داكن اللون لما أقبلت إليها ترفل في خفر وحياء، وقبل أن تلتقط أنفاسها بادرتها بصوتها الغاضب أين كنت أيتها المجنونة؟ أجيئت إلى هذا المكان المقدس لتهذي مع عجوزك الخرف؟ أما يكفيك هدرًا للوقت طوال الزمن المنصرم؟ ألا تعلمين بأن الصلاة تضعف غيرها بخمسائة صلاة في المساجد الأخرى؟

حفنة من الأسئلة غير متأنية ولم تهلها للرد لكنها قاطعتها قائلة: أعلم أماه، صبرك علي، أمهليني رويدًا حتى ألتقط أنفاسي، عاودتها سائلة وقد ذهبت غضبتها هل أكلت شيئًا؟ هل أطعمك ذاك العجوز أم أنك تطوين على قرقرة معدة فارغة؟

-أمي صبرك قليلًا

-ها أنا صابرة تكلمي ولا تثيري غضبي من جديد

- نعم أكلت قليلًا ولكني لا أشعر بالجوع لأن اليوم يوم غذاء الروح الباقية الذي يغني عن غذاء الجسد الهالك، وأنا لم أضيع وقتي ولم أصحب عجوزًا خرفًا، بل قضينا وقتًا ممتعًا وعجوزي _قالتها والسعادة الدافقة تنضح من محياها _... الذي ترمينه بالخرف فاعلمي أنني أحمد الله الذي حباني بعجوز مثله، إنه خزينة علم وتاريخ ضمن الزمان بمثلها

-لا أعلم بماذا تهذين! تعالي نصلي المغرب، ثم نأكل مع النسوة

لقمة تقيم الأود وملحقين على الكلام..

انفضن من الصلاة وتحلقن حلقة في زاوية مسجد الصخرة المشرفة،
ونشرن بعض الأطعمة والأشربة داخل إطار الحلقة، وبدأن التهامها
بقواضم جائعة، وبينما هن على هذه الحال نظرت الأم ابنتها فإذا
هي ساهمة محدقة في جوف القبة البعيد، وقد انطلقت روحها
تفررف في سحب الجمال وفسيفسائه، وظل الجسد هامداً مغلقاً
ثغرة في حلقة نسوية بلا معنى..

لقاء وأثر

وبينما هي في سهومها الذاهل سمعت صوتاً يستميحها عذراً، ويتردد عليها فانتبهت فإذا بفتاة عشرينية العمر

لا بالقصيرة ولا بالطويلة، ملبسها مقدسي بامتياز بلونه الكحلي الداكن وقصته المشكلة من قطعتين فستان فضفاض يهبط أقل من شبر تحت الركبة، ومن فوقه جاكيت إلى أسفل الخصر، ومن تحته جرابات سود سميكة محياها صبوح مشرق أبانته سهام الضوء المنعكسة إليه من النواحي المختلفة مما زاده جمالاً وإشراقاً وألفة من أول نظرة قالت المرأة مرة أخرى: سامحيني فقد دست طرفك من غير انتباه

-لا عليك فلم أشعر بهذا

-مدت المرأة يدها مصافحة معرفة بنفسها: أنا سعاد المقدسية

-أهلاً أنا فاطمة الغزية ردت وهي تصافحها بحرارة: من غزة هاشم

والشافعي، بل من غزة الكنعانيين.. فأبأونا وأجدادنا أعمق تاريخاً
وأقدم حضارة مع تقديري لهاشم والشافعي ثم أردفت مستفسرة:
إذن أنت من أهل هذا المكان وقد حظيتِ بقدسيته

-إن شئت قلت إن روحي معلقة به ولا تسبح إلا في بحر جماله
وملكوت قدسيته وإن كنت راغبة في الصحبة فأراني قد ألفتك
وأنست بحديثك

قالت في نفسها: وأنا ألفتك وأنست إليك ولعلها فرصتي للتعرف
على هذا الكهف فائق الجمال ثم صدحت بصوتها الحاني: أمي،
أمي وهي تتقدم نحوها تسحب سعاد من كفها، أمي هذه سعاد
المقدسية تعرفني إليها

-أهلاً وسهلاً بنيتي أنا خديجة

-حياك الله أماه

-قالت فاطمة: أماه إن سمحت لي، فسأذهب بصحبة سعاد نظوف
رحاب المسجد

- قالت سعاد بجرأة مريحة: لا تخافي خالتي، فهي في عهدتي ولن
نبرح المسجد ورحابه

-حفظتكن السلامة المهم لا تتأخري كثيراً، فأنت بحاجة إلى قليل من
النوم

-بادرتها سعاد بالسؤال: ما جاء بك يا فاطمة ؟

-الشوق

-هل كنت هنا من قبل؟

-على الدوام

نظرت إليها باسمه وداعبتها: إنك تكذبين لو صدقتِ لكنت رأيتك
ذات مرة

-روحي يا سعاد روعي أشعر أنها ولدت هنا في جوف هذا الكهف
المقدس في داخل هذه البيضة المكنونة... بيضة السماء الطاهرة في
رحم الأرض المقدس

- أشعر بقلبك يحترق وإن لكلامك حلاوة، وإن عليه لطلاوة كيف
تجدين هذا..

- العشق يفجر ينابيع الحكمة ويقوم اللسان بين السحر والبيان،
وقد حباني الله تعالى وخصني بشيء من ذلك، ولا أدري حتى الساعة
لعله ألقى على عاتقي جزءاً من رسالة ما

-ضحكت سعاد حتى بانث عن در يافع مصفوف وندفت كلمات
بخبث مفتعل أنت يا رسولة إلى ماذا تدعين ؟

- كل مخلوق على هذه البسيطة _أقصد رسول_ يحمل رسالة ما ولكن منهم من درى هذا ومنهم من قضى دون أن يدري.

- إنك تثيرين فضولي وتطفلي!

- لا عليك، فأنت دليلى لهذه الليلة، أريد أن أعرف كل ما في رأسك هذا، وداعتها عند أعلى أذنها بأصابعها اليافعة، وبشت في وجهها ببسمة رائقة ساحرة، وأريد _أضافت إلى ما بدأت من قول_ أن تجودي علي بكل ما حواه وحازه عقلك المقدسي من علم حول المكان

- إذن أنت تلميذتي اليوم

- لا ضير، إن كنت ستفيديني بشيء أجهله

- وأنت عبد لي، أما قالوا من علمني حرفاً كنت له عبداً!

- ردت عليها والضحكات تختلط بحوارهن الطفولي اللاهي

-ليس بالضبط.. فلن أكون أمة لسيدين وسيدي في السماء مستويًا على العرش، وهو شرفني بعبوديته فكيف لي أن أستبدله ولو أن لي بذلك حمر النعم، ومن علمني شيئاً فعليه شكري لأنني سأرفع ذكره في الأولين والآخرين، فكلما خدمت معلوماته رسالتي، أسندت ذلك إليه فعرفه الناس ودعوا إليه بالخير وبهذا يكون قد جاب الآفاق

وبلغ الأبعاد أفلا يشكرني ! _أنهت مبتسمة بتفوق سافر_

يا لك من شيطانة، أراك لا تبارين في مضمار إلا وكانت لك الغلبة تعالي سأحدثك عن التاريخ والمادة، وأترك المعنى الروحي لروحك و سبحاتها وتجلياتها، يعود إنشاء هذه القبة العظيمة والمسجد الأجل في العالم قاطبة والمبنى الأموي إلى عهد أجدادنا الأمويين فقد بناه عبد الملك بن مروان، وقد أوكل العمل به إلى المهندسين، المسلم رجاء بن حيوة البيساني والنصراني يزيد بن سلام المقدسي وكان ذلك سنة 66هجرى واستمر العمل سبع سنين أنفق عليه خراج مصر طيلة هذه المدة...أترين تثمينة الأضلع فإنها قائمة على دعائم وأعمدة اسطوانية في داخلها دائرة تتوسطها الصخرة، وتقوم عليها القبة بقطرها العشريين والمرتفعة عن الصخرة نفسها 34م

- الآن أدرك أن للجمال أنواعاً وأشكالاً لا يمكن تعدادها، قالتها فاطمة وهي تجوب ببصرها تجويف القبة المعصفرة وتنظر النوافذ الموشاة بالزجاج الملون والمنتشرة كالدرر على عنق الحسناء، وتلك الزركشات الفسيفسائية التي زادت القبة وجوانبها حسناً وبهاء، والسواري الاسطوانية العملاقة الجاثم على أكتافها أقواس هلالية بجبة حجرية موشاة برسومات فاتنة، فيها لسان سحر ينفث الماضي الجميل الذي عاشه عمالقة الحضارة الأبدية سواري رخامية، منها ما هو مصقول ومنها ما هو مجدول نحت بإتقان متناهٍ... إنك تقف أمام لوحة فنية آية في الجمال الإلهي تكاد كل قطعة منها صغيرة أم كبيرة أن تنطق، أن تحدثك عن تلك العقول التي سوتها وعن تلك الأيدي

التي كورتها وعجنت حجارتها وطينتها، إنها تنبتك أن الأمويين سبقوا الأولين والآخرين، هذا الفن المعماري بالغ الروعة وفائق الجمال إن كان من قصور في الدنيا فيكفيني هذا، وإن كان من قصور في الجنة فيكفيني أيضاً هذا

- الجميع يأملون ويرجون ما ترجين لكنه يا حبيبتى «وَقَف» والعالم أجمع بديانته السماوية الثلاث ومن بعدها الوضعية الكل يتناطح على هذه البيضة السماوية كما أسميتها، سحبتها سعاد من ذراعها وقالت: اتبعيني لم تري شيئاً بعد، سأريك عجيبة حقيقية من عجائب الزمان والمكان

هبطت بها درجات تنزلق إلى تجويف غير منتظم يشكل مغارة واسعة بعض الشيء حيطانها صخرية بازلتية زرقاء على يمين داخلها يكون محراب صغير _ قالت بخشوع مبالغ فيه حتى لا تشوش على المصليات والقائمات هناك _، هذا محراب الخضر وعلى يسارك هناك محراب إبراهيم، هل هذه الصخرة التي قالوا إنها لحقت رسولنا الكريم محمد _ صلى الله عليه وسلم _ عندما عرج إلى السماء في رحلة الإسراء والمعراج؟ سألت وما زالت في اندهاشها الذاهل

ردت سعاد على عجل: هناك أقاويل عدة هذا قول منها، وقالوا أيضاً إنها معلقة في الهواء، ومنهم من قال إن مياهاً وجداول عظيمة تجري من تحتها... أما أنا فأميلُ إلى الرواية الأولى بل «أصدقها موقنة وبلا ريبة فما من جماد ولا نبات ولا إنس ولا جان لامست

أنفاس رسول السماء الزكية أو وطأته أقدامه الطاهرة أو لامسته يده الشريفتان إلا وحن إليه وتعلق به، أما سمعت بجذع الشجرة الذي كان يصلي تحته رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ ولما رحل عنه

بكي الجذع بكاء الرضيع ضياع ثدي أمه!، وقيل إن الرسول _ عليه الصلاة والسلام _ وضع يده الشريفة عليه فسكن وخشع، فالأولى بهذه الصخرة أن تتشبه برسول الأرض العارج إلى السماء للقاء ربه، وأنا على يقين بأنه أمرها بألا تتبعه فبقيت مكانها بأمره متأرجحة في الهواء، ولعظمتها وضخامتها نراها ثابتة راسخة، أما تزين الجبال راسخة وفي الحقيقة هي تمر بنا مر السحاب، لكنني سمعت النسوة ونحن في طريقنا إلى هنا يتحدثن عن شعرات مقدسات من شعرات النبي المرسل محمد _ صلى الله عليه وسلم _

- آه صحيح هيا بنا، قفلن صاعدات الدرجات ثم خطون بتؤدة، حتى وقفن أمام خزانة لا تزيد على المتزين ارتفاعاً عن الأرض، مشكلة من أربعة أعمدة اسطوانية دقيقة جبلت من الحجر الجرانيتي، وغلّق ما بينها من الجهات الأربع بزجاج مبرّز أخذ لون الاحتراق من شدة احمراره، وسقفت بثلاث فرزات مزركشات ظهرن كأنهن ثلاث درجات مقلوبات، وعلى ظهرها ربضت قبة نحاسية محروقة اللون، وغرس في مركزها ذراع نحاسي بطول نصف المتر ينتهي بهلال، وأنهت سعاد تشخيصها قائلة: يُعتقد أن من تحتها يوجد حجر صغير محمول على ستة أعمدة صغار يحمل أثر قدم الرسول الشريفة

_ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم_ وهذا كل شيء

-أهبلت! أنتِ غبية يا بنت.. قالتها فاطمة بدعابة طفولية ثم
أكملت بعد نظرة ساخرة أين شعرات الرسول؟

-ضحكت سعاد من نفسها حتى بانث نواجذها فتداركت والتقمت
كفها قبل أن تفضحها ضحكاتهما المنفلتات من غباء مفتعل... آه
صحيح لقد أنسانيها الشيطان

- شيطان، جان أين هي قبل أن... ووكزتها ما بين الترقوة والكتف

- هناك هناك يا مجنونة، انظري تلك الزجاجاة الصغيرة بداخلها

- لا أستطيع لمسها؟

- لا يا ستي لا تستطيعين لمسها راحت عليكي فلو لمسها كل من هب
ودب لتلفت أو لربما سرقت

- صدقتِ، هذا ما تحدثني به نفسي لو أتي أصل إليها..

- تعالي سأريك شيئاً آخر آية في الجمال!

انتقلت بها من غرب الصخرة الجنوبي إلى شمالها الشرقي، فإذا
بمحراب حجرى ناصع البياض إلا من خيوط زرقاء دقيقة نسجت بها
مثلثات وردية فوق حاجبي المحراب زادته جمالاً وأناقة كما تزيد

الكحل العين سحرًا...

عمودان حجريان من الجرانيت المصقول متقابلان في شموخ لافت،
قَعَد على عنقيهما قوس هلالِي فيه ثلاثة تجويفات جعلاه بادِيًا
كحاجبين ملتقيان عند مركز الجبهة..

قالت وهي مأخوذة في ملكوت الجمال: لا يفتأ هذا المكان يفاجئني
بلألئه المتناهية في الحسن والبهاء، إنه حقًا مستودع الجمال الكوني

-فاطمة.. فاطمة... فاطمة كانت ساهمة سهوم المسحور في اللا شيء،
فلم تسمعها حتى لكزتها في نفس المكان الذي وكزتها فيه هي من
قبل وقالت واحدة بواحدة، ردي ألا تسمعين لقد ناديتك ثلاثًا...

-عفوًا لم أسمعك، إنه ساحر

-أريد أن أذهب لقد انتصف الليل

-أين ستذهبين؟

-إلى داري يا حبيبتِي أتحييني من غزّة؟، أنا من هنا من هذا
المكان، ودارنا على بعد عشر دقائق لا أكثر من هنا

-أحقًا ما تقولين؟

-نعم حقًا أنا من حارة السعدية هناك خلف السور بشيء من

المسافة الزمنية القليلة، ولقد سعدت بصحبتك كثيراً وسأشاق لك..

-لكن لماذا لا تبقيين معي حتى الصباح؟

-هكذا هي الأوامر سيدي ويوم غد علي أشغال كثيرة

-للأسف كنت أود تعريفك على عجوزي _أقصد جدي_

-لكنك لم تذكر لي أن جدك يصحبك اليوم، حسبتك بصحبة أمك وأولئك النسوة فقط

-لكنك يا سيدي لم تهليني ولم تمنحيني فرصة الكلام فأنت «أحكي من قرد» ولم تسأليني البتة

-لا عليك في المرات القادمة ستزيدني معرفته شرفاً

-خسارة، فإنه ملهم

-ملهم !! ماذا تقصدين بملهم؟

-إنه ملهمي ويا ليتك عرفته

- إن كان حقاً ما تقولين، فأنا من خسرت ولكني للأسف لا أستطيع البقاء أكثر، فوالدي شديد دقيق يحب الالتزام بالمواعيد وتنفيذها بحذافيرها دون مواربة أو تهاون... تذكرني الاسم جيداً سعاد المقدسية من حارة السعدية لا تنسي، وأنا بانتظارك يوماً ما فبإمكانك الزيارة

لتناول الطعام إن شئت ذلك، طبعت على وجنتيها قبلة حارة ثم همست في مسمعها: أرجو الله أن أكون قد ساهمت وأفدت رسالتك بشيء ثم ألقى التحية وغابت كأنها لم تكن

ظلت فاطمة في سهوم نكد لا تدري كيف حلت هذه الضيفة خفيفة الظل، وكيف أحبتها ووثقت بها وكشفت لها سرها الأبد و كيف رحلت عنها كما لو أنها سحابة مثقلة ألقى ما فيها ثم تخلت ووثت في فضاءات ليس لها نهاية.. هل هي إنسية أم جنية أم ملاك؟؟ ملاك هبط لمهمة ما ثم رحل.. سعاد المقدسية، حارة السعدية... سعاد... سعاد... السعدية ظلت ترددها حتى لطمها صوت أمها يقول: ألا تريدين النوم قليلاً؟ أم تتعبي بعد؟ قالت وهي في شرودها اللافت: بلى أُمي لقد تعبت، تعبت كثيراً أريد النوم، ولا شيء غير النوم.

رجاء شيخ

كان العجوز قد وصل حداً قصياً من الإعياء، وتورمت قدماه من وقوف خاشع في حضرة الإله، فركع ثم نصب قامته ورفع يده نحو السماء، وتوجه بقلب مبتهل ملتهب بحرارة العشق الإلهي، ونظر إلى السماء بعيون منسالة بدمع سح سيال أخذ مجراه بين خيوط الشيوخة المتراكبات على صفحة وجهه البهي كما سنين الدهر متراكمات آكلات شاربات على كتفيه، فقال بصوت متهدج خنن: «رب أنت القدوس رب هذا البيت المقدس أنت تعلم وأنا لا أعلم إن أتمت رسالتي فخذ بناصيتي واقبضني إليك ولا تقبضني إلا في حجرها»

على هامش الأرق

مددت شبحها بين النسوة على يمين أمها تغالب الأرق الذي اجتاحتها فجأة، فطرد الكرى والسنوان من عينيها ودار رأسها في دوامة شنعاء، فشعرت به يتصدع فانسلت من بين الجثث الهامدة منتصبه برفق، فأعادت انتظام ملابسها وغطاء رأسها، ثم مشت الهوينى تخفي حفيف الثياب تكتم أنفاس الخطى حتى صارت خارج المسجد، تلفتت عن يمينها وعن يسارها فوق بصرها على عجوزها يقتعد درجة عند أسفل السارية اليمنى من سوازي الأقواس الأربعة الشامخة قبالة باب مسجد قبة الصخرة، فتبسمت من بعيد وهمست قائلة: لقد أصابه الذي أصابني، فهش لها بمحياه البهي الذي يضيء ويخبو بتغازل مع ضوء المصابيح المتأرجح في النسيم البارد، ثم أشار لها داعيها الاقتراب إليه فسارعت الخطى حتى قاسمته مقعده، فلها بذراعه ولثمها بقبله سالت منها ندف الشوق اللاهبة، وخشعت هي في حضنه الدافئ بطمأنينة لم تعهدها من قبل

-اشتقت إليك بنيتي

-أما قلت لك إنك ستغير رأيك وتبدله؟

-صدقت فأنا عاشق لا أقوى على فراقك ولا أريد الاحتراق إلا بين
يديك

-أراك عما قليل ستقول الشعر جدي

-من لم يقل الشعر فيك فلا شعر له، ولو نظم القوافي على السبع
بحور

-ومن سيقول الشعر فيّ ومن أنا لأكون أهلاً لهذا؟!

- سيقوله أحدهم أو كلهم يوماً ما، فهناك شعراء أقلامهم حرة لا
يبتاعون ولا يشترون بالكلمة، إنما يسخرونها في خدمة الرسل ونشر
رسالاتهم

- قل لي حقاً ما الذي أتى بك إلى هذا المكان وفي هذه الساعة المتأخرة
من الليل؟

-قولي أنت ما الذي أخرجك من المسجد في مثل هذه الساعة؟

- لا أدري

-بلى إنك تدرين فأصحاب الرسائل لا ينامون إذا ما نام الناس؟
ولا يسمرون إذا ما سمر الناس؟ ولا يشبعون إذا ما شبع الناس؟

هم يحرسون النيام من الناس ويكدون ويجهدون ليرتاح الناس، ويجوعون ليشبع الناس، ويضحون بكل ما يملكون من أجل أن يأمن الناس في دينهم ودنياهم في أنفسهم وأموالهم وأوطانهم، هؤلاء هم ورثة النبي _ صلى الله عليه وسلم _ ونبض رسالته في الناس يكملون ما بدأه، ويجددون للناس دينهم كلما تضاءل بثه في النفوس، وكلما خلق في القلوب، ويحيون في الناس الكرامة إن ماتت، ويوصلون الانتماء والهوية إذا ما اختلقت أفهام الناس ومعتقداتهم ويصوبون سهم البوصلة على الصراط المستقيم إذا ما انحرف يوماً في شعاب التيه والضلال، ومهمتهم العظمى أن يبقوا مذكرين مؤذنين بالناس حتى لا يزيغوا فيهلكوا وحتى لا يضلوا فيحل عليهم غضب الله «وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى»⁽²⁴⁾ وقال منهياً: أما أنا فقد جئت لأني اشتقت إليك..

- سألت وهي تعبت ببصرها في سكون الليل وعمته سؤالاً استفزازياً: أما كان يكفيك أن تحدثني عن القدس دون أن تأتي بي إلى هنا كما حدثتني عن مدن أخرى كيفاً وحيفاً وعكاً؟

-القدس ليست كغيرها من المدن الفلسطينية، بل ليست كغيرها من مدن الدنيا كلها، إنها عروس السماء ودرتها في الأرض هي مركز الدنيا وسرة العالم السفلي، وهي حلقة الوصل بين السماء والأرض، كانت كلماته تنهمر مدللة بنحيب صدره المتصاعد فتفتح

عندها قنوات التلقي، وتستفز فيها شعيرات الالتقاط حتى أشعلت بداخلها جذوة العشق المقدس لهذا المكان القدسي الشريف.. هي أرض الرسالات ومهبطها، هي ملتقى الأنبياء والرسل وبلادهم هي مسرى حبيينا محمد _ صلى الله عليه وسلم_ إنها القدس يا فاطمة وسقطت عليها حبة حرى من دمعاته الساخنة فانتبهت فإذا به يفيض ببكاء مخنوق أبت رجولته وشيخوخته فضيخته، فمدت يدها الرقيقة اليافة فمسحت قوس المحاجر ورؤوس الوجنات، ثم مررتها على لحيته الدقيقة وقالت:

- ما يبكيك جداه؟

-أبكي الأنبياء الذين اصطفوا في هذه البقعة المقدسة خلف إمامهم الرسول الأمين محمد _ صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم_، أبكي اللحظات المقدسات التي جمعت الأنبياء والرسل قاطبة هنا، هنا بنيتي في هذه البقعة الطاهرة، ألا يشعرك هذا بأنها قطعة من أرض الجنة، إنك تجلسين الآن على مصطبات جنة السماء، إنك تجولين في أرجائها وتتعبقين بأريجها، ألا تلفحك روايح الأنبياء الزاكيات ألا تثير أشجانك وتفضح لواعج قلبك الحارقات صورهم الماثلات كاللآئى المدليات من بطن السماء، وهم يُؤْمنون ويركعون ويسجدون من خلف رسولنا الكريم لرب السماء، والله إن هذا الشعور يتجلى لي حقيقة وصورة حية، أعيشها اللحظة، شعر بها بدأت تنتحب تحت إبطه فأدرك أنها دخلت حالة ملكوتية فزادها قائلاً: ومن ثم أبكي التاريخ والحضارة، أبكي أناسها وعمالقتها وعقولها الفذة، انظري هذا

الجمال الكوني بل الجمال الإلهي المتجلي في هذا الإبداع المقدس،
من يقدر على مثله إلا عقول تغذت من نبع قرآن مقدس ونهلت
من معين دين

سامق صافٍ، وألهمت الجمال من رب جميل فصاغت الجمال في
أبهى صورهِ وأرقى معانيهِ، بنيتي إن الله تعالى جميل يحب الجمال
ويحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها... هؤلاء أبكي وأرثي، هم من
عرفوا قيمة الجمال الإلهي فصاغوه آيات شاهدات ماثلات لعيوننا،
هؤلاء أبكي... من تخلقوا بالقرآن وجماله فرفعهم إلى المقامات
السامقات بعيداً عن حضيض الدنيا وسفاسفها، هؤلاء هم أجدادك
خلفاء الأنبياء في الأرض ورسل السماء إلى الناس كانوا هنا يوماً...
استنطقي الصخرة، السواري، الأقواس العاليات، المآذن الشاهقات،
استنطقي الليل وعممة النجوم الموصوصات والسحب العابرات،
استنطقي الهواء الفضاء كل هذا ينبئك أنهم كانوا وما زالوا بين
الخصاص والجزيئات بين الثرى والذرات باقين في القدس... في هواء
القدس.. في ليلاً ونهاراتها.. لا يضرهم من خاذلهم وناكفهم وعاداهم
ولا يضرهم من زاغ عن دربهم وضل من بعدهم... كل شيء هنا
ينطق باسمهم ويعلي شأن دينهم وحضارتهم وينبئ بمعالي أخلاقهم
ومكارمهم ولماذا؟ فقط، لأنهم عرفوا أن الله _ جل وعلا _ هو مستودع
الجمال كله، فرتعوا عند عتباته ونهلوا مما فاض عليهم من جمال
إحسانه، أما قولك لماذا جئت بك إلى هنا فلأن القدس، ومسجدها
الأقصى هذا المكان والبلد المقدس هو أساس الرسالة... جئت بك

لتستحي في عقب التاريخ والماضي تستنشقين رائحة الحضارة المعتقة
 التي تفوح من جنبات هذا المكان الإلهي المقدس، ولتستخرجين آثار
 آبائك وأجدادك المدفون بين ركام الماضي السحيق، لتعلمي بنيتي أن
 الماضي والأثر الملموس والمنظور ليس كالماضي المسموع أو المقروء،
 فذاك أقرب للنفس وألصق بالروح وأدوم في البصر والبصيرة وليس
 المعاین كالمخبر، أراك الآن قد فهمت هيا مللمي الدمع وكفي النحيب
 وانهضي إلى حيث أتيتِ فإن موعدنا الصبح إن شاء الله

ثمن الحقيقة

كانت صحوه مشرقة ليوم خريفي بكر، أشعرت العجوز بهمة شبابية فائرة، فوقف يطمط جسده الداوي في شيخوخته ذواء الأيام في بوتقة الانقراض في مهب النسائم الخجلى، ويغسل ثقل عينيه بأشعة شمس راحت تنهد على رؤوس الجبال الشرقية البعيدة على استحياء ناعم، فأخذته على غفلة منه فقالت:

- إنه صباح رائق

- أهلاً بنيتي كيف أصبحت؟

- على خير حال.. كأنك أمضيت ليلتك مغروسًا هنا ونمت واقفًا؟
وأنهت بدلال باسم يا عجوزي العاشق

- لم يُلِقِ كثير بال لكلماتها الطفولية وقال كمن لا يملك من الوقت إلا نُزْرَه انظري نهود الشمس وضيائها الحايي، كيف بيدد الظلام ويعتلي الأسوار ويدغدغ الأشجار ويغسل الأحجار، وإنه يفرش الأرض

والآفاق بالوضوح ويمنح أهلها حياة جديدة ليوم جديد من غير قرقعة ولا ضجيج، ومن غير انتظار رد جميل من أحد.. هكذا هم أصحاب الرسائل يسبحون في بحور الدنيا بانسياب ماهر بعيد عن التخبط والتردد ويعيشون بين البشر بصمت لافت إلا من مضامين رسالاتهم، باختصارهم يعلمونها الناس باقتدار صامت تمامًا كالشمس تحيي الدنيا وأهلها باقتدار صامت، إنه أسلوب معقد عاتٍ، يعكس فن العبقريّة في إدارة الحياة وتجديدها

-إنه درس الحياة..

-صدقت، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبواب.. ثم تابع على عجل: اليوم سنقلب راجعين مع المغيب

لدغتها جملته الأخيرة فشهقت منتبهة من سكرة الجمال الصباحي المولود في مهد الأنبياء المقدس وقالت: أجاد أنت فيما قلت؟

-ما كنت تظنين؟، أن نعمر هنا؟ أم نسيت أنك من غزة؟

-لا ولكن، ولكني.. عقد لسانها وتلعثم الكلام، ولم تسعفها بلاغتها الإفصاح، فأردف يقول: أعلم بنيتي أن الهيام في الموطن المقدس يربط على قلبك ويجعلك في موضع الضعف الفاضح بحيث لا تستطيعين الفراق ولا تقوين على احتمال الابتعاد والانعقاد، ولو كان أمرك بيدي لنذرتك محررة في خدمة هذا البيت المقدس كما كانت مريم الصديقة، لكن ليس لي في الأمر شيء، فهيا نكمل ما بدأناه فما زال

أماننا كثير مما يجب عليك معرفته..

-وهل سينضم إلينا عمر الدليل؟

-لا لا سأنفرد بك اليوم وإن حارنا أمر نستهدي إليه بالسؤال، ودون تريث يم وجهه شطر المسجد الأقصى ووجه إليها سؤالاً مفاجئاً.. أتدرين يا فاطمة كيف استحوذ هذا المكان على قلوب الناس أجمعين وبلغت مكانته في نفوسهم إلى الحد الذي يبذلون فيه أرواحهم وأموالهم دون تردد؟ لم يهلها ولم يمنحها حتى فرصة التفكير وكأنه دخل في عملية سباق مع الوقت فأردف مجيئاً على سؤاله: باعتقادي أن البشرية علمت بطريقة ما أن هذا المكان هو مركز الكون وسرة الدنيا، وهو بوابة السماء وبهذا يكون الطريق إلى الجنة من هنا، وضرب الأرض من تحته بقدمه الهشة تكراراً وهو يردد تترًا من هنا، من هنا، إنها الطريق إلى الجنة..

-خرجت من صمتها لتقول في ذهول واضطراب: من أوصل البشرية إلى هذا الاعتقاد برأيك؟ وأتمت بهمس جبان في نفسها، أيها الفيلسوف..

-لا بد أنه إله البشرية..

-كيف؟

-لقد ساق لها من الحوادث ما جعلها تؤمن بذلك فموسى نبي الله

_ عليه السلام_ أمره ربه أن يدخل بقومه الأرض المقدسة والنصرانية تعلم تمامًا أن عيسى نبي الله _ عليه السلام_ نجاه الله من الصلب اليهودي ورفعهُ إلى السماء من هذا المكان، وأمة الإسلام تؤمن بما جاء به قرآنها العظيم بأن محمدًا _ عليه السلام_ عرج إلى السماء بعد الإسراء به - من مكة بيت الله الحرام - من هذا المكان، كما تعلمين أن الرسائل السماوية الثلاث هبطت من السماء السابعة على هذه البقعة المباركة وأن هذه البلاد هي محض الأنبياء والمرسلين، ولهذا سيقت نواة البشرية المكونة من ثلاثي الرسائل إلى تطاحن مستمر وعراكٍ طاغٍ حول هذا المكان المقدس، وراحت كل أمة تدعي أحقيتها به وكأنها حارسة الله في الأرض..

-وبرأيك من الأحق في ادعائه؟

- إذا ما حَكَمْنَا الأديان والرسالات فهي للمسلمين قولاً واحداً إذ إن نبي الله محمد _ عليه الصلاة والسلام _ بعث خاتماً للرسالات والبشرية كافة «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ»⁽²⁵⁾ وجميع الأنبياء والمرسلين كل بعث لقومه خاصة، ومما يزيد تأكيداً على أحقية المسلمين بهذه الأرض هو حادثة الإسراء والمعراج حيث إن الله _ عز وجل _ كان قادراً بأن يعرج بمحمد حبيبه ونبيه إلى السماء من مكة البيت الحرام، لكنه جل في علاه أراد أن يبين للبشرية الرابطة التي لا تنفك بين أظهر بقعتين على وجه الأرض قاطبة فجاء به إلى أقصاه،

(25) قرآن كريم، سورة سبأ: آية 28

ثم عرج به بعدما أمه بجميع الأنبياء والمرسلين في إشارة إلى أنه قائدهم وسيدهم وبهذا تكون أمته قائدة البشرية وسيدتها، أما إذا حكمنا التاريخ فلقد خَبرنا البارحة التاريخ وتفاصيله من دليلنا عمر السلوادي الذي بين لنا أن سكان هذه البلاد الأصليين هم أجدادنا من اليبوسيين والكنعانيين سلالتهم..

-إذن لماذا كل هذا العناد والتعدي والظلم السافر والمسافح من قبل الآخرين؟

-بنيتي هي طبيعة البشرية عندما تبتعد عن فطرتها السليمة التي فطرها الله عليها، تقترب من الحيوانية التي تعيش بحكم شريعة الغاب وتجيد الافتراس وتتقن فن التغول ودرس الضعيف وطحنه، ومن ثم ليس من السهل على الآخر أن يسلم لنظيره بخلافة الأرض والتشريف الإلهي فيظل يقارع ويناطح بقرن مهيض⁽²⁶⁾، ويدعي أنه صاحب الخيرية والأفضلية ويقدم الغالي والنفيس من أجلهما، فاليهود ادعوا أنهم شعب الله المختار، والنصارى قالوا إنهم أبناء الله، وحاشا لله أن يكون له صاحبة أو ولد...

-إذن لن ينتهي التعارك والتطاحن المميت على هذه البقعة إلى قيام الساعة وستفني البشرية نفسها..

-لقد مات أناس لا تعداد لهم وسيموت أناس كثر ومن بينهم أعزاء

على قلبي، قالها وحسرة الأسي تنفث من جوفه وشحوب مهلك
يطوف على محياه

-لطمتها بل صعقتها قولته الأخيرة، فشعرت بجيوش الضعف تحتاج
أوصالها فغابت بعيداً في شعاب التفكير العقيم، تحلل مغزى كلماته
وتفكك أسرارها، وهي تدرك بأن هذا العجوز لا يذرب كلماته جزافاً
إنما بعد طول تأنٍ وعميق تفكير، ولا يلقيها سفايحاً ولا يهذرها
ويهذرها من غير بالٍ، فإن قال فإنه يقصد ما يقول.. فمن هم
هؤلاء الأعداء على قلبه الذين سيموتون من أجل القدس؟ وبينما
هي تبتعد وتتيه في شعاب الأفكار الضالة خطرها أن تتغابي قليلاً
وتقول بعدم اكتراث «تقصد بأعداء علينا أي من المسلمين» !

-بل أعداء على قلبي يا فاطمة، وانداح بوجهه عن عينيها مخفياً
دمعة بدأت تتشكل في مقلته..

فعرفت أن المقصد عزيز، وأمره عظيم جلل، ما بكى العجوز وجادت
عيناه بالدمع بعد عقم الشيخوخة إلا لمعزة طاغية يكنها لمن قصده
ونعته «بالعزيز»

رجال وقبلة

كان قرص الشمس يأخذ بالتصعر كلما دارت عقارب الساعة دورة وبدأت الأشراق الندية تسكن، فشعر العجوز بأن اليوم يفلت من بين يديه وساعاته تتدحرج نحو هاوية الفناء السحيقة، فقرر التشبث بكبريائه وحبس العبرات خلف أسوار الشموخ العاتية فنهض واثباً مشيراً بسبابته النافرة من قبضته الرخوة إلى المسجد الأقصى وقال: لقد أمر عبد الملك بن مروان سيد الأمويين ببناء هذا المسجد العملاق بعد الانتهاء من بناء قبة الصخرة هذه، وأدار جذعه نصف دورة ليتمكن رأسه من الدوران بشكل كامل إلى الخلف، ثم لينظر الصخرة من ورائه ثم عاد مكماً ويقال: إن زلازل كثيرة ضربت مسجداً هذا كان أشهرها سنة 138هـ فجدهه العباسيون ورمموه ومن بعدهم الفاطميون، ولقد سجل التاريخ بأن أعظم زلزال ضرب هذا المكان كان سنة 1927 م مما اضطر المجلس الإسلامي الأعلى إلى القيام بعملية ترميم جذري، ولقد مر المسجد بمراحل عمرانية متتالية ومورست عليه عمليات زخرفة غاية في الإتقان والجمال وعلى مصطباته الفسيحات وعلى عتباته المقدسات

أهريق دم الإسلام والمسلمين على يد الصليبية الحاقدة وأسر الأقصى في قمقم الصليب سنة 1099م، حتى جاءه المخلص الناصر صلاح الدين فحرره سنة 1187م فسامحهم بسماحة الإسلام ومنحهم الأمان اقتداءً بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب صاحب العهدة العمرية التي ضمنت لأهل الذمة من أهل الكتاب وغيرهم الأمان على أديانهم ومقدساتهم وحررياتهم في ظل الإسلام دين السماء هذا لما فتح القدس سلماً وتسلم مفاتيحها من البطريرك «صفرنيوس» وذلك سنة 16هـ فأين مثل هذين الرجلان أيانا؟

-تلدغك الحشرات وكأن الأمة عقت أن تلد صلاحًا وعمرًا!!

-مثل عمر لن تلديا فاطمة لن تلد.. أما مثل صلاح فلکم تمنيت على الله أن أكون جذعًا يومذاك، لكن زمني أقل والضياع يستشري، وسيزيد بهذه الأمة المنهكة والمضللة، وستضيع القدس ويحاصر الأقصى ويغتصب على مسمع من البشرية ومرأى وسيطغى الظلم ويُنصر...

كانت كلماته الأخيرة تنزل عليها كالصواعق، فقالت في نفسها: يا لهذا اليوم الذي بدأنا بمصائبه ورجمنا بشؤم أخباره، وشعرت بدوامة بائسة تدور بها في مهب الضياع، وغطت عيناها في غشاوة مقيبة حجبت الرؤيا، فخافت على نفسها العمى وخارت قواها فخافت الشلل على صغر، فتدارك العجوز ما حل بها فتابع قائلاً: ولكن إلى حين، فقط إلى حين بنيتي.. ثم يكون أمر الله ووعدده وسيبقى

الخير في هذه الأمة إلى أن تقوم الساعة، وهذه بشارة رسولنا محمد _صلى الله عليه وسلم_ «الخير فيَّ وفي أمّتي إلى يوم الدين»....فما أنهى مقولته حتى شعرت بتدفق الحياة في أوصالها وانقشعت الغشاوة النكدة عن عينيها، وكانت كلماته وقوداً يشحن بطارية الأمل بالحياة، وقبل أن تنفتق شفتاها الجافتان فتنبس الكلمات قال في هروب من أسئلتها المتوقعة: انظري هاتيك القبة الخضراء التي أخذت من سطح المسجد مركزه، إنها قبة أموية تعكس الجمال العمراني الإسلامي في حلته التي لا تجارى، عليها شريط كتابي دائري يشمل على أسماء نسل الملك المنصور قلاوون الذي جدها سنة 728هـ قال وهو يهبط بها الدرجات من ساحة الصخرة إلى مصطبة المسجد الأقصى: هيا نرى الجمال وآياته من الداخل، وما هي إلا خطوات حتى دلفا باباً عملاً في الصنع والحجم، فإذا بهم بين سوارى عاليات من الحجارة الاسطوانية المصقولة موشاة بزخارف مبهرجة وخطوط فائقة الدقة ورسومات فسيفسائية ذات جمال متنه في الإتقان، إنه خليط جمال متناسق ومتناغم تماماً مع جمال الكون والسماء مما يزيد يقيناً أن هذه البقعة هي بوابة السماء وهي الطريق ونقطة الانطلاق الصاعد نحو السماء..

-مذهل حقاً مذهل، قالت وهي تحدد بعينيها الذاهلتين: لن تجد في قواميس اللغات حروفاً تستطيع أن تصف بها ما تراه عينك، إنها معجزة جمالية تعكس جمال الإله الذي أوحى وأودع في هذه العقول الجبارة جزءاً من قدرته الإلهية لكي تصنع شيئاً يليق بمكانه

المقدس ويستحق أن يسمى بوابة السماء..

ولعجز عقلها وخيالها عن التعبير أمام هذا الإعجاز العمراني الراقي، قررت أن تستمتع بصمت فَرِح وبإصغاء تام لعجوزها الذي راح يطوف بها في رحاب المسجد شارحًا ومبينًا أدق التفاصيل من غير تلغثم ومن دون تلوؤ كأنه يقرأ عليها من مطويات عمر السلوادي...

وسام شرف

واصل سرده العذب حتى وقف بها أمام منبر نور الدين زكي، فقال بصوت فيه نداوة وبرة: رحم الله الرجل وهو يتحسس بلطف مبالغ فيه أطراف المنبر الحديدي، ثم تنهد عميقاً وأردف قائلاً: هذا المنبر صنعه القائد نور الدين زكي وهو في أقاصي الشام ووقفه للمسجد الأقصى، وما زال يرزح تحت نير الصليبية البشعة، وراح يجمع قلوب المسلمين من حوله ويشحن همهم ويغذي روح الثأر لدين الله في نفوسهم ويذكرهم بمجد آبائهم المسلوب وكرامة أمتهم المداسة بنعال الباطل القذر... هكذا هم القادة الفطناء يا فاطمة قالها_ والحبور يفيض من محياه_ عرف أن الأمة لن تجتمع إلا من وراء قائد يؤمن بقدرته على تحقيق أهدافه، فصنع لهم منبراً وجعله ماثلاً أمام أعينهم حتى يستشربوه ويجدد ذاكرتهم المهترئة ويرممها من العور والخراب الآمد الذي حل بها، وبالفعل بدأت الأمة تؤمن أن ذاك اليوم بات قريباً... فلما قام في نفوسهم فلا بد وأنه سيقوم في حياتهم وواقعهم، فحتى تحقق هدفاً ما يجب أن نعيشه أولاً ويستحوذ عليك بكليتك وعقلك وفكرك، ليلك ونهارك

بعديك وعتادك فعندها فقط تستحقه باقتدار، وهكذا آمن نور الدين بهذه الفكرة، وساق الأمة إليها حتى شحنت بكل الطاقات التي ستمكنها من استرداد القدس وتتويج أقصاها بالمنبر الزنكي، ولما كانت الأمة كل واحد وبعضها مكمل لبعض فلا ضير إن كان نور الدين أو صلاح الدين من ظفر بالنصر، المهم أساس الفكرة أن تؤمّني بها وتعيشين معها وتنصرين لأجلها كانت تصيخ له السمع في خشوع أضفاه عليها قدسية المكان والروح الملائكية، التي كانت تحلق في جنباته، فيومض ومضات تنعكس على محياها فيزيدها تورداً وتهللاً... أتدرين؟ يقال إن نابليون بونبرت الفرنسي لما أراد أن يملك العالم ويصبح القائد العام للأرض على سيرة الإسكندر المقدوني الأكبر عسكر حياة شعبه...

- ماذا تقصد بعسكرها؟

- جعلهم يعيشون مع الفكرة وينصهرون لأجلها

- كيف؟

- جعل بيوتهم على شكل الدبابات والسفن الحربية، ورغيف خبزهم على شكل قوالب المتفجرات، ومدارسهم خنادق حربية، وملابسهم موشاة بصور الجنود والبنادق، ومقاعدهم على شكل ناقلات الجند، و...و...و...

حتى أنه أمر بأن يحلموا ويسمروا ويفكروا فقط أنهم ملكوا العالم
من شرقه إلى غربه

-وهل نجح في ذلك؟

- استطاع أن يعسكر حياة شعبه، ويقنعهم باتساعه والإيمان بفكرته،
لكنه لم يستطع امتلاك العالم، فلقد كان غيره يفكر بما فكر به..
ثم أردف مبيئاً: وها هو المنبر الزنكي يربض بشموخ بعدما جاء
به صلاح الدين محرر القدس ومخلصها، ليتحقق حلم الأمة وحلم
قائدها نور الدين زنكي

وقفات مع الجمال

وقال مبتسمًا: اتبعيني سأريك عجيبة عمرانية رائعة، تبعته تخطو الهويني في خفر ودلال، حتى وقف بها قائلاً: هذا محراب زكريا _ عليه السلام_، تمتعي، متعي عينيك بهذا السحر العمراني الأخاذ

كانت قد قررت أن تصمت صمت الأموات وتصغي إصغاء الكون للريح، لكنها لم تتمالك نفسها، ولم تستطع كبح جماح ذهولها وانبهارها أمام الجمال السماوي المتجسد في هذا المحراب الحجري ناصح البياض، كأن النور يتفجر من جوانبه فصاحت بشيء من الجنون: إنها لؤلؤة كريمة من جنان السماء الخالدة فيها من الحور الأحمر المحروق، ما زادها بهاءً وتلك النقوش زرقاوية اللون التي اختلطت بالبياض المشع كأنها تنفث بسحر الجمال فيسيل قطرات مضيئة على الزنار الخشبي الموشى برقم كتب عليه من الآي الكريم قول الله _عز وجل_: «كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا»⁽²⁷⁾

(27) قرآن كريم، سورة آل عمران: آية 37

كانت تتلمس عمود المحراب الأيمن المصقول بتقنية عالية، جعلته من الزجاج أقرب إليه من الحجارة، فسكنت هنيهة ثم قالت بشيء فيه من العجب والغرابة ما لفت انتباهة العجوز ما أشبه هذا المحراب بمحراب سيدتنا مريم العذراء في مسجد الصخرة المشرفة...

نظر إليها العجوز بعينين شاخصتين فبادلته النظرة بمثلها، ثم تداركت ما يدور في رأسه، فقطعت حيرته قبل أن يطرحها السؤال فقالت: أما قلت لي إن الأمور الخارجة عن العادة أبقى أثرًا في جدار الذاكرة، وأعمق انغراسًا في أرضها؟ فلقد كان لي من ليلتي المنصرمة صحبة مباركة، ولا أدري أهى من ملائكة السماء هبطت على حبال النور الواصلات بين السماء والأرض، أم هي جنيةٌ جاءت من جوف الليل أم إنسية جاءت على قدر!

كل ما أعرفه أنها طافت بي طواقمًا ملائكيًا في ذلك التجويف الذهبي، ونقشت على جدران ذاكرتي ما أعتقد أنه سيفيدني ويخدم رسالتي، وقالت إن اسمها سعاد المقدسية ثم رحلت مع منتصف الليل

قال العجوز وهو ييدد عقد الاستغراب الذي انتابه ببسمة أخذت تتسع وتطغى حتى ولدت قهقهة فاضحة ما لبث أن كتنها متداركًا قبل أن يחדش الخشوع المقدس الذي يملأ الملكان

-لماذا كل هذا الضحك الاستغرابي جدي ؟

- ما أكرمك ربي !ما أكرمك قالها وهو يرفع يديه من فوق رأسه نحو

السماء، ثم كشف لها سر استغرابه بأن ضيق الوقت كان يخنقه ويجثم على صدره بثقل سرمدي، فدعا ربه أن يجعل له من يعينه في أداء ما تبقى من شروح حول هذا المكان..

- قالت في حديث النفس: حتى هذه يا عجوز جعلتها من ثمرات دعواتك، لا بأس ادع ما شئت، ثم صرحت بوضوح هنيئاً لك فقد أعفتك سعاد من التطواف بي داخل الصخرة، إلا إذا كنت تريد أن أفيدك بشيء تجهله وأنتهت باسمه في وجهه.

-فما زاد على أن هز رأسه وانطلق قائلاً: هناك محراب داوود_ عليه السلام_ وذاك مقام الأربعين مشيراً بيده إلى غرفة واسعة تقع بين مسجد عمر ومحراب زكريا، هناك في داخلها مقام حجري طغى عليه اللون الأخضر المزهر، ويقال إن فيه مدفنًا لأربعين من الصلاح أولياء الله، وقال آخرون إنه مدفن لأربعين من أنبياء الله ورسله...

هناك دار الخطابة التي كانت تخرج عديدًا من خطباء الأمة المصقعين المفوهين وهناك..وهناك...

ظل يطوف بها في رحاب الجمال، ويحدثها عن عجائبه العظام، ويقف بها على دقائق الأمور وتفاصيلها، ويؤكد تاريخًا ويشطب بالتصحيح تاريخًا آخر حتى أذن مؤذن الظهر فانتفض انتفاضة العصفور من القطر وكأنه كان في غفلة دامسة ثم قال: يداهمنا الوقت يا فاطمة وتنقرض الساعات كأنها لمحات بصر خاطفات، هيا

ارجعي إلى النسوة وبعد انقضاء الصلاة لا تنسي أن تلقمي لقمات ثم التقيني تحت الأقواس عند مثاب الدرج..

قضيت الصلاة فمالت عليها أمها هامسة:

- أين يغيب بك هذا العجوز؟

- في ملكوت البيت المقدس

-الحج إلى هذا المكان المقدس من أجل الثواب، والثواب لا يأتي من اللف والدوران الفاضي، بل بالصلاة والإكثار منها والتساييح والاستغفار

-صدقت أماه ولكننا يجب أن نتلمس الطريق إلى الجنة، ونخطو على أثرها، ونعطر ذاكرتنا بعبق الماضي الذي يرمس في خباياه السحيقة أمجاد العمالقة الأفذاذ وأثار حضارتهم العريقة..

-خليكي في كلامك الذي لا يسمن ولا يغني من أجر ولا ثواب ولا يقدمك من الجنة شهراً ولا ذراعاً

-إنك تضحكيني يا أمي !!

-اضحكي بنيتي ويا ليتك تضحكين يوم يبكي فيه الناس يوم لا ينفع الندم إلا من أتى الله بقلب سليم، قالتها وابنتها تنتصب واقفة ومودعة بجملة ملت من سماعها إني ذاهبة إلى جدي

- تعالي انتظري الطعام فما زلت على لحم بطنك.

- إني نذرت للرحمن صومًا يومي هذا_ قالت في نفسها- وهي تخرج
من باب المسجد.

في ظل البراق

وما لبثت أن خطت بها أقدامها، حتى رأت شيخها العجوز مقبلاً يتهاذى من بعيد، فأسرت إليه حتى وقفت بين يديه، فقال لها: اتبعيني فساقته قدماه هرولة وهي تركل الأرض من خلفه، فخرجا من باب المغاربة وتدرجا مع الطريق المنحدر برفق والتواء طفيف، وما هي إلا دقائق خمس حتى قال لها: هنا هنا في تلك الحلقة الحديدية ربط الرسول _صلى الله عليه وسلم_ البراق الذي أسرى به ومن ثم عرج به عليه إلى السماء، وعليه فقد سمي هذا الحائط بحائط البراق..

وقفت في انشدها عجيب وخطفتها لحظة غياب عن الوعي، ثم عادت إلى رشدها وراحت تتحسس الأرض من تحت قدميها في عملية مسح وتتبع لآثار النبي _عليه الصلاة والسلام_، وراحت تنقل قدميها برفق وبطء شديدين لعلها تصيب أثره الشريف، وتطأ حصة داستها رجله الشريفة، أو تعبقت برائحة ثيابه الزكية، ثم تقدمت حتى وضعت يدها الحانية على الحلقة الحديدية، وأخذت

تتلمسها وتخطبها بهمس، بأي حبة حظيت وبوركت أيتها الحديدية الصماء، وهل ما زلت تحملين في جزئياتك بقية من أثر فتحيني بها وتخصيني بها؟

لاحظ العجوز جنونها الرقيق وملاطفتها الشفيفة لتلك القطعة الحديدية، فعلم أنها دخلت في حالة اتصال روحاني، فانداح إلى جانب بعيد بعض الشيء؛ ليمنحها مساحة من الحرية والانتعاق من قيد الحياء الأنثوي الذي لا يحرمها من تفجير عواطفها وإحراق مشاعرها بسفور خارج حذرها.. وراح يرقبها بطرف خفي...

كانت تذرع المكان ذهابًا وإيابًا وهي تتمتم وتئن وترمي ببصرها نحو السماء، وبين الفينة والأخرى تجبه الحلقة وتغلق قبضتها من حولها، وكلما فعلت هذا اجتاحتها رعدة قوية واهتز رأسها كالقلة المتأرجحة، فيوجس العجوز خيفة عليها فيهم بالقيام إليها ثم يعرض عن هذا، وظلت على هذا الحال حتى أخذت أشعة الشمس تبرد وتتكسر على الجدران الشاهقات، فيعتربها الظل المنذر بالغروب، فقام العجوز من مقامه وتقدم إليها فنادها على مقربة فلم تسمعه، ثم نادها ثانية فلم تسمعه فنهرا بوخزة خفيفة أعادتها إلى دنياها فقالت عذراً جداه لقد سبحت بعيداً...

-لا عليك أعلم أين أخذك هذا المكان المقدس، إنها تحليقة روحانية في أثر النبوة الشريفة العارجة إلى السماء، لكنك لم تصل العصر وقد هبط الغروب إلى عتبة الأصيل وأنذر بالرحيل

- هذه الكلمة تصيبي بالغصة وتلطمني قسوتها وتحيل فرحي إلى نكد مفجع، إنها تصيبي بالغثيان وانقباض في نفسي حتى أشعر بها تتحشرج في حنجرتي التي تصير كسم الخياط

- الأمر لا بد منه يا فاطمة، وأنا على يقين بأنك ستزورين هذا المكان مجدداً..

- أُوحي أو رؤيا أراكها الله؟ أم إحياء أُوحي به إليك؟

- تبسم وهو يد يده إلى يدها، وقال: خذي بيدي... وقفلا راجعين إلى داخل الأسوار

وما هي إلا لحظات حتى كانا في حضرة الحجيج الذين تجمعوا في الميعاد الزماني والمكاني، لتبدأ رحلة العودة بعد صلاة الجمع والتقديم التي سيؤدونها بعد عشر دقائق عندما يحين موعد أذان المغرب.

انداحت عن الجمع وراحت تعبت ببصرها في رحاب المسجد وباحاته وساحاته، وتلقي النظرات الأخيرات على العمارة الهندسية الرائعة، وما أن وقع بصرها على القبة المذهبة، حتى وقع في نفسها أن تصرف كل ما تبقى لها من وقت على هذا الجمال المنسكب في هذه الدرة المكتوبة..

كانت صلاة خاشعة ختمت بدعاء باكٍ يفيض بالمشاعر وتحترق مع كلماته العواطف وتنذر الدمعات مداراة من عيون سيالة

بكاءة، وترتجف منه قلوب غسلت بماء القدسية، واعتبرتها رحمت سماوية، فعاشت على مدار يومين وليلة في حضرة الملكوت المقدس متنزهة من أرجاس الدنيا، ومنعتقة من طوق الحيوانية الذي يشدها إلى الطينية اللازبة حتى شعروا بأنهم أقرب إلى الملائكية منهم إلى البشرية، وأنهم من أهل السماء وجنانها ولا علاقة لهم بالدنيا وأرضها.. سلم الإمام عن اليمين وعن الشمال، والتفت إليهم قائلاً: تقبل الله طاعاتكم وغفر لنا ولكم، هيا شدوا الرحال فالحافلة تنتظرنا في كراج باب العامود..

صحوة ضمير

أربعة عقود عمر غفلتي بعمر جيل من أجيال البشرية، تُهت في مسارات الحياة المتعرجات وتعثرت في شعابها الكأداء، تلقفني الأيام بحمالاتها الزائفة، وتناقلتني فيما بينها عن دراية مني أو غير دراية، حتى آوت بي إلى أحضان دنيا مبرقة كل ما فيها إلى فناء، وتطارحتني السنون بين فصولها على غير هدى، فشابني تشويش فكري تسببت به صروف وملهمات مدلهمات، فبقيت أهيم فيها على عمى البصر والبصيرة حتى لطمتني ذكراه....

- مَنْ؟ سأل على عجالة بعد سماع افتتاحية تنذر بعودة أحدهم من الجحيم

- العجوز.. جدي العجوز.. قالت وقد ضغطت جبهتها بفكي السبابة والإبهام؛ لئسكن دواراً لئيمًا بدأ يضرب جدار جمجمتها الداخلي، فشعرت برأسها يتفجر... ثم أردفت بصوت فيه بعض التوجع: لا تؤاخذني إنه صداع خبيث ما فتى يتناوبني منذ ذاك اليوم الذي

رُمست فيه جثمانه الطاهر تحت أطباق الثرى، أطلقت زفرة من أعماق جوفها مُذيلة بآهٍ ممدودة حتى آخر نفسها، ثم عاودت القول بعد إصماتةً لم تطل: جثوت يومها عند شاهد القبر فبكيت وبكيت حتى شق الدمع سبله المتعرجات ونقش آثاره وتشويهااته في محياي الصبي، وما زلت أذرفه حتى جف نبعه وعقمت العينان، وأصابها شيء من البياض ورهل الجفنان، ونحل الجسد الغض وذبلت فروعه اليافاعات فصرت الفتاة الثكلى التي فقدت نصيرها في دنيا تخفق أزمعتها يبابًا ليس فيها ساكن، فتعودت الجأر إلى ربي شاكية باكية راجية أن يعوضني في مصيبي، ويخلفني خيرًا منها، ولمّا لم تسمع منه حسًا ولا همسًا... رمت إليه بنظرة من تحت طرف حيي، فرأته خاشعًا خشوع المتلقي من لدن عليم، فتابعت تقذف الكلم من أحشائها، كأنها جاءت على قدر لتلقي بأثقالها وأحمالها العلقمية المرة، ولم تشأ السكوت مطلقًا، وبعد هذه العقود المجحفة النكدة أراني سأجدد بكاءه والنحيب على أيامه ولياليه المكرمات، ثم ضربت بقبضتها ضربات متتاليات ما بين صدرها ونحرها، وهي تقول في عملية تأنيب وزجر: يا لك من جاحدة ناكرة للجميل، يا لك من بئسة كافرة للعشير، كيف استسلمت للنسيان وحملتك مراكب الغفلة بعيدًا عن ذكراه!

انتابه شيء من القلق عليها وقد دخلت في حالة من الهستيريا المفاجئة، وراحت تزفر الآهات الصارخات، وتلوك الحسرات وتدعو على نفسها بالثبور جزاء على ما فرطت في جنبه، فهياً نفسه لحدوث

كارثة «في حجرته الداكنة المتواضعة التي انتشرت في أحد جوانبها عدة كراسٍ خشبية، وفرشت مصطبها ببساطٍ بالٍ، والتي سقفتها ألواح من الصاج الذي لا يقي من قِرٍ ولا حَرٍ» وسلط عيونه عليها بانشداه بالغ، وفرش صوان أذنيه لكلماتها ولأنفاسها، وهو يفكر «بمآتي» الدقائق، ثم طرقة طارق الانبراء والتصدي للحوار، فحدد منطلقه وأعد سؤاله الأول وهو جهول بما سيفضي إليه من عواقب، لكنه عزم ثم توكل فتنحى كندير إعلان، ثم نطق سائلاً: من هذا العجوز الذي بكيته حتى جعل منك شبحاً بائساً يسير في الدنيا حيراناً يبحث بين فيافيها عن الموت الأخير؟

حوار استشفاف

-آه يا شيخي على مثله فلتبك النساء، إنه العجوز الذي أوصاني بك!
 -دارت حدقتا عينيه ثم ثبتها ورجمها بنظرة حائرة، وبعد تأتأة
 نجمت عن صفة المفاجأة وليس عن عي لسان أو لثغته قال بشيء
 من الاستغراب: أوصاك !! وهل عرفني حتى يوصي بي؟ ومماذا أوصاك؟
 - قد تكون نبوءة! وقد يكون عَرَكَك حقيقة !! الحاج محمود فما
 أن نطقت باسمه حتى خنقتها العبرات، ورجفت أوصالها من حُمي
 الذكرى التي حومت بها في أبطن الماضي العميقات، ثم أكدت اسمه
 بنوع من البيان النسبي

الحاج محمود النجار !! هل عرفته ؟

- أهو هو الحاج محمود الجبالي. قالها وترك فمه فاغراً حتى سمع
 صوتها يجيب..

هزت برأسها هزات بطيئات مصحوبات بدمعات حرات، فحاك في

صدرها أن يكفها عن البكاء لكنه أحجم ومنحها شيئاً من الخصوصية فنادى بوجهه عنها وهو يحدث نفسه ويعذر إليها، لو لم يكن عجوزها عزيزاً عليها، لما بكته كل هذه السنين العجاف.. لا أدري لعله كان صاحب دنياها وسراج فكرها ونجم هدايتها... وموته ترك لها دموع الأسى وذل التيه وانطفأ سراجها وخبا نجمها فباتت غريبة عن الدنيا وساكنيها، وما هي إلا سحابة وقت بددها صوته العائد من صمت مفتعل ليقول: نعم لقد عرفته منذ كنت طفلاً معرفة الأطفال لمن يكبرونهم سناً ومكانة وقدرًا

- مكانتك وقدرك أجل وأكرم شيخي

- أستغفر الله، ثم تابع قائلاً: ولما درجت شبلاً على عتبات السنين، التقيته مراراً في المساجد ولكنني زمنذاك لم أكن إلا أحمداً أقصد لم أكن شيخاً أو شخصاً ذا مكانة ليذكرني ويوصي بي !!

- إنه عليم استشفاف بنفسيات البشر وخبير فراسة بالرجال، فلعله تفرس بك وأنت تدرج على آجامك شبلاً ولعله الإيحاء السماوي ألهمه الإشارة إليك والوصاية بك...

-أطال النظر إليها وقال في نفسه إنها «أحكى من قرد» ولكن حديثها يشي بحكمة توشك أن تندفق من جوانب الكلم، وهناك هسيس فلسفة ما تحوم بين الكلمات المنذربات نتاج حصاد لسانها، ولما أراد أن يتيقن مما جال في صدره مكر لها قولاً فطرقها به قبل أن تطبق

فاها...أوحى من السماء بعد رسول الله محمد _ صلى الله عليه وسلم، ادعى النبوة فأمنت به !!

شعرت بشيء من استهتار القول فتجرعت مسامعها كلماته مغمسة برائحة غضب، كاد يذهب بحلمها لكنها سرعان ما تماكنت نفسها وهمست إلى ذاتها وتمتمت وهي ترد يدها إلى فمها _ كأنها تخفي حركة شفاهها_: لو لم يكن العجوز أوصاني بك لصفعتك قولاً أدار رأسك وجحم عقلك، لكني أعذر إليك فأني آمنت بوصيته وهو الذي لم يخطئ قط، وبما أنه قال فقله حق متبع، وبما أنه أوصى فوصيته نافذة ماضية حتى النهاية، ودون تفكير بالنتائج سحبت نفساً عميقاً وابتلغته حتى آخره فهدأت حفيظتها ثم ردت رداً جميلاً..

مات النبيون _عليهم صلوات الله وسلامه_ وبقيت مضامين رسالاتهم في خلف اصطفاهم الله؛ ليكونوا ورثتهم وحملة الرسالة من بعدهم؛ وليكونوا منارات للبشرية تهتدي بهم في أزمنة الضلال العسية، ويسيرون بها على صراط مستقيم سوي بعيداً عن سبل الشيطان المضيعة، وليكونوا رسلاً مخلصين لها من قيود العبودية، وتيه جاهلية جهلاء ما يلبث ينطفئ أوارها حتى تعود بقضها وقضيضها ترفل في عبادات الأبالسة والشياطين؛ لتطفئ النور الإلهي الذي أشرقت به ظلمات السموات والأرض، ولتلتهم حجج الصلاح والفلاح التي مسحت وجه الأرض، فتعيدها إلى جحيم إبليس وانحرافاتة، وقالت خاتمة القول: وأنت من هؤلاء المصطفين شيخي الجليل...

-أنا..أنا.. رد مستغربًا من قناعتها بما قالت

-حسب الوصية والنبوءة التي انطوت عليها... نعم أنت أحد الرسل
الذين يجوبون مضامير هذا الزمان، وتصديقًا لنبوءة العجوز منذ
وقع ذلك في صدري منذ دلفت قدمي عتبة بيتكم فقلت صدق
حدسه وصحت فراسته والله!!

-وكيف بذلك؟

-البساطة، قالت وهي تحوم في خواء الغرفة المنكسر ضوءها لشح
أصاب عنق السراج

- أي بساطة ؟ سأل وهو يتبع بصرها العابث في ثنايا الحجرة والمتبع
مصل السراج الخافت

-البساطة التي تعيشها

-وكيف لهذه البساطة أن تجعل من إنسان قعيد رسولاً !

-هي أصل النقاء النفسي والصفاء الروحي، وهي مهد الفطرة
السماوية التي تحتفظ بين لفائفها ببراءتها وسلامتها، فلا تعتورها
سفاهات الأفكار ووضاعتها، ولا تعلق بها شوائب المبادئ المنحرفة
وخرافاتهما، فقد علمت أن محمدًا الرسول _صلى الله عليه وسلم_
أوى إلى غار حراء في قمة جبل شاهق كاد يغرق في غمامات السحب
العابرة ومرتقيًا الأفق البعيد ليتلقى كلمات ربه الجليل، ولتولد

الفكرة في خلوة صفاء روعي بعيداً عن شوائب الأفكار المادية وأدران الدنيا المقيتة، قصير القول ووجيزه، العظماء يولدون على أرض البساطة ويعيشون في ظلال ريفها الدافق بالجمال الإلهي فيتشكون على عين الله بعيداً عن ضوضاء الحياة وازدحاماتها الخانقة شيخي الجليل..

- أرانا نتفرع في شعاب القول، وندخل آخره في أوله ونأتي على شيء من الهوامش ونغفل الكل المهم، بدا وكأنه يريد الهروب فيما قال منهيّاً

بفطنتها وبصيرتها أدركت هروبه، فتجاوزت له وماشته للخط الذي يريده من الحوار، وهي موقنة أنها ستعيده لا محالة إلى ما تريده هي، فهناك أساس الأمر ومناطه فقالت:

- إذن ما تقترح؟ ونزت بسمه وادعة خفيفة من بين شفيتها

«التقط البسمة فبادلها أختها وأحسن منها كأن حالهما يقول: يا لك من شيخ فطن ويا لك من امرأة لبقة!»

- أقترح أن تنبئني عن جوهر الوصية أو _تخير بأو_ ثم صمت هنيهة وقال متداركاً كمن يبحث عن الإشباع والارتواء من لذيذ الشيء وطيبه، أحبذ أن تحدثني أولاً عن ذاك العجوز محمود الذي استشرف الغيب من وراء أحجية السنين، ومن خلف أستار الأحداث ويجب أن تهتمني بالتفاصيل وجزئياتها، وألا تغفلي بصيصاً

من ماضي سيرته، وختم منهياً ما بدأ - لا تقلقي لن تجدي مني إلا
إصغاء متفانياً وقبولاً طيباً ورفضاً ليناً وتكريماً وإجلالاً لهذا الإنسان
الذي تجلينه وتوقرينه، وغاب صوته وبقي هسيس النفس يحدثه...
سيكون لحديث هذه المرأة حلاوة تتغذاها الذاكرة طويلاً، ومذاق
يشتهيهِ العقل وسرد ينسجم مع روعي ونفسي التائقة لبلاغة العرب
وسيرهم الشريفة، فلا بد بأني أجالس حكيمة زمان أو رسولة قوم
جاءت على قدر... ثم هجسه وسواس عابر إليه من نوافذ الأنفة
والكبرياء... فطأطأ رأسه وهو يحيك في صدره تأليلاً عليها وتحريضاً،
كيف تصدق قولاً دون تصفية وتمحيص؟ وهل تملك وقتاً لسماع
ترهات وفسفسات ما أنزل الله من سلطان !!

نهرَ وساوسه فالوقت ينزلق مسرعاً نحو الفناء، نفض رأسه وزمَّ
شفتيه، وراح يصغي إليها بكليته...

وقد قالت مفصحة عن حقيقة كركيزة أساسية «لا يجب إغفالها
أو المرور عليها دون إقرار منه: «عليك أن تعلم بادئ ذي بدء
أنني جئتك باحثة عن أمر ما، أو قل عن الحلقة المفقودة من
حلقات المسلسل الرسالتي الذي أنتجه العجوز، وبهذا فأنا من
هي بحاجتك ويجب ألا تساورك الشكوك بأني جئتك معلمة أو
موحية برسالة إليك هذا ما ورد في وصيته، فأنت ضالتي التي
دَرَعَت الزمان وصرفت العمر بحثاً عنها، وحرقت الليالي تفكيراً بها
وسبحت بأخيلتي الآفاق البعيدات، وأنا أرسم لك صورة ثم أمحوها
بصحوه قلقة، ثم أرسم أخرى فتحرقها فكرة واقعية أو منطلق أخرق،

وبقيت على هذا المنوال السئيم دواليك حتى هُديت إليك.. لكن بعد معارك ضاربات مع بأس هاجم غير مفارق ومع قلق نكد عشعش في جحور نفسي الظنونة ونفسي الدنيوية الشيطانية التي لا تفتأ تجرني إلى طينيتها اللازبة، وهديت إليك بعدما جردتني من نفسي الملائكية النورانية، وبتلك النفس الآثمة تهت في شعف الدنيا، وخضت صراعات عمياء وتحديات عبثية كنت دومًا الخاسرة بل الخاسرة الوحيدة»

- قال بشيء من الألم: وهل وجدتي على الهيئة التي رسمها خيالك، أم أن حالتي التي ترين صعقت أحلامك وأسقط في يدك؟

أخفضت رأسها وهي تزين حديثها بأهات باليات، ثم رفعته وشخصت بعيونها في سقف الحجر، وقالت: العظمة تكمن في العقول فهي التي تغير مجرى التاريخ، وتصيغ إطاره وترسم حدوده وما الأجسام إلا صور تكون حينًا مراتع اللذة وتارة تكون مراتع الديدان والفناء ولا يبقى منها إلا شبح طيف كالح، ثم إن الرجال الذين غيروا وجه التاريخ لم يصلوا إلى ذلك بصورهم وأجسامهم، إنما بعقولهم عوضًا عن أنك أنت من يملك المفتاح ثم انتصبت واقفة وأضافت قائلة دون إمهاله: استميحني عذرًا فقد أثقلت عليك حتى خلفنا الغروب في رحبات الليل ولكن عدني يومًا للقاء استثنائي..

وعلى غير عادته لم يفكر طويلًا، فقال: موعدنا الجمعة بين اللظى والزوال، ألق التحية وخرجت متلفة بثوب عفافها طارقة الباب،

ليمتزج دويه بدوامات الحيرة التي بدأت موجاتها تنفجر في رأسه،
وبعلامات السؤال التي تركت القوس مفتوحًا أمام عقله العاجز عن
الإجابات، وأمام بصيرته الفذة التي لم تسعفها مَلَكتها على تحليل
وتفتيت العقد التي حاكتها هذه المرأة القادمة من اللا معرفة واللا
قراءة.

اللغز

تركته في ذهول مضمّن أدخله في قمقم سهوم خافق لا منفس فيه
 إلا رجع الصدى لصوتها الملائكي الوثائق، وفي قعر القمقم السهومي
 راح يحدث نفسه بشيء من المواساة والاستتناس المفتاح... أملك
 المفتاح... المفتاح، المفتاح، وأي مفتاح يا بلهاء... آه لعلها تعني مفتاح
 العودة لكن هذا المفتاح معروض في المحافل الدولية ومنشور على
 شرفات التاريخ يراه الصغير والكبير والقريب والبعيد، لم يعد أمره
 سرّاً محبوباً في عنق الظلم السرمدي الذي تناول على أساس البدء
 الكوني، وطمس فطرة الحق السماوية.. لا، لا ومن ثم فآل النجار غير
 مهجرين، حتى تبحث عن عودة لا بد أن مقصدها ومرماها إلى غير
 هذا، ثم صمت مستريباً لكن بسمة رضى أشرفت في محياه الوضيء

فعاد يكلم ذاته متسائلاً أ جاءت هذه رسالة مبلغة !! أم معلمة
 هادية، أم تلميذة باحثة !! وأي تلميذة هذه التي تفيض الحكمة
 من منطقتها وتدفق جوانبها بالنور الإلهي، وتَعَبُّ بصيرتها من بصر
 الله وسمعه! أراها جاءت تسخر من شيخ قعيد وتحتقر كرسيه

العائر المهترئ، وبينا هوفي سهومه الشرود صدحت الله أكبر منادية في الآفاق جامعة لصلاة المغرب، فلبى المصلون زرافات وفرادى يتناسلون من بيوت «حي الصبرة» وأحيائه الضيقة، تدرج الكرسي بالشيخ يدفعه مرافقه برفق حتى دخلوا مسجد المجمع الإسلامي.

بوم وفكر

-أمي كنت قد وعدتني أن تروي قصة أعواد رافقتك منذ كنت طفلة تدرجين..قال محمد وهو يقتعد درجة تهبط بالبيت إلى فناء رحراح ظله وفير، تهفهف في فضائه نسائم لطيفات تعبقه بأريج أزاهير شجيرية نتأت من جوانب البراعم والفروع المدلاة من شجيرات اصطفن كحبات عقد هلالى انسجم شكله واتسق لونه

- قالت: إنك تنكأ الجروح يا محمد

- أقسمت عليكِ بالله أن تحدثيني أمرها

- هي رمز لحقيقة تسكن أحشاء التاريخ، وتشكل بداية الحكاية.. أرهف إليها أذنيه وصاخ سمعه كله وقد غشيته موجة ذهول أشخصت عينيه من جمال قولها وبلاغة لسانها، فتململ على مقعدته وكأنه يتوارى من حفيف النسائم ودغدغتها، ثم جعل من ساعده الأيمن وتدًا غرس مرفقه وسط فخده الأيمن ورسغه بكف منفتحة من تحت ذقنه وخشع خشوع الأوابين...ولما لم تسمع منه همساً

كردة فعل على ما افتتحت به أردفت قائلة: قال لي يوماً الماضي لا يموت إذا ما عاشه أناس الحاضر والذاكرة البشرية تحتاج إلى جلو وتجديد على الدوام ولا يجلوها ولا يجددها شيء أكثر من الصور المستحضرة من ألبوم الماضي العتيق، ولما قص عليّ حكاية يافا المشردة وبكى يومذاك حتى اخضلت لحيته ونحب صوته، وهويتذكر حضارتها وبيوتها وليمونها وبرتقالها وبحرها الذي أسره المحتل، كان يزفر الآهات والأوجاع بعدما أناخ وجهه عن وجهي، ويممه شطر يافا البعيدة وبراءة الطفولة وجدت نفسي صبيحة اليوم الذي عقب رحلتنا تلك، أجمع بعض أعواد البرتقال اليابسات واعتدت إخفاءها في ماسورة حديد اسطوانية، وظللت أتعاهدتها حتى كشف أمري وعلم سري فأمرني بغرسها في التراب وهو يعلم يقيناً أنها لا تدفق فيها ولا روح.. ولكنه كان يعلم أنها أحد أجزاء الرسالة

-أمي: كان طفلي قد أغراني وجمع علي جراءة مكنتني من سؤالك، لكن جوابك لي أدخلني في كهف أراني حبيسه ولا نجاة ولا خلاص فمن هذا الذي قال لك؟ وما هي الرسالة؟ والتاريخ بماضيه وحاضره ورمزيته وصوره، كلمات ثقيلات بليغات لجرسها اللغوي قدرة عجيبة على هز الذاكرة، وإشعال لبابة القلب تحت صدر خفوق..

- إنه جد أمك محمود النجار_رحمة الله عليه_ هومن غرس جذور الماضي العريقات في حشاي قلبي، فأراني يافا عروس البحر في عيونه التائقتين لعناقها، وهومن داراني على فعلي الطفولي وأقر صنيعي مع قليل من التوجيه، وكأنه يؤكد لي أن تلك العراجين اليابسات هي من

سلالة البرتقال اليفاعي، وأن اختياري لها كصورة من الماضي كفيّل أن يبقى ذاكري حية متقدّمة... أردفت _وقد التفتت إليه بنظرة حانية_ وقالت: لا تأمل أن أجيبك على كل ما تسألُه، لم يشاطرها الحديث رداً واكتفى بهزات خفيفات بطيئات من رأسه، أكدت موافقته على ما قالت....

ثم تابعت قائلة _وقد رأت لهفته إلى سماع المزيد_:

القضية ولدي لا تكمن في الأعواد نفسها إنما ما قبل الأعواد وما بعدها، قبلها تاريخ ومن بعدها تاريخ، وهناك وعاء اسمه الذاكرة يحمل هذا التاريخ ويحفظه، وما الأعواد إلا صورة في الذاكرة لمن أراد أن يذكر، ومن أبجديات كل محتل ومن أولى سياساته أن يضرب ذاكرة محتليه في صميمها، ويجفف مخزونها التاريخي فيحيلها إلى خواء وفراغ لا متناهٍ، ويحدث في جدرانها تصدعات وتشققات تجعلها تنزف على الدوام، ويحاول محاصرتها فيجعلها تحوم في فلك منحصر، في حدود ضيقة رسم خريطتها الجغرافية والسياسية بإحكام دقيق وفي دوائر مفرغة ومغلقة لا تفضي إلى شيء...

كانت تقرض الكلام وتحاول أن تنسج منه «فكرة» أن يتجلى الماضي في عين الحاضر ويسكن خاصرته، وتحاول العودة بذاكرة الشعب إلى أصل القضية وجذورها، بعدما اختزلها المحتل في محور ما بعد عام 1967 الخط الذي شطر فلسطين إلى شطرين غير متساويين لا في طول ولا في عرض ولا متشابهين في جغرافيا ولا في ديمغرافيا،

خط قال عنه الاحتلال إنه الحبل الإلهي الذي رسمه إلههم «يهوة» لوطنهم القومي المصغر، وليكون فاصلاً بين شعبهم المختار وبين من يجاورهم من شعوب خدمية ومستعبدة لتلمودهم بالفطرة حتى يمن عليهم إلههم، ويمكنهم من أرض الميعاد المزعوم، خط جغرفه الاحتلال في تضاريس الخارطة الفلسطينية واستطاع من خلال تسلط القوة وخديعة السياسة ومكرها والالتفاف على الحقائق، أن يقنع العقل العربي ومن ثم العقل الدولي أن الصراع الفلسطيني اليهودي هو عبارة عن صراع حدود، ويتمحور حول بقعة جغرافية واقعة ما بين خط 67 (الخط الإلهي) وبين الشاطئ الغربي لنهر الإله الأعظم (نهر الأردن)... ثم تابعت قائلة _ وهي تركب رجلها اليسرى على اليمنى _ اليوم أدرك إقراره الصنعي، وبت أفهم ما استشرف من غيب الأيام زمنذاك، وكأنه أرادني أن أعيد ذاكرة شعبي في أصل الحكاية، حيث يافا واللد ورملة الساحل وحيفا الكرمل وتل الربيع وأم الرشراش وصفد والجورة وكل الساحل... أسماء متلاصقة كأنها وصلة موسيقية لا نشاز فيها.. اليوم فقط أدرك أن من واجبي قولبة ذاكرة الشعب وصلها من جديد؛ حتى تعيش ثلاثيتها «الماضي، الحاضر، المستقبل (أرجل الوجود الثلاث)، التي إن بتر أوفقد إحداها اختل وجود أي شيء وتاهت ذاكرته وتعثرت...

أدرك اليوم أن من واجبي قلب المحاور وإخراج الذاكرة من الدوائر المصطنعة، والإفضاء بها إلى أصل التاريخ العريق وإلى جذر الماضي الأجدادي والآبائي السحيق، فنحن ييوس فلسطين وكنعانيوها نحن

ورثة أنبياء السماء وخلفاؤهم في الأرض، نحن من يحرس عقيدة السماء من التحريف ومن يحمي أرض الأنبياء ومقدساتها من الاغتصاب، فيجب أن نوثق حاضر ذاكرتنا بأزمة بعيدة منسية.

فرسا رهان

كانت أرياح الجمعة خماسينية لافحة، وجوُّها مغبراً معلماً بيوم نكد فقال لنفسه هامساً.. وكأني أراها منكودة من هذا اليوم السقيم نهاره المكفهر سماؤه فمخلفة لقاءنا على مضض وسؤم، لكنه عاود قائلاً: إن أمثالها لا يخلفون وعودهم لأنها من زعمت أي ضالتها وأن حاجتها عندي، ومن ثم سأل: لماذا يساورني القلق من مجيئها أو عدم مجيئها؟ فأجابه صوت دقيق من أعماق روحه، لقد استطاعت هذه المرأة أن تسيطر على عقلك وكيانك بحكايتها الغامضة ما بين الافتراء والإثبات وما بين التصديق والتكذيب وليس هناك من مخرج إلا إمضاء ما بدأ حتى النهاية.. وبينما هويحوم في خواء الحيرة والتشتت الذهني، استأذنته زوجه بالدخول وفي صحبتها فاطمة المرأة.. ألقىتا التحية وانطلقت قائلة_ وهي تريح عجزيتها على فرشاة قطنية جمعت معنى التواضع وصوره_:

-لدى رجل لوأراد إثراء نفسه وغناها، لفعل ذلك بهين مسعى وجهد قليل، كان يومي ملول فأسأل الله ألا يكون حديثي على شاكلته

_ لا عليك فكل كلام مشفوع بذكر الله، لا يمل ولا يسأم

_ كنت قد ملّمت من محجريك لحظة وداعك يومذاك بعض النظرات الكسيرات، وهي تنزلق من شقوقها ورأيت وسواساً يحفر في رأسك بشيء من الضلال، وبهذي في محضن مسمعك بأني جنّت ساخرة محتقرة لحال دنياك، ، وسأعذر لك وأعتذر إليك... فأفراط صراحتي ووضوح سيرتي منذ لقائنا الأول منح الشيطان ثغرة التدخل المذموم، لكنني أؤكد لك.. وقالت _وقد دعمت صوتها بنبرة علواً أخرى أن الربانيين يلبسون ثياب التواضع قولاً وعملاً: فمن تواضع لله رفعه الله، ومن تواضع للناس سادهم وملك قلوبهم، ومن ثم على من يملك المفتاح أن يشابهك حالاً ومقاماً

-وقبل أن تنفتق شفتاه عن صفير الكلمات همس في جوفه العميق، يا لها من شيطانة ماردة، أنى لها دراية بما حاك في خَلدي ساعتذاك ويا لها من مخادعة حاذقة، قادرة على الإغصاب والإرضاء في آن واحد، ثم قال وقد عزم استفزازها: إنك تهذين وتضربين في مروج التيه عرضاً وطولاً بدون دليل، واختراعك حكاية المفتاح ما هي إلا من مظمطة الخيال وسرحات الفكر المشمتت

تبسمت وشيء من الألم قد اعتصرها فكابدته بتهنيدة نارية وكابرتة بصورة من صور الأنفة والكبرياء الرصين، عندما أطلقت ثلاثة استغفارات متتابعة، عكست على نفسيتها وعلى المكان روحانية دافئة، ثم تجرعت نفساً عميقاً بدد سحابة الغضب التي أظلت

محيها ثم قالت _وقد تماكنت جأشها_: أتراني صهرت السنين
وصرفت أيامها ممتطية حسان الأمل، أطرده في عقبك وأعلمه إرادة
قاهرة وتصميمًا مُسهّمًا أشربتها خصلتي التسديد والتقدم نحو هدف
دون مواردٍ أو انتكاس، وتراني قد ردمت حفر اليأس وحطمت
حواجز القنوط وقهرت وساوس الأبالسة في سبيل لقياك من أجل
هذيان جنوني باضته شياطين الأخيلة والأمانى في رحم عقلي فجئت
أفقسه في حضرتك أولأجل هذر جيشته الأضاليل في جمجمتي ثم
جئت أبذره في أتلمة بساطك المكرمّ شيخي الجليل _أنهت وهي
تبتلع ريقها وتزُمُّ شفيتها_ أنت من يملك المفتاح ومن ستبدأ من
عنده بداية النهاية.

نهاية حكيم

-إذن هي أحجية قال_وهو يشعر بشيء من الخجل الكريم قد أدرك مصابها من قسوة كلمته_: علي معرفة تفاصيلها حتى نهتدي إلى سواء السبيل فإن صحت البداية سلمت النهاية...

ارتشفت جرعة شاي مطعم بالمرمية ومعبق برائحة حريق الأعواد، كانت زوجه قد أحضرته اللحظة ضيافة قبل أن تجلس صامتة مؤانسة، ثم قالت: انحدرت الحافلة في متعرجات باب الواد الملثوية بين الجبال الغربية بمدينة القدس، قافلة بنا من رحلة حجيج قدسية كانت هي الأولى في حياتي الفتية، ولما استلمت عجلاتها السهل المنبسط عند أسفل الجبال ليمهد لبداية سهوب ممتدة حتى ساحل البحر، رأيتَه يضغط رأسه بشدة في مسند الكرسي الحديدي من أمامه وسمعت تأوهاتَه الموحيات بحزن هاجم لا راد له، فسألت_وقد صفعني قلق مر_

-ما بك جداه؟ ألمَّ بك خطب؟

_ أجاب بصوت شاحب، إنها الحمى يا فاطمة، قاتل الله الحمى
أظنها قاضية عليّ لا محالة

_ لا بأس عليك جدّي أظنه الإعياء والتعب، فقد مشينا على الحمى
طوال يومين، وغمامة ليلية بائدة ولم تنم إلا يسيراً

_ الحمى أول الموت بنيتي

_ العمر الطويل جداه

_ لقد أكلت الشيخوخة العمر طويلاً وعرضاً، فكفي بلهاً واستغناء
فالأجال بيد باربيها، ثم تلا قول الله عز وجل «فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ
لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ»⁽²⁸⁾ وأضاف تالياً بترنم رخم:
«كُلُّ نَفْسٍ ذَا نَفْسٍ الْمَوْتِ»⁽²⁹⁾، ثم التفت إليّ قائلاً قد دنت ساعتني
وكأني بملك الموت يهبط على بساط النهاية..

_ انقباض متلف تغشى قلبي ولم أتمالك أجفاني فانهمرت دموعي
منسالة دون توقف، فشعر بي عندها فأخذني بين ذراعيه في ضمة
أبوية لم أضمها يوماً، فشعرت أن بين صدري وصدرة قام أنبوب
لولبي يسري بداخله تيار كهربائي يفرغ ما تبقى من طاقة حياة في
صدرة إلى صدري، ويمتص كل بقايا ومخلفات تجربة حياته المديدة،

(28) قرآن كريم، سورة الأعراف: آية 34

(29) قرآن كريم، سورة آل عمران: آية 185

فيسقيها روحي وعقلي، ثم همس في مسمعي:

لا تبكي بنيتي ولا تبعثري دمعاتك الغاليات على عجز أفل زمانه
وغابت شمسه وحرقت عوده، فلن تحمد الديدان بقاءه، ولن يأنس
التراب بضمه، وراح يسكب في رأسي من القول الحكيم ومن المعرفة
الجمّة دون توقف أو تباطؤ، حتى أنه كان يخنق أنفاسه ليكمل
الجميل، ويكأنه دخل في سباق محموم مع الموت عند عتبات الدنيا
الأخيرة، فطويت الأرض وتضاءلت المسافات وفنيت ساعات النهار
وصهرت دقائقه..

فما وعينا إلا والحجيج يترجلون فانتصبنا من مقعدنا فاتخذ من
كتفي الأيمن متكأً، فهبطنا سلم الحافلة واستلمت أقدامنا الإسفلت
المتآكل من جوانبه وتقدمنا نتهادي بخطوات خرسات وأمي من
ورائنا تولول كأنها تستحضر الموت وتستقدمه فما أن دلفنا باب
دارنا حتى خر جاثياً، فتصايح المنتظرون ولجوا بالعويل على غير
هدى، فتقدم والدي نحوه ثم أسنده على جذعه وقد انعقد لسانه
على قوله «الله اللطيف الله اللطيف» وأوى به إلى
ركن السقيفة، وأنا أشيعهم حتى جلسنا متحلقين من حوله، وقد
صار وسطنا على فراشه الرث فرماني بنظرة تقول: ادني مني، اقتربي،
شعرت ساعتذاك أنه لا يريد أن يكلم أحداً غيري وأظن أن من
كان هناك فهم ما فهمت، وحسدني على هذه الحبة الأخيرة التي
يكرمني ويخصني بها جدي، وهويقارع الموت ويدافع الحشرة التي
ببقايا حياة يائسة، فتقدمت إلى المكان الذي أفسحه لي والدي،

فجلست منه مجلس الروح من الجسد وصار رأسه الشريفة في
حجري، ثم أدنيت منه رأسي حتى التصق وجهانا، فأحسست بالنار
المستعرة من تحت شعاره تقعات لحمه وعظمه...

فبش في وجهي ثم همس بنفسين لا ثالث لهما في الأول سمعته
يوصيني بالأأنسى الوصية، وفي الثاني سمعته ذوا والشهادتان تتلى
على شفثيه...

-رحمة الله عليه.. وغفر لنا وله قال الشيخ_وهويتشج الصدر،
ثم أعقبته زوجه بترحات متواليات على روح العجوز، وأنهت قائلة
بشيء من القرآن الكريم «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ
ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»⁽³⁰⁾

-أراني ضيفًا ثقيلًا جاء..

-لم يمهلهما تكمل فقاطعهما بحدة ناهرة زاجرة: لا تعودي لمثل هذا
القول أبدًا!! ثم تلطف قولًا: أنت لست ضيفًا، بل منا وفينا والبيت
بيتك يا أم محمد

-جزاكم الله كل خير، قالت_وهي تكفكف دمعات حرات قذفتها
حمى الذكرى_: لكن قصتي طويلة بعيدة مترامية الجوانب شاسعة
المساحات

- نحن في شوق محرق وتوق ملهب لسماع قصتك، ثم أضاف قائلاً:
أصدقك القول إنني بت أحب هذا العجوز الولي وأعشق سيرته
فبالله عليك لا تبخلي وجودي جواد الطائي على ابن السبيل المعوز،
وتكرمي كرم السماء بماء منهمر على أرض جفاف

-انقضت أيام العزاء الثلاثة، وبدأت أيام حدادي الدهرية، فظلتُ
ألتحف السواد في قلبي وعلى جسدي وأغيب عن الأعين ما
استطعت إلى ذلك سيلاً، وأهرب من لحاح أُمي وتطفلاتها البريئة
اللامتناهية... فهي حنون رؤوم ليست بالداهية ولا بالخبيثة، وكنت
أوي إلى أعوادي المغروسة في جرة تراب حسب وصيته وإرشاداته بين
الفينة والفينة

_ راودته نفسه سؤالها عن تلك الأعواد لكنه آثر الصمت وتركها
منطلقة محلقة في رحاب الذكريات، ثم زجر شيطانه العجول، وردع
نفسه عن اقتحاماتها المفاجئة وقال ما بينه وبين صدره: أنصت
خاشعاً، كانت هي تتابع قائلة: لقد تعودت الجلوس عند فم البحر
الذي كان يتلح قاربنا الصغير في غدواتنا الصباحية، ويقذفه عند
روحاتنا المسائية بعد كل رحلة صيد أو رحلة اسكتشاف، وصرت
أتحسس حبات الرمل الشاطئية، وأفتش بين أسرابها عن أثره
ورائحته، وأرمي ببصري بعيداً على وجه البحر الساجي، وأقذف
بأخيلتي في بطون الأمواج المتراكمة؛ لتسافر في مساحات الذاكرة
الرحراحة فتقف عند سكناته وحركاته وهمساته وصرخاته وغضباته
ورضاءاته وتجليات حكمه، وعظاته التي صنعت مخيلتي ونسجت

أثاث عقلي، ومع انقلاب الأيام في عجيزة الماضي، تكاثف مقتني
لنفسي وكرهي لوجودي الذي لا معنى له ولا غاية منه، وطفقت
أخصف على حالي من الهموم ما يقتل في كل بقية من حياة ومن
ألوان الشرود وسرابيله، ما يجعلني أهيم على وجهي الشحوب في
سراذيب الخواء الفكري، وأغرق بشبحي المتهاوي في أودية اللامبالاة
الوعرة السحيقة.

زواج خاطف

حتى عدت ذات يوم إلى البيت، من رحلة عذاب مشيت فيها خببًا على ممرات الذاكرة المتحصية حتى أعيتني وهدمت قواي، فوجدته يـُـوج ويروج بضيواف لا معرفة لي بهم، فتناولتني أمي على عجل وأدخلتني غرفة المطبخ_ كأنها قصدت أن يفنى صدى كلماتها بين الأواني الصدئة وتلتاكه أسراب البكتيريا السابحة في بقايا الطعام_ فلا يسمعها أحد، ثم قالت وهي تحمل صدرها بساعديها الملتفين على بعضهما وسحنتها تنذر بقهقهة آتية من محراب الفرح والرضى: مبروك مبروك يا فاطمة... لقد خطبك أبوك اليوم!

فوجمت نفسي ساعتها وتلعثم لساني ولم أسعف النفس ببنت شفة، ولما رأَت وجومي وتجهم وجهي، ربتت على كتفي وأحضنت خدي كفها الخشن، وأردفت قائلة بشيء من الفكاهة: هكذا هن العذارى يتمنعن وهن راغبات، ويسكتن سكوت الخجلات الراضيات، ثم كررت التبريكات مرارًا وختمت وهي تنيح وجهها إلى ناحية الباب «والله إنوزينة الرجال»... وما لبثت أن غابت لتتركني في حالة لا

أحسد عليها، ولا أدري أأطلقت على صدري رصاصة الرحمة يومها، أم أنها ساقَت إلي غمامة رحيمة على ظهر قارب نجاه يسبح في سبيل الهداية، ويفيض بالنور السماوي ليخرجني من ظلمات تلبستني طبقاً عن طبق... لا أدري، لا أدري يومها شيئاً، فألقيت الأمر من خلفي ورجعت أفكر في زينة الرجال هذا، فمن يكون؟ وهل يوجد رجال بعد الفقيد المرحوم؟ هكذا ببساطة أصبحت مخطوبة بين طرفة عين وانتباهتها !!

كيف تسير هذه الحياة؟ ومن يحدد أبجدياتها ويصوغها ويمحو ويثبت ما يشاء؟ ومن هذا الذي يزوج ويطلق ويحيي ويميت؟ ومن هذا الذي يرسم للآخرين أشكال دنياهم ويخط دروبها باسم العادة والعرف؟ هكذا!!! ببساطة متناهية بكلمة واحدة خطبني زينة الرجال! فقالوا للأمر كن فكان؟ وهل دروا مقادير الزينة وفقهوا مقاييس الجمال الحقيقية!!! لكن أي زينة يعنون؟ أهى زينة القوالب والأجسام أم زينة العقول وجمال الأفهام «فالله لا ينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» هكذا قال معلمنا الأول محمد _صلى الله عليه وسلم_، وكيف دروا أني أريد هذا النوع من الرجال أو أعشق ذلك النوع؟

أسئلة هوجاء راحت تصفعني بحدتها و صفاقتها ولا أملك ردّاً لها، فأنا الضعيفة التي تغول على ضعفها العرف، وترصدتها العادة في خبايا الأيام، فاستسلمت لجهل آمد يتغذى على عُرف مفترى دون رقيب أو عتيد فقلت وأنا الضعيفة المسكينة بعدما صرخت عيناى في

السماء وذراعي احتضنا الأفق، وتكلم قلبي العميق إلى ربه بخشوع دامع: «اللهم تولني برحمتك، واكفني بعنايتك وهبني زوجًا ذا دين وخلق، وأترب يداي بمن يفهم مقاصدي من الحياة، ليعينني على أداء رسالة جعلتها أنت في عنقي اللهم آمين» فأمن الشيخ وزوجه كأنهما ينهيان صلاة تضرع _ طال دعاؤها وابتهاها _ فانتبهت إلى ذاتيهما العائدتين من غيبة تلقى روحانية أوامته من عقد سحرية طال نفثها، فأمنا بتلقائية رقيقة، فما أن زادت على أن قالت: إني امرأة غلول

-قال الشيخ: إنما أنت امرأة تبحث في حلاوة ماضيها عن نقطة انطلاق جديدة على درب الهداية العامة

- أما زوجه فقالت _ وهي تلملم الكوؤس الفارغات وتصفها على صينية بلاستيكية_: إن لحديثك أشجانًا مولعة، إن بقصتك اعتلاجات أحسبها تغلي بقلبك في أتون قدر راسية ليس لها قرار.

روح القرآن

-أراك تتهللين ضياءً وخيوط النور تنبعث من محياك أماه

-أهلاً بنيتي أهلاً بك... تقدمت أم رمضان نحوها بخطوات خفرة،
وقد انعقد بصرها في المحيا الدافق بموجات نورانية كأنها رؤوس
الذهب، فألقت التحية على أمها عناقاً_ قبل أن تجالسها بساطاً يميناً
عتيقاً افترضته عند خاصرة البيت ليكون في مصب الشمس المذيعة
بيوم صائف استضافه شتاء شائخ أنذرت أيامه بالمغيب_ ثم زادت
قائلة: _وما زالت عيناها تحوم في الوجه المضيء_: وجهك ساطع
كأنه الشمس المستحمة في عين الصبح الندي

-إنك تبالغين يا أم رمضان، ثم من أين تعلمت الفصاحة والبيان؟

-لا والله ما نطقت إلا ما تراءى لي، ويكأنني بحبات در تتحدر من
جبينك وما رؤوس وجناتك إلا لفائف ورد احتقرت حمرتها حتى
تعشق منها العطر واللون، وأنهت بمزاح حذر فاشتتها أعين وأنفس
وأنى لها، فأبي كلما تقدم به شحذ سيف الغيرة من جديد

- وكزتها في ذراعها والبسمة تغلبها، ثم قالت: إنك تتجربئين دون حذر
- لا عليك أماه لكنك تبدين على أحسن وجه فما الخطب؟
- لا خطوب !! إنما هي بقايا من فيض النور الإلهي الذي يغمرني به كلما استضافني في رحاب حضرته المقدسة..

شخصت عينا أم رمضان وثغر فوها، ولم تجرؤ اتهاماً بالمس أو الخبل _ لأنها تشاهد دليلاً بيناً على أمر خارج عن العادة وعلى حقيقة حال أمها الذي تغبط عليه، فاكثفت بابتسامة ندفتها سخريتها المتجانبنة من طرف شدقها ما لبثت أن محتها نظرة خاطفة من عين الأم الشفوقة التي تابعت تقول _ غير مكترثة بما يحور في صدر ابنتها :- إنه القرآن كلام الله المقدس الذي يحيي القلوب المائتة، وينير قتامة الوجوه ويزيل عثارها، هوشفاء الروح وبراء الجسد، ثم تابعت تنسل الكلم على نحور قيق بليخ، وقد انقطعت عن الوجود وصارت خارج المكان والزمان، فإني أقرأه (القرآن) حين أقرأه لأكلم ربي _ جل جلاله _ وليكلمني ربي _ جل جلاله _ يغوص بي في عوالم الروحانيات الشفيفة، فأقطع عن الحالة وما حولها وعن المادة وجزئياتها، ثم يرتقي بي سلام الغيب البعيدة، وتنقلني موسيقاه السماوية إلى الذروة، فأشعر وكأني «وأنا كذلك حقيقة» طائر جناحي بجناحي نور وحوصلة من رضى إلهي جليل، يحلق في فضاءات متباعدة المداءات عابرة الطباق السبع من السماوات مختزقة مثلهن من أطباق الأرض... أحلق وأحلق وحين أحط..

أحط عند عتبة الإله المقدس الذي يكلمني براءة⁽³¹⁾ وعطف،
فما أشهاني لكلامه وما أعشقني لقوله «يا عبادي»... إنها ملاطفة
ربانية تسلخني من طينيتي وطبعي الإنسي، وتقده شعلة الروح
الإلهية الكامنة تحت ركام النفس ورمادها، فتحيلني ملائكية تسبح
في أفلاك الكرسي العرشي، وتدور في مداراته بنفس مطمئنة راضية
مرضية كأني أعود إلى مهدي الأزلي

وبينما هن ينتنغن مع رصين القول، وحالهن تتجلى سامية طلع
عليهن محمد من خلف حجاب الباب الرئيس للبيت، فحيى
بفكاهية لطيفة :- السلام على الأم الحنون والأخت الدول

ولم يهلهن جوابًا، فسأل مستفسرًا! أسر يبرم في خلوة مشمسة؟
أم هو حديث نسوة أغراهن صبح صائف بدفته فجلسن يتجاذبن
أطايب اللغة بديعها وبلاغتها وحسن معانيها؟

-اجلس بني ولا تكثر من اللقلقة وشدته من عطفه إليها وسألت ما
الذي جاء بك؟ ألك حاجة؟! أم الاشتياق إلى أم أمطاها العمر ظهر
الغروب الأبدي...

لم يفقه قولها ولا ما رمت إليه من وراء كلماتها وقد عهد بلاغة
لسانها وعمق مقاصدها، فقال ما انبعث في صدره من غير تردد، بل
هوالتوق إلى معرفة ما أجهل عن أمي الرسولية!!!

رتمه أخته بنظرة استياء فاضح، وقد حسبته يسخر من أمهما وقبل أن ترجمه ردًا يقطع لسانه «المتحذلق» المتطاول على مكانة أمها المقدسة في نفسها...تدخلت أمها مجيبة بشيء من التحلم والتلطف: كلنا رسل يا محمد !!! فالله لم يخلقنا هملاً لنترع في دنيا مديدة نصيب من حشاشها ورعاعها ما عمرنا، ثم نذوي إلى غياب سرمدى لا انبعث من بعده، إنما خلقنا لنؤدي رسالة أنيطت بنا وجُعلت في أعناقنا ولا خلاص لنا منها ولا فكاك، فقد أعطى أبونا الأول آدم ميثاقه على ذلك «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا»⁽³²⁾

ومعنى ألا نشرك: أن تكون العبادة خالصة لله «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»⁽³³⁾، وجوهر العبادة وأصلها أن تؤدي ما تؤمر به من الله _عز وجل_، وقد أمرنا أن نطوع هذا الكون بأشياءه المرئية واللامرئية (منها عالم الجن)، والأشياء الملموسة وغير الملموسة (منها النفس والروح) لطاعته وعبادته والامتثال لأوامره واجتناب ما نهى عنه

فالناس يولدون ليعبروا هذا الممر البادئ من مهد الخليقة والمنتهي عند لحد الآخرة، يعبرونه بكل ما فيه من شهوات ومكاره، ليفضي بهم إما إلى جنة عرضها السماوات والأرض، أعدت للمتقين وإما إلى

(32) قرآن كريم، سورة الأعراف: آية 172

(33) قرآن كريم، سورة الذاريات: آية 56

نار بسبعة أبواب يقدح أوارها منذ الأزل، طعامه الناس والحجر تسعرت ثلاثة آلاف من الأعوام حتى حرق بياضها، فاحمرت ومن ثم حرقت حرمتها حتى اسودت فهي سوداء مظلمة لا يرى لهيبها.

ورسولنا محمد _ صلى الله عليه وسلم _ يقول في الحديث المتفق عليه: «النار حجبت بالشهوات» أي أحيطت، «والجنة حجبت بالمكاره»، والناس تلهث وراء مصائرها وكلُّ صائر إلى مصيره، فمن فطن لأمانة الرسالة التي في عنقه وأداها فقد فاز وزحزح عن النار وأدخل الجنة، ومن غفل وضل لقي جزاءه والعياذ بالله... ويا بني ما أنا إلا امرأة من هذه البشرية المتوالدة عبر الأزمنة غير أنني حُفيت بجد أوتي الحكمة «وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا»⁽³⁴⁾ فألقى على كاهلي حملاً قبل مماته، وقد ظنُّ أني كفوَّة لهذا..

كانت الابنة تصغي بانتباه، ولا يرف لها طرف ولا يغمض لها جفن غير أن صدرها كان يضرمُّ وعقلها تأكله استفهامات جهولة.. تخبطه أحياناً فيقربُ الفهم.. فيثبت، وتطرقة أخرى فيبَّعد الفهم فينفي ويشك بكل ما يسمع..

قال محمد: لقد كان جدك ملهماً الحكمة مرشداً الطريقة وعلى هذا يكون أحد المجددين

ذهبت تتمشى على شواطئ الذكريات... فلما رأته منهنما توقاً لزيادة

معرفة وشوقاً، لاكتشاف جوانب من حياة ذلك العجوز قالت:

لم أفهم توجيهاته زمنذاك، وكنت عاجزة عن قراءة ما وراء كلماته لمحدودية عقلي الناهد على درجات العمر الأولى، ولكن معضلات الأيام وتصاريف زمانها واحتكاكات البشر وتدافعهم وتنوع أفهامهم وتشكلها وانبعاجها واندثارها وتكاثر الأيام على كتفي، حتى باضت التجربة وفقست العبرة والحكمة في عقلي حتى وزن واتزن، فصرت من القدرة العقلية بمكان يؤهلني تمحيص الأمور وتشخيصها ويسعفني فهم الماضي، فأستشف من ترايبه أسرار الحاضر الذي يستشرف لي معطيات المستقبل ولا أخفيكم قولاً: فالحياة الفاعلة تحتاج إلى إرادة متقدة وإلى هممة «طاقة» مطردة فهما المادتان المشكلتان للوقود الأساس لمشوار الحياة الفاعلة، وتعتبران الدولاب الذي تسير به مركبة الفكرة على طريق الحياه باتجاه الهدف فإن عثرت الدواليب أو عطب أحدها انتكست الفكرة وضربت في صميمها، وبعد الهدف وأنا أحرص كل الحرص على أن تبقى طاقتي مشحونة، فلذلك تروني أمارس نشاطات قد تبدو في عيون البعض حقيرة صغيرة، إلا أنها في حقيقة الأمر كبيرة، وبدونها سيسكن العقل وتفتر الهممة ويتعود الجسد الخمول والعقل على العقم، فتهوي به الأوقات الفارغة إلى قرار سحيق مظلم

- انبرى محمد للحديث_وقد رأى غمامة استياء تمسح وجه أمه_ فقال: لقد عهدناك منذ صغرنا وأنت تدرسين الأيام بفعالك وتحرقين ساعاتها في سبيل الله والوطن، وإن لك في كل ميدان صولة، وفي كل

ساحة شاهد، وما غزوة بيت حانون عنا ببعيد⁽³⁵⁾

- من يحتقر جهادك ويقزّمه أماه فإنه حاسد بغيض لا أكثر فكل النسوة حتى الرجال يغبطونك على ما تقومين به ونحن نفخر ونعتز بصنيعك ونغبطك على تفانيك في سبيل الفكرة، وهكذا هم العظماء ينكرون ويحسدون وكلما نجحوا ازدادوا عداوة وصدًا..

-قالت_وقد عاودها حبور حذر على محياها_: الرسالة تحتاج إلى خيل مسرّجة على الدوام، وإلى وقود لا ينفد، والرسول محمد _صلى الله عليه وسلم_ يقول: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي كتاب الله وسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي فعضوا عليها بالنواجذ» وأنا لا أجد مائدة أهناً وأطيب مما تجود به مائدة القرآن، فعودة على بدء وقد نظرت إلى محمد وهي تقول: كنت قد قطعت حديثاً لما اقتحمت مجلسنا الذي تفيأ ظلال الكتاب المقدس

-أمطرود محمد؟! قال وقد هم بالانصراف المتردد

-فغمزته بابتسامة رضى على وجوده وقالت: لا نحرم من خطب كلامنا ولا نحجب علمًا عن من طاب له مجلسنا

(35) يومها خرجت على رأس جيش من النسوة لإنقاذ ثلثة من الرجال المجاهدين كان جيش

الاحتلال قد حاصرهم بداخل مسجد مدينة بيت حانون وذلك سنة 2006

- قالت أم رمضان_وقد رَغِبْتَ أَنْ يَرْجِعَ الْكَلَامَ عَنِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ لِإِتْمَامِهِ_ إِذَا هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الَّذِي أَجْدَى⁽³⁶⁾ نُورَ جِبِينِكَ، وَأَلْهَبَ وَجَنَّتِيكَ بِقَبْسِ النُّورِ الْفَائِرِ .

- القرآن نور السماء في ظلمة الأرض العدمية، وهدى الحيارى في دروب الضلالات والتيه إلى وضوح الحقيقة، إنه سراج منير لا تخبو شعلته ولا يجف زيته، إنه المعجزة السماوية الباقية التي لن تموت ولم تندثر ولا تحرف «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»⁽³⁷⁾، وهو جملة مفاهيم صاغها الرب لتكون منهاجاً تحيا به البشرية في رحلتها الدنيوية الفانية، وهو خطاب الرب المباشر لعباده رحمة بهم ورأفة، وهوالبوابة الإلهية المفضية إلى ذات الإله وجلاله يلجها الإنسان متى شاء وعلى أي جنب شاء، لا يحتاج إلا إلى تذكرة الطهارة النفسية والروحية والجسدية التي تنزهه للحضرة القدسية... الكتب السماوية المقدسة هي كلمات الرب الجليل للبشرية، وهي لغته التي علمها مخلوقاته الكونية إلا أن مخلوقاً مكرماً على سائر الخلائق فقّهه ولم يفقهه، وعلم ولم يعلم فكان كفوراً..

ثم تابعت قائلة_وهي تمسح حبة عرق نزت على جبينها من تحت حجابها تخبرها أن شمس الضحى قد حمي قرصها، وهي ترقى على نحر التجويف الفضائي على عجل_ : إن النور الذي ترينه هو مصل

(36) من جذو وهي شعلة من النار

(37) قرآن كريم، سورة الحجر: آية 10

التفاعل الروحي مع الصوت الإلهي المناسب بجمال أسر في تراكيب الحروف وفحوى معانيها، فعندما تفهم معاني الكلمات القرآنية تكتشف أسرارها، وعندما يغاص فيما وراء اللفظة ورسم الحرف تدرك روح الحياة النابضة فيها، وعندما تنسجم الروح البشرية مع الموسيقى المنسربة في تراكيب القرآن البلاغية، وتخفق بأجنحتها على أوتارها المشدودة فإنها تتقدس ثم ترتقي حتى تصل ذروة العشق الإلهي، فتنتهي بها الرحلة إلى حالة من الإشباع الروحي العجيب، وهذا مرام المريرين، إنه لسان روعي ورسولها إلى معشوقها، وأنا أقرؤه شوقاً وهياماً وما زال يكشف لي كلما تدبرته مزيداً من سبل الوصال، وما زلت أتفكره بعمق لأشعل جذوة الاحتراق العشقي في روعي الوالهة في ذات الإله، وهي تخطو على درب الجنة.

كانت كلماتها تخرج من أكامها رائقة الاندفاع رقيقة التركيب عطرة المعنى متينة المبنى فتزيد وجهها توهجاً، حتى صار كقرص الشمس المحترق في ردة مكان ما بين لهيب النهار الحابي وما بين فحمة الليل الدامس، فقالت ابنتها كلمة أتت بها على نهاية المجلس وانفضاضه: من عرف اغترف ومن اغترف التحف⁽³⁸⁾

(38) يقصد بها شعار التقوى ودثاره

تعقب واستقصاء

دخل رجل ضخم البنية غليظ العظم عريض المنكب، قَرع طوله فلفت الأنظار ببياض وجهه الساطع وضوحًا، وخصلات شعره التي تدلت حتى لامست أعلى محجريه - فغلَّق من خلفه ردفتي باب الحجرة الذي كان مشرَعًا، فألقى ملفًا ورقياً، كان يقبض عليه بحرص مبالغ فيه على طاولة زجاجية دائرية الرسم - جُعلت أرجلها متنقلة بواسطة عجلات بلاستيكية صغيرة لتسهيل حركتها، على سطحها كانت منضدة سوداء، تناثر من حولها بعض الأوراق والأقلام - وقبل أن يريح جثته على أحد الكراسي المصطفة إلى جانب بعضها البعض - قال: هذا كل ما طلبته شيخنا الحبيب.. قال الشيخ وهو ينظر المملف بلهفة المنتظر: فض الخاتم وافرش ورقاته، تخلص الرجل من خيط كان يضبط اللفافة وفرش بدايته في مصب بصر الشيخ، فراح يتمعن المحتوى بكثير اهتمام، وكان يبدي حرصًا شديدًا وهو يدقق في كل كلمة وحرف.

كان المملف الورقي عبارة عن معلومات شكلت مسحاً شاملاً لحياة

تلك المرأة التي اقتحمت مسيرة الشيخ الدعوية، كان الشيخ قد طلب من أحد معاونيه أن يجمعها ويعدّها لعله يتحرز بها منها ولعلها تفيده شيئاً عنها أويجد بين تفصيلاتها إشارة توحى إليه عما كانت تبحث تلك المرأة أوطرفاً مما تسعى إليه...

كان الشيخ يقرأ الملف بنهم ملفت، وكانت ابتسامته تتسع حيناً وتضيق حيناً كلما قلب صفحة أو افتتح أخرى أمامه وظل على حاله هذه حومة ساعة وزيادة ولما أتى على آخر الملف، طلب من مرافقه طيه وإعادة الخاتم عليه ثم غرق الشيخ في تفكير وهمس مع نفسه كاسراً الصمت الموحش الذي تغلغل في الحجرة على غير عادة: لا شك أنني أمام امرأة رسالية، مكلفة بمهمة ما وتنشد هدفاً محدداً، ولكنني على الأقل بت موقناً أنها لا تسعى إلى الإضرار بي، ولن تعود علي بسوء والواضح من كل هذه الورقات أنه لا فكاك ولا مناص لي منها حتى تبلغ ما أزمعت عليه «قَالَ لَهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»⁽³⁹⁾ ثم قال وقد فتح أوتاره الصوتية قليلاً، فصار الهمس صوتاً له رجع صده: سأصدمها بالمفاجأة في اللقاء المقبل.

المتألهون

كانت حكومة الاحتلال الصهيونية ممثلة برئيس وزرائها أرئيل شارون زمنداك ومنظمة الشاباك الأمنية ممثلة برئيسها الجنرال «آفي ديختر» قد اتخذت قراراً في اجتماع وزاري مصغر ومغلق «بتجديد عمليات الاغتيال وسياسة التصفية المميتة ضد قادة المنظمات الفلسطينية المقاومة ضد الاحتلال، وذلك على إثر تصاعد العمليات الاستشهادية التي ألحقت خسائر مادية وبشرية كبيرة في صفوف الجيش الإسرائيلي، وشكلت تحدياً حقيقياً للعقل الأمني الإسرائيلي الذي عجز بكل مؤسساته الأمنية عن إيجاد حلول شافية بإمكانها مواجهة أو القضاء على هذا السلاح الإستراتيجي الذي ملكته المقاومة الفلسطينية، ولما كانت انتفاضة الأقصى التي اندلعت شرارتها 28 سبتمبر 2000م تتعاضم وتحقق نتائج ملحوظة على الأرض واستطاعت أن تخلق توازناً عسكرياً وسياسياً على الساحة الفلسطينية وعلى الساحة العالمية على حد سواء، واستطاعت أن تحدث تغييراً في الوقائع والمعادلات التي تمتع وانفرد بإيجابياتها «المحتل» على مدار صراعه مع المنظمات الفلسطينية حيث كان على الدوام هو المتقدم أشواطاً بعيدة على

المستوى السياسي والمستوى العسكري، وكان هومن يفرض قواعد الصراع ويدير منظومته، فجاءت العمليات الاستشهادية لتقمع رأس العقلية الأمنية الإسرائيلية التي فشلت فشلاً ذريعاً بكل أذرعها الأخطبوطية في القضاء على هذه الظاهرة المقاوماتية، مما ألجأها إلى تفعيل سياسة الاغتيال من جديد بعدما توقفت لعدة سنوات بعد اغتيال القائد القسامي يحيى عياش الملقب بالمهندس وذلك بتاريخ 1996/1/5م، ولكن كان هناك شيء مفاجئ في القرار الإسرائيلي، حيث شمل القادة السياسيين للمنظمات الفلسطينية الفاعلة، ووضعهم على قائمة المطلوبين للمقصلة الإسرائيلية المميتة، وعلى رأس هؤلاء القادة كان الشيخ المجاهد المجدد أحمد ياسين - الزعيم الروحي لحركة حماس، والذي شغل القائد السياسي الأول للحركة وأحد أهم مؤسسيها عام 1987م، وقد اعتبره الاحتلال الإسرائيلي أحد أكثر القادة خطورة على الإطلاق ويشكل تهديداً حقيقياً على وجوده، ولطالما نعتة الاحتلال بشيخ الانتفاضة الشعبية التي اندلعت عام 1987م.. التهمة التي ألصقت به لتعطي مسوغاً أمنياً لاعتقاله من قبل منظمة الشاباك في يوم 15/حزيران/1989 والحكم عليه بقضاء مجرم سافر مدى الحياة، إلا أن إرادة الله قضت أمراً مغايراً، فحرر الشيخ من سجنه بعد ثماني سنوات 1997م ليصبح حرّاً طليقاً بعدما أفرج عنه في عملية تسوية وتصحيح مع ملك الأردن «الملك حسين بن طلال»، الذي أجبر الاحتلال على موافقته بالإفراج عن الشيخ مقابل تسليمهم ثلاثة من رجال منظمة الموساد الإسرائيلية التي فشلت في اغتيال رئيس المكتب السياسي لحركة حماس الأستاذ خالد مشعل

آنذاك ووقع رجالها في قبضة رجال الأمن الأردني بعدما طاردهم حراس خالد مشغل وطوتهم الجماهير داخل السفارة الإسرائيلية الكائنة في «شارع ميسلون» في منطقة الرايبة من العاصمة الأردنية عمان، ولقد قام الملك حسين بهذا الفعل لحفظ ماء الوجه أمام شعبه الذي كان يتحفظ على اتفاقية السلام الموقعة بينه وبين كيان الاحتلال...

عاد الشيخ الياسين إلى غزة هاشم ليواصل مشواره الدعوي الجهادي في مقاومة المحتل، وخلال انتفاضة الأقصى كان له الدور الأكبر في استمرارها وإمدادها بالفكر الرشيد والرؤية الواضحة الصائبة النابعة من رأي القرآن الكريم، الذي ينص بشكل واضح وجلي على مقاتلة المحتل بثتى السبل، الأمر الذي مكّنه من الفتوى بالعمل الاستشهادي ضد كل من يغتصب أرضك ويحتل وطنك ويدنس مقدساتك، وهذا ما جعل المحتل يشتاظ غضباً ويحتقن حقداً على الشيخ القعيد، فقرر اغتياله وهو يحسب ألف ألف حساب لردة الفعل الحماساوية والجماهيرية على صلفه الجريء وعنجهيته اللامحدودة، ورغم مخاوفه إلا أنه استعد لدفع الثمن مهما عظم، فخطورة الشيخ تكمن في حياته لا بعد موته حسب العقل الأمني الإسرائيلي.

روائع فكر

-أقدم اعتذاري شيخي، فالشوارع مختنقة بحركة السير، وزنانات العدو «طائرة الاستطلاع بدون طيار» تجوب السماء بشكل مكثف وغير اعتيادي، والناس في هلع والخوف يطاردهم من كل جانب، فدفعهم إلى الفوضى والازدحام فما استطعت أن أصل في تمام الموعد.. قالت_وقد أعذرت لنفسها بعدما حيّت بتحية إسلام وشوق بأنفاس متقطعة_، ثم اقتعدت كرسيًا طغى عليه فروه الحيواني محكم التنجيد حتى أخفيت خشباته البلوطية، فزاده وثرة وأبهة، ثم أردفت بجملته إضافة فيها من الخوف والاستفهام ما فيها: أَحَسْبُ أن اليهود يخططون لاغتيال جديد...

قرأ آية من القرآن على مسمعا «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا»⁽⁴⁰⁾ ثم هش إليها وقال: الوقت عزيز والمواعيد شروط، في إشارة منه على عدم قبول ما أعذرت نفسها به - والمريدون يفقهون

ذلك... شعرت بلسعة عتاب في كلماته وملامة وحتى لا تتورط في نقاش هامشي آثرت الصمت، وقد علمت أن الصمت منجاة فتابع هويقول:

- وقد رأى عينها تدور في جنبات المكان - لقد اضطررنا أن نعقد لقاءنا في هذا المكان في دار الأرقم من مبنى المجمع الإسلامي⁽⁴¹⁾ للظروف الأمنية التي يعيشها البلد اليوم. كما وآمل أن تفضي لي عن مرادك وأن تفصحي عن فحوى الوصية.

قالت - وقد أربكتها عجلته ودخوله إلى صلب الموضوع دون مقدمات - لقد قال لي يوماً: ستلتقين رجلاً يكون مجدداً للكرامة العربية والإسلامية، فكما يبعث الله على كل رأس قرن من السنين رجلاً يجدد للأمة دينها، فسيبعث لها من يجدد لها كرامتها وعزتها التي فقدتها منذ زمن واهترأت وتخرمت من كثر ما داستها معاول الهزيمة

-نفخ نفساً ملاً به الفراغ الفاصل بينهما، وقال بتواضع كريم: إن عجوزك رجل أتاه الله الحكمة، وأهداه بصيرة ثاقبة، فالأمة اليوم بحاجة إلى ما قال

(41) المجمع الإسلامي: مبنى حجري في مدينة غزة، شكل من طبقتين شغل الطابق الأول مسجداً والثاني جمعية وروضة وغرفة لقاءات، أطلق عليها دارالأرقم، كان الشيخ يعقد فيها اجتماعات

قالت: إني أراني أقف في حضرة نبوءته، ثم حبست لسانها معطية الصمت استنطاقه، ولما لم يفلح الصمت في روح دقيقة من استقطار كلماته وطرقها شعور بأنه يستمتع بحديثها وأن العجالة التي أبداها أول اللقاء قد تلاشت، أردفت قائلة: اليوم فهمت معنى ما قال لي ذات مرة، ونحن نركب البحر في رحلة اكتشاف الذات، تملل الشيخ في كرسيه وأرهف إليها أذنيه زيادة ودخل في حالة من يتلقى نبأ عظيماً... قال لي: «الأمواج حركة كونية إيجابية»، حركة تعبر عن الثوران الدائم على السكون، وهي حركة تغيير وتجدد مستمرين، ومن خلاف هذا المعنى فهمت سبب تسميتكم لتياركم الثائر حركة وليس تنظيمًا أو تجمعًا أو... أو...

إني رأيت وقوف الماء يفسده إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب

إن سكون الماء يفسده ويؤسنه⁽⁴²⁾ فيحيله معدماً من عناصر الحياة التي خصه الله بها... «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا»⁽⁴³⁾ وهكذا الإنسان سكونه يعني موته المحتم لا أقصد فناء جسده ونزع روحه، إنما إلغاء دوره الرسالي المنوط بوجوده في الحياة الدنيا، فالسكون موت يقتات روح الإنسان، ويفسد نفسه فلا بد من حركة دؤوب، وليس أي حركة إنما حركة إيجابية على غرار حركة الأمواج الهادفة إلى تحريك أعماق البحر وبواطنه، حتى تظل الحياة هناك صالحة

(42) أسن الماء أي فسد وتغير لونه وطعمه ورائحته فانعدمت فيه الحياة

(43) قرآن كريم، سورة الأنبياء: آية 30

لعوامله الكائنة الحية والحركة الثائرة لأحداث انقلابات على السكون المفسد، وتغير الوجه البحري المظلم بسبب الشوائب والدخيلات التي تكسوه بها الطبيعة بعاملها الكوني والبشري... فصاحب الرسالة يجب أن يتحرك بإيجابية حركة دفع وحركة بناء دفع الإنسانية لتؤدي دورها الخلافي والوراثي لهذا الكون، وبناء هذه الإنسانية بناء أخلاقياً يرقى به وسمورساتها... عندئذٍ تظل البشرية مؤهلة للقيام بوظيفتها السماوية في عمارة هذا الكون الفسيح وحفظه من الانعدام..

فمصطلح «حركة» منسجم تمامًا مع سر الوجود القائم على مفهوم (إيجابية حركة الكون) وقولكم - وقد أشاحت بوجهها إلى نافذة تطل على شارع يخترق الأرض يمر بمحاذاة المبنى، فتقدمت خطوتين بطيئتين فألقت بنظرها من علٍ فرأته قفرا لا حياة فيه، فخطرها هاجس الخوف المنبئ بموت متربص، فاهتزت من داخلها اضطراباً لكنها تماسكت ونظمت أنفاسها من جديد ثم تابعت تقول: إن تخيركم للكلمة «حركة» من بين المعاني اللغوية اختيار موفق وبليغ، وبلاغته تكمن وراء رسمه وحروفه، فأى حماس أوتوتر شعبي أوتحفز ثوري لا يتم توظيفه وتوجيهه وفق رؤية واضحة وسليمة مدعوماً بأيدولوجية عميقة عمقاً يتعدى المصالح العاجلة ويرنو إلى رسالة عالمية ووظيفة أممية، فإنه يفشل ويتلاشى وهذا الحماس والتحفز الشعبي لا يمكن تجسيده كقوة ملموسة، لها حيزها بين القوى وتأثيرها المعدة من أجله لإنجاز الهدف إلا إذا سبقه محرك

«حركة» فيحيل جوهره المعنوي إلى قوة ملموسة فاعلة ومؤثرة، فكم من حماس عربي وتحفز وتوتر شحنت به الأمة لكنه ظل منطويًا بين حروف الكلمة لأنه فقد «المحرك»، وكم من قوة وكم من جيوش مجيشة تحوز العدة والعتاد ما تنوء به السحب والجبال فقدت المحرك فأكلها الصدا ونخر فيها دود السكون... فلوأن لها «محرَكًا» لسعرت الأرض من تحتها، ولأثارت الدنيا من حولها ومن فوقها، ثم وجهت إليه سؤالاً تسترعي انتباهه: هل توافقني شيخي الجليل على فهمي هذا؟ ثم ذيلت سؤالها بكلمات كشفت عن لون الجواب الذي ترغب سماعه، فقالت: إن هذا المصطلح وحي ألهمتموه وإن وافقتني فأنت تقر النبوءة بأنك مجدد كرامة القرن العشرين والواحد والعشرين من عمر هذه الأمة...

لم يفاجئه سؤالها الصريح حتى التطفل، فلم يكن في سهوم كما ظنت بل كان يستمع إليها بإنصات عميق رغم شعوره بأن أمراً جلاً على وشك الوقوع، فالسكون المفاجئ في الأنحاء والأرجاء المجاورة نذير مفاجأة مؤلمة، فقد عهدوا هذا في ظروف أمنية خطيرة فيما مضى، ومن ثم فحدسه لم يخنه قط «وهذه حاسة ما بين الفراسة والتنبؤ أوتيتها الشيخ مكرمة من الله وعلماً ودراية»

فنظر في عينيها نظرة تأرجحت ما بين الرفض والرضى، أبدت حيرة تحور في صدره، ثم أشاح وجهه يم الفضاء المتناهي إلى جوف الغرفة من خلف زجاج النافذة «المبرز» وقال: هذا ما هدانا الله إليه وفهمك للأشياء والأمور فهم صائب... فحياة الأشياء تكمن في

حركتها وحماس ساخن فوار لا يقترن به «محرك»، ولا تقوده أداة دفع بصيرة ييقى عاجزاً عن الفعل وقد صدق جدك العجوز_رحمة الله عليه، إذ فقه لغة الأمواج فالأمواج مخاض البحر المؤذن بولادة جديدة، وأن على الشعوب المضطهدة أن تتعلم من الموج سنة الاندفاع وسياسة الثوران على الأسنة ثم أضاف بعدما ابتلع ريقه. طبعاً مع الحذر الشديد مخافة الانحراف عن الهدف فالثورة دون رؤية وتخطيط وأدوات وهدف بيّن وهذه الرباعية يجب أن تتناغم وأيدلوجية فكرية تستند وتنطلق من أصل الكتاب السماوي؛ لتكون أيدلوجية بعيدة الأفق إلى حد الشمولية والعمومية، وكل ثورة لا تقوم على هذه الرباعية وتبتدع أيدلوجية منفعية، وذات مصالح زمنية أومكانية محددة لا تعد ثورة، ويكون اندفاعها على غير هدى وتخبط خبط عشواء في زمن بهيم سرمدي، وسيكتب لها الفشل والاندثار وإن حققت بعض النجاحات، إنما تكون نجاحات محدودة لكنها أبداً لن تصل ذروة الاندفاع التي يتولد عنه المنشود...

قالت_وقد أدركت أنه ينقل إليها دفعة الكلام بالانتهاء السلس_: كنت أستمع إلى جدي بنوع من العبث الطفولي، وتغلبني مراهقتي على كل جانب، فتدحر سمعي وفكري عن مسارب كلماته، فأحوّم في مشارق الأحلام ومغاربها لفتاة ناهدة تبحث في ثنايا الأمنيات عن رغباتها، وكنت أشعر بأنه يلقنني الأشياء ليقتل وقته السئيم، ويؤنس بي روحه الطريفة من شيخوخة ضاربة في سحابة العمر الأخيرة، وكنت أحسبه اتخذني خليلته التي يفضي إليها بعوامل صدره

كلما لفظته الحياة، ويقصني أقاصيصه بعدما سئمها أترابه، ولم تعد تجارة عن تراض بينهم، ولا حتى تجارة رابية في أسواق سمرهم.... فلا أكثر ث لخرافاتة ولا أنشدُهُ إلى حكمه إلا قليلاً، ثم تنسف أحلامي كل ما حشاه في بواطن مسمعي وتمحوأمنياتي المراهقات كل ما علق بأطراف قلبي الفتى الذي كان لا يقبل إلا أحاديث وأشعار هي نبت رياض المراهقين الباسقة في سماء أحلامهم الوردية..

نظر إليها وتنهذات صدره تهز قميصه الأزرق المنقش، وقد تساءل مع نفسه عن سبب هذه المداخلة الساهبة، فجاء تتابع قولها لتشفي تساؤله النفسي وهي تضيف:

-لكنني اكتشفت يوماً بعد يوم أنني كنت رفيقة رجل ذي بصيرة خارقة غير عادية استطاع من خلال منظارها المجلوأن يستشرف المستقبل لحالة هذا الشعب، وللخارطة الجغرافية لهذه الأرض، واستطاع في حينه أن يقرأ في مجاهل الغيب ما ستؤول إليه الأمة من سوء وشتات..

-قال الشيخ: كلما قلت في نفسي كفى قال لي عقلي هل من مزيد من سيرة رجل فيه شيء من النبوة، شيء ما فوق الرؤية الصالحة، ثم أردف يقول_ وهو باسم الثغر_: وأنا أميل إلى رغبة عقلي وأرجحها على نوازع النفس، فتبسمت بعفاف ثم انطلقت تقول ملبية رغبة عقله الحصيف: أتدري أنه قال لي يوماً كانت تتحدر بنا الحافلة في متعرجات أودية القدس - ناكصين من رحلة حجاج إلى الأقصى

أواسط خمسينات القرن البائد - قال: بنيتي سيكون هناك اهتزازات
جسام ومصائب لئام تضرب الأمة، وتتنكب هذا الشعب وسيذهب
الأقصى، وتغتصب القدس، وتستباح غزة، فقلت له زمذاك: أيلحق
كل ما تقول بنا والأمة تمور مور التنور باللهب غضبًا وسخطًا على
«نكبة 48»؟ ثم كيف يكون ما تقول وحسبي أن الأمة تعلمت من
لدغة الثعبان الأولى «ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» كما جاء في
الحديث الشريف، ولتعلم شيخي أنه لم يزد على أن قال في رده بيتًا
من الشعر

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ** ولا سراة إذا جُهاهم سادوا

حكمة نطق بها شقّت ما خبأته الأيام، فكما تعلم لقد كان عدوان
عام 1956 على مصر العروبة وتلته نكسة 5 حزيران 1967 التي
مُنيت بها الأمة، وأصابتها في مقتلها بعدما هزم التحالف العربي
الذي ما كان له أن يحقق نصرًا يذكر لأنه أسس على مصالح ومنافع
كل فريق وغفل مصلحة الأمة ومشكلتها الرئيسة، كما أنه كان يفتقد
للرؤية السليمة وللمنهجية العسكرية ودربتها فانهار في نفق الخيانة
والانشقاق، ثم تمادى الغادرون فحرقوا أقصانا يوم 21_8_1969،
فغرقت الأمة الإسلامية والأمة العربية في يأس سديم من قادتها
وحكامها وسياساتهم الغبية البغيضة...

منهجية قتل

وبينما هما في حالة تجلٍ وعصف فكري وحوار نافذ، إذ اخترق سكون الأجواء الخارجية صوت انفجار مدو ارتج منه المبنى، وتناثر بعض زجاج النوافذ، واهتزت بهم الكراسي، وتأرجحت الأشياء في الغرفة، فضربتتهما لحظة ذهول، وغمرتهما سحابة غيث جهولة وفي ضباب الذهول حوّل الشيخ وحسب ثم قال: الله اللطيف لقد فعلوها يهود، تناهى إليها صوته، ففهمت شيئاً مما قال وخفي عليها شيء آخر فهرعت باتجاه النافذة، وهي تلقم خدها كفها ولسانها يردد بارتجافة عابرة -الله يستر- الله يستر - وما أن هدأ «الدوي» وتلاشى مع الريح، حتى كانت سحابة دخان وغبار متراكمة تتصعد في السماء البعيدة، تراءت لناظرها كأنها زوبعة عاصفة يتلاشى أولها عند بلوغ ذروة الاندفاع العمودي... وما هي إلا عشرة أمتار هي عمر المسافة التي حرقها مرافق الشيخ قادماً من الردهة الملاصقة لحائط الغرفة الشمالي، فطرق الباب المشرع وقال وهو يلتقط أنفاسه ويخفي سحابة الفزع الحائمة على محياه بطأطة رأسه:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... لقد وصلتنا أخبار أولية مفادها أن الانفجار ناجم عن عملية اغتيال في شارع الثلاثيني ولا يوجد هناك بيانات أخرى... ثم أردف قائلاً: وقبل أن سمع أي ردة فعل من الشيخ على الخبر - لا بد أن نغادر (المجمع) سيدي الشيخ وتقدم خطوات حتى أمسك مقبضي الكرسي، ودفعه خارج الغرفة وهو يعتذر من الشيخ..

-اعتذر إليها الشيخ على عجلة وقال مودعًا_وهويخرج من فم الباب_: سنتصل بك لما تسنح الفرصة، وأضاف منهياً بجملة مقتضبه - خذي حذرك !

-قالت لنفسها -وهي تنظر الكرسي الذي راح يتدحرج بالشيخ على عجل أمام أقدام مهرولة ينقلها الحذر الخائف: بل أنت خذ حذرك.. حماك الله وأبقاك، ثم خرجت بعدما ألقّت نظرة أخيرة على المكان الذي جمعها بهذا الرجل المعجزة، وسحبت أنفاساً عميقة وهي تعبر الممر الذي خلا من الحياة، وتنفست أشياؤه وجدرانه الخوف ونفتته... نقلتها أقدامها خائرة القوة بثقل حتى آخر البهو، فنزلت السلم الذي أسلمها الشارع الذي رجعت إليه الحياة الرعبية، وتزاحمت عليه السيارات والمركبات المطاردة من الاغتيال المفاجئ والقادم من بلاد عطّاش القتل وعشاقه

ركبت سيارة تحبو بالاتجاه الذي تريده، وما هو إلا ميل مسافي حتى وقفت السيارة مضطرة عند أقدام الحشود التي تجمعت عند

بوابة «شارع الثلاثيني» وسط مدينة غزة، فترجلت هي وانسابت بين أمواج الناس المحمومة والمتوترة والصائحة بهتاف باك «الشهيد حبيب الله، الموت في سبيل الله أسمى أمانينا، الانتقام الانتقام يا كتائب القسام»، وظلت تزحف وتندفع مع السيل البشري، حتى وقفت غير بعيد من حفرة محترقة ما زالت أنفاس الحريق تنسلّ من أترتها، وما زال في جوفها بقايا سيارة يتناهشها الرجال من كل جهة جمعاً للأشلاء المحترقة حتى الفحومة، كانت رائحة الجريمة المزكّمة تدل على حجم الحقد الصهيوني، وعلى بشاعة المحتل الذي يقرر مصادرة أرواح البشر متى شاء، وبالطريقة والكيفية التي يشاؤها، هذا بواسطة طائرات الأباتشي وذاك بطائرات الأف 16 وآخر بينادق القنص الأمريكية و.....و.....

تعددت الأدوات والموت غدر واغتيال

كانت فاطمة تنظر المحرقة والجريمة، ودموعها تنز مدرارة وتردد بانفعال مرتبك: الشهداء...الشهداء..... الشهداء !!!

على هامش الحدث

كانت حكومة الاحتلال الصهيوني قد عقدت مجلسها الأمني المصغر برئاسة رئيس وزرائها آنذاك «أريئيل شارون» وجنرالات المنظمات الأمنية في جلسة طارئة مساء يوم الثلاثاء 19_8_2003 على إثر العملية الاستشهادية التي حدثت صبيحة اليوم نفسه في مدينة القدس، والتي أسفرت عن مقتل عشرين صهيونياً، وقد كانت حركة المقاومة الإسلامية حماس قد أعلنت مسؤوليتها عن هذه العملية التي وصفتها في بيان رسمي لها بأنها عملية بطولية تأتي في إطار الرد الطبيعي على جرائم الاحتلال المتواصلة، وعلى الانتهاكات الاستيطانية في مدينة القدس ومقدساتها...

لم يتضح مضمون وأجندة الجلسة الأمنية الطارئة إلا بعد تنفيذ طائرات الأباتشي والاف 16 الإسرائيلية جريمة الاغتيال بحق المهندس إسماعيل أبوشنب وثلاثة من مرافقيه..

بعد يومين وكان ذلك في ساعات الهاجرة من يوم الخميس 21_ أب_2003 حيث استهدفت سيارتهم من نوع «قولف ألمانية الصنع»، وهي تشق شارع الثلاثيني وسط مدينة غزة بثلاثة صواريخ جوأرض، أطلقتها طائرات الاغتيال التي تربصتهم من السماء، ورسدتهم من خلال عملائها وتكنولوجيا أمنية متقدمة فأحرقتها عن كاملها.. وقد برر العدو الصهيوني جريمته الشنعاء بأنها تأتي ضمن سياسة الردع، وكرد فعل طبيعي على عمليات المقاومة الفلسطينية التي ينعتهـا «بالعمليات التخريبية» على إثر هذه الجريمة النكراء، كانت حركة حماس قد عقدت اجتماعات مكثفة وموسعة على مستوى قطاعات الحركة_السياسية، العسكرية، الدعوية، والجماهيرية_ كافة، وكان أهم هذه اللقاءات اللقاء الأمني الذي ترأسه الشيخ أحمد ياسين، وضم أيضاً الدكتور عبد العزيز الرنتيسي وثلة من قادة الجناح العسكري كتائب القسام وعدد من مسؤولي محافظة القطاع، وبالتنسيق مع رئاسة المكتب السياسي لحركة حماس خارج الوطن الأستاذ خالد مشعل...وكان أبرز ما خلص إليه في هذا الاجتماع الأمني التقرير التالي:

لقد خرج عقل المحتل عن طوره وجن جنونه من حجم الخسائر التي يتكبدها جراء العمل الاستشهادي، وعجزه عن معالجة هذا السلاح الخارج عن العادة، والخارق لنظريات لواقع، مما أحدث توازناً عسكرياً في المنطقة، وشكل هاجساً مرعباً لكل صهيوني يتواجد على أرض فلسطين التاريخية، الأمر الذي دفع المؤسسة الأمنية

الإسرائيلية إلى تجديد سياسة الاغتيال، واستهداف قادة سياسيين لأول مرة منذ اندلاع انتفاضة الأقصى عام 2000 وعليه فإن الحركة قررت الآتي:

الانسحاب من الهدنة القائمة وإعلان حالة الطوارئ القصوى ودعت إلى الثأر لدماء الشهداء وعلى رأسهم القائد المهندس إسماعيل أبوشنب.

زيارة حلم

وقفت في عتمة من ليلتها زهاء ساعة في صلاة باكية العيون، خفيفة القلب على ترانيم لسان تأرجح خاشعاً في حضرة الإله المقدس «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ»⁽⁴⁴⁾، ثم نامت غارقة الفكر في صريح الآية «موتٌ يلد الحياة»، وبينما هي تنتقل حاملة على هضاب الذكرى، جاءها طيف جدها البهي في أبهة وجلال وحسن هيئة، يدل على حسن جوار ومقام كريم، نض الوجه وخيوط نور تنسرب من جنباته وشعرات كثة مُشدبة، زادته هيئة ووقاراً، فقرأ عليها السلام فأقرأته السلام، وزادت مرحبة بحبور شرح، ولم تلبث أن سألته بعجالة كأنها تخشى انقطاع الحلم وزواله

-كيف أجذك عند ربك ؟

- قال: «فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»⁽⁴⁵⁾

- ثم تابع يقول وهو يمسخ على رأسها: الشهداء هم بلاغات الأرض إلى السماء، واليوم أنت تمتطين ظهر الميل الأخير من أميال «درب الجنة»، ثم أضاف قائلاً بصوت متهدج -وطيفه ينحدر في معارج الخفاء البعيد-: وما بوابة السماء منك إلا على مرمى ميل واحد.

انتبهت من نومة هنيئة وما زالت يدها تتلمس أثر الحلم وأنفاسها تعبق عطرها السماوي.

(45) قرآن كريم، سورة يوسف: آية 90

عصف عقل على رصيف الماضي

ومع الإشراقة الصافية لصبح الجمعة - الذي تنفس نادياً- اتخذت قراراً مفاجئاً، مفاده أن تصحب ابنتها أم رمضان في رحلة تمشٍ على رصيف الماضي...

هبطن الشاطئ ورحن يتمشين الهويني، وبشكل عفوي بدأت هي تركل البساط الرملي المبلل وما هي إلا خطوات على أثر الطفولة البعيدة حتى أخرجها حنين الذكريات من صمتها فقالت: لقد زارني في ليلتي البائدة....

-من ؟ سألت أم رمضان_ وهي تحصن عنق ثوبها عند أعلى الجيد_

- لم تجب السؤال مباشرة، وشرعت بالحديث _قاصدة شيئاً من التبيان والتأصيل_ فقالت: كان النور ينبجس من محياه الشبابي اليافع، وكأنه أربعيني العمر لا أكثر، لم تطل زيارته لي فكان خفيف الظل، رقيق القول بليغه وضمنه لكن كلماته على قلبها شكلت رافعة، وأعطتني شحنة ساخنة من المعنويات أعتقد بأنها كافية

للبقية الباقية من مشواري على طريق الجنة

- فهمت أم رمضان من فحوى حديثها أنها تعني جدها العجوز فقالت: ما عهدتك تتحدثين بهذا السرور، وبكل هذا الانبساط عن غيره من البشر منذ وعيت ورشد عقلي...

- نعم إنه هو، جدي العجوز الذي ظهر علي الليلة في ثوب الشباب بعد انقطاع مر، ولكم أسعدتني رؤياه فجئت اليوم هنا وفاءً للماضي، وحيث بدأت حياتي تتشكل وينمو عقلي ويكبر، هنا بالضبط، أكدت وقد غمرتها العبرات ودافعتها ونحل صوتها وانخفض.. هنا كان يفترش عباءته فيجلسني فأبدأ العبث بحبيبات الرمل بقدمي الحافيتين، وعلى منوال هاتيك الأيام افترشت الأرض الرملية وعرت قدميها من حذاءيهما وأطلقتها تستحم في زبد الموج... فشاركتهابنتها بلعبتها الطفولية بمرح حيي

رحل بها خاطر الذكرى إلى حيث ميلاد وبكورة اللحظات الجميلة من حياتها، ثم قالت: من بعد فينة صمت عابرة_ وقد أشارت بسبابتها اليسرى إلى وجه البحر الساجي_ قالت: من هذا الفم الشاطئي كان يرحل بي حتى نغوص بعيداً في عمق هذا الجوف الكوني الساحر الذي تشاهدينه...وبعدما يزوي بنا القارب سحيقاً، وننقطع عن ضواء الدنيا وعجيج أهلها، ويصفولنا فضاؤها وتظهر قوة الكون العظمى من خلال السكون... كان يترك المجذافين ويطلق قيد القارب على غاربه، ثم يرتع في مساحات ذاكرتي زرعاً وبذاراً،

ويكنز في حجرات عقلي من طيب القول وأحسنه، وقد فعل ذات مرة أن تركني صامتًا سحابة يوم من الإشراقه حتى المغيب بعدما قال: ابحثي عن ربك فهو موجود من حولك !!

ثم نظرت إلى ابنتها وجوفها يدفع الضحكات حتى بانث نواجذها، ثم قالت: أتدرين يومها من طفولة عقلي وبراءته رحمت أنظر من حولي ومن فوقي ومن تحتي باحثه في فضاء فسيح وفي سماء مفضية صافية إلا من بقع بيض لغيمات عقيمت، ومن تحت وجه الماء الذي تراءت إليه السماء في صفحته كأنه المرأة المجلوة، بحثت وبحثت ولكنني لم أجد ربي فأكلتني الحيرة وتسلم عليّ الجبن، فدحرتني عن سؤاله فظلمت جهولة إجابة، عمياء فكرة، صماء عظة.. حتى استوى عقلي ورشد بعد سنين، ففهمت أن عجوزي سألني مجازاً أن أجد الله تعالى في عظمة قدرته، وأن أراه في آيات خلقه التي تدل على أنه واحد، وأحسب اليوم أنه أراد أن يقول لي: إن الإيمان المؤسس على حقيقة قدرة الله وتصوره من خلال الآيات الكونية المعجزة والمذهلة هو أقوى وأثبت من الإيمان المؤسس على خوف من الغيب والنار..

ذهب بصرها يقتفي أثره على صفحة البحر الأبيض المنبسط بعيداً إلى ما بعد انتهاء البصر، ووقف سمعها منصتاً لعله يلتقط روحاً من رجع الصدى لكلماته العابرات على أوتار الريح في عمر الزمن البائد... قالت أم رمضان: قلت إنه شححك بجرعة معنويات البارحة، فماذا تقصدين؟ وماذا قال لك؟

- آه..صحيح، فقد قال: قد امتطيت أمتار الميل الأخير من رحلتك

- أوجست ابنتها في نفسها خيفة من الأمر، فافتعلت تجاهلاً دهائياً وتطفلت سائلة...أي رحلة تعين أمي ؟

- رحلة العمر بنيتي.. فنحن نولد بأعمار مكتوبة منذ الأزل، وكما أخبرنا رسولنا محمد _صلى الله عليه وسلم_ «أعمار أمتي بين الستين والسبعين» وها أنا أحوم طائفة في رحاب الاحتمالين، وأقف على عتبة برزخيهما: ثم قالت بنوع من الفلسفة: أما أنا فأرى بأننا نولد كباراً بعمر من أحد الاحتمالين، ثم ينتكس بنا الزمن حتى صفر من العمر فساعات الأعمار تسير معكوسة عقاربها فما ولدنا إلا في إدبار من الدنيا وإقبال على آخرتنا والموت في إقبال إلينا وما أسرع الملتقى...

- لكن لا تؤاخذيني أماه، وسايريني على قدر عقلي العاجز عن الفهم – أنى تكون معنويات وشد الأزر في قول ينبئ بالنهاية واقتراب الأجل ويقتل في النفس بقية الحياة !! أنا لا أفهم...

- حدتها⁽⁴⁶⁾ بعين حانية، ثم قالت _وهي تشابك أصابع كفيها_-: لقد بت من ليلتي البارحة عكرة النفس، مكدورة خاطر، مضغوظة بالقهر حد الانفجار من حادثة الأمس... فاليهود جعلوا من القتل الغادر الوريث الذي يروي حياة بقائهم، ومن سوء حالنا كشعب

(46) نظرت إليها نظرة عتاب وحنين

محتمل، وقليل حظوظ الدنيا أن اليهود يملكون كل الأدوات الأكثر تطوراً عالمياً، والتي تمكنهم من فعل جرائمهم بإتقان منقطع النظير... وما حدث البارحة من اغتيال للشيخ المهندس إسماعيل أبوشنب _رحمه الله وتقبله_ أوقفني مع نفسي طويلاً، وغزتني أسراب من الأسئلة المخيفة، واجتهدت في سبل الهروب من أجوبتها المرعبة، ولكن على غير فائدة فلم أفجح، والسؤال الأكثر هجساً في نفسي ودوامته المرُقطة ما زالت تضرب لفائف عقلي وتطبق على قلبي بمرارها وحنظلهما... هل سيأتي الدور على الشيخ المجدد؟

-شهمت أم رمضان وصفعت فاها الفاجر بكفها من هول السؤال وجحيمه، ثم قالت _وعيناها تدور حائرة في وجه أمها -: أتقصدين وتعنين الشيخ الشيخ..أحمد ياسين

- ومن غيره يستحق هذا التوصيف في زمننا هذا

- فال الله ولا فالك... بالله عليك أُمي لا تذهبي بعيداً بظنونك وهو اجسك المسمومة

-أظنه يبحث عن الشهادة منذ زمن آمد، وأنا لا أخشى عليه بل أدعوله بذلك، فهي مكرمة الله واصطفاءؤه لمن أحب من عباده، لكنني لي عند الشيخ حاجة، وقد سنحت لي فرص لنوالها، ولكنني تباطأت عنها لما لقيته، وآثرت نفسي التآني في طلبها لأغنى بعشرته وأنس بصحبته أكثر فأكثر

- هل أنت نادمة اليوم؟ وما هي حاجتك عنده؟ وكيف التقيته؟
وكم مرة؟

- التقيته مرتين أو ثلاثة لحاجة في نفس فاطمة، وأسأل الله ألا أندم
على تأخيري هذا، إلا أنني بعدما خرجت من لقائه اليوم في بيته
بحي الصبرة، حمدت الله وشكرت نفسي على اجتهادها وحكمتها،
فقد منحتني باختيار سبيل التأي للقاء عدة مرات آخر، ومن كل
لقاء كنت أخرج متشوقة ومتشوقة للقاء الآتي مع الأيام المتعددة
- أراك مأخوذة به مأسورة!

- إنه رجل يحسن الإنصات وفن الحوار، وإذا قال فقول حكيم، وإذا
نظر ففي اعتبار، وإذا صمت ففي فكر، وهو صاحب فكرة مالك
رؤية ساع إلى هدف باختصار هورسول...!! آه..آه يا لغبائي صاحت
في نفسها وكأنها تذكرت غائبًا - يا الله ما أسوأ نسياني وما أقسى
جفاف ذاكرتي!

- قالت أم رمضان_ وهي تحممم بضحكة كبتها مخافة الانفضاح في
وجه من يردون الشاطئ بقربهم-: لماذا تصفعين ذاكرتك وتجلدين
ذاتك؟

- وهل تذكرت ما يشفي غليلك ويجيب على ضباب عقلك وجهله؟

- أصفح ذاكرة بليدة وعقلًا جهولًا كنت أحسبه حصيِّفًا، كيف

نسيت أن المجددين لا يموتون إلا بعدما يبلغون رسالتهم ويسلمونها لخلفائهم، عوضاً عن وصية الجد العجوز به فحتمًا بمشيئة الله لن يقضي شيخنا المجدد حتى يفضي إلي بسر الوصية وجوهرها، ومن ثم إن ربطت الأمور ووصلتها ببعضها البعض، اطمأن قلبي أكثر فالبارحة وبعد سماع انفجار الاغتيال وقبل أن يغادر بصحبة مرافقيه قال: لا تقلقي سنتصل بك، وجدي في حلم البارحة أشار إلي، بل صرح بضم مبين بأنني في المقطع الأخير من الرسالة ولكي تنتهي علي البدء بكتابة النهاية...

- لم تفهم أم رمضان كثيرًا مما هذرته فقالت: أنا لا أفقه إلا القليل مما تقولين أمه، فأنت لما تتكلمين عن عجوزك غالبًا ما تغمزين المعاني غمزًا، وتدربين الكلمات بروح البلاغة وقداسة الروح ولا تفصحين، لكنني لطول صحبة معك أقدر بأنك تعنين رسالتك ودورك في الحياة كامرأة - وإن كان هذا - فمن مثلك يؤدي هذا الدور بمهارة وإتقان وأثرك الدعوي بائن في جيلي ومن سبقني والجيل الذي تلاني، وكل زاوية من زوايا جباليا ومن حولها تشهد لك، ومن يقول غير ذلك فجحود منكر وحسود مبغض فلك الحسنى وزيادة إن شاء الله...

- لقد حاولت بمثابة حثيثة وأنا أخطو على درب الجنة منذ زمن أمد أن أنفذ محاور رسالتي، وقد كان محورها الأول إخراج ذاكرة شعبي من الكنتونات الفكرية والجغرافية الخائفة والضيقة والجاهلة التي اختلقها ورسمها لنا الاحتلال، وإعادتها إلى سعة تاريخها التليد

وماضيها العريق وحاضرها الراض للتسويات المجترئة الظالمة، وإلى مستقبلها الحتمي كما نص عليه قرآنا الكريم...

كانت فلسفتها تفسر نظرية ربط الماضي بالحاضر وتزاوجهما لميلاد مستقبل مشرق ومشرف، وإثبات حقيقة أن الأمم لا يمكن أن تسمى أمماً إلا إذا صنعت حضارة، ولا يمكن نفي أمة لغياب عاثر ولا محوها عن لائحة الأمم لغياب عابر، ولا دحرها إلى خط التاريخ الهامشي لطارئ اعترها، ولعثرة اعتثرتها، فالماضي حلقة في سلسلة عمرها، كما أن حاضرها حلقة ومستقبلها حلقة مكملة للسلسلة ثلاثية الدوائر...

- قالت أم رمضان: يمكن دراسة الماضي وتتبع آثاره واستنتاج العبر وقراءتها، ويمكن فهم الحاضر وقراءة سياساته وتتبع وقائعه أما المستقبل فكيف لنا به؟ وأنى لنا استشرافه وقراءة غيبياته وتوقعها كي نؤسس عليه أهدافنا ونربط به أحلامنا كأمة...

- إن الأمة التي ارتضاها الله واختارها لخلافة الأرض وإشغال الكون بسنة السماء، خصها بكتاب كريم مقدس فيه استشراف المستقبل ومعرفة صياغته على الوجه الذي يشرفها من خلال استنباط القوانين والأحكام واستلها العبر من أمثلة الأمم الغابرات التي ساقها القرآن؛ لتكون المعلم والملمم لأمة الخلافة والوراثة في الأرض..

فالأمة كالصورة من الإنسان -الذي خلقه الله في أحسن تقويم تتكون من ثلاثة أجزاء، فالماضي بمثابة العقب والأقدام منها،

والحاضر بمثابة الخاصرة منها، والمستقبل بمثابة الرأس منها، وحتى يُشرف الرأس ويتوج بوسام حضاري، لا بد أن يكون العقب والأقدام ضاربة في بطن التاريخ ولا بد أن تكون الخاصرة قادرة على صناعة مجريات عصرها، وقادرة على صياغة واقع يحتل ويشغل حيزاً بين الأمم، وهكذا يمكن لها أن تؤسس لمستقبل حضاري يليق بحجم هذه الأمة، ويحفظ قدرها بين مثيلاتها وعند أبنائها، ويعيد لها خيريتها المخصوصة لها من الله تعالى...

ومن هذا الفهم المستند إلى حقائق تاريخية تثبت بأن يهود اليوم ليس لهم ماضٍ حضاري، إذ أثبتت الكتب التاريخية أصولهم المنقطعة تمامًا عن بني إسرائيل الأوائل - الذين جاؤوا مع النبي داوود عليه السلام فأقام لهم مملكة إسرائيل على أرض الكنعانيين وذلك في 1000 ق.م ولم تلبث هذه المملكة أن انقسمت على نفسها بعد وفاة نبي الله سليمان بن داوود عليه السلام 935 ق.م إلى دولتين دولة يهودا ودولة أورشليم، ولم تعمر الدولتان أكثر من أربعمئة عام، حيث اندثرت على يد الآشوريين والكلدانيين سنة 529 ق.م، أما يهود اليوم فهم من بقايا شعب الخزر الذين تشتتوا من موطنهم الأصلي شرق أوروبا في « الفولغا والقوقاز»، وهاموا على وجوههم في بلاد القرم وهنغاريا وأوكرانيا وبولندا وليتوانيا يحملون ديانتهم اليهودية في غالبيتهم وكان ذلك في القرنين 12-13 م

ولودهب بعض المؤرخين جدلاً ولياً بعنق التاريخ بأن يهود اليوم تربطهم صلة النسب ببني إسرائيل الأوائل «الاثني عشر سبطاً»

الذين شكلوا مملكة زمنًا ما - فهذا الإجحاف التاريخي والتزيف المقيت لا يعطيهم صفة أمة حضارية لأن مملكتهم قامت على اغتصاب أرض الكنعانيين واليبوسيين التاريخية الحضارية منذ 2500 سنة ق.م⁽⁴⁷⁾

- وقالت أم رمضان بعد سماعها لمحاضرة في التاريخ والفلسفة _ عودة على بدء_: أنا أعتقد بأنك من النسوة القلائل اللاتي يضحين بكل شيء دون تردد، فأخي عماد _رحمه الله_ وتقبله ما زال دمه يعطر أنفاسنا ويحيي أرواحنا

- انتفض جسدها كعود هزته ريح عاصف، لما سمعت اسم الشهيد ثم قالت _وقد لقطت أنفاسها -: عماد يا قطعة قلبي وفلذة كبدي ثم أمسكت بعطف ابنتها وقالت: ما فعله عماد هوالتضحية الحقيقية، فالتضحية بالنفس والجود بها في سبيل الله أسمى غاية وأرفع شرفاً، ولقد قال الله في كتابه الحكيم «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ»⁽⁴⁸⁾

وهكذا، أينما ذكرت التضحية، قرنت النفس بالأموال وعطفنا على بعضهما البعض، ولم يفصلهما حرف التخيير أوغيره في دلالة واضحة بأن تمام الأجر لا يكون إلا بعظم التضحية، ولا يتأتى إلا بإرخاص النفس وإزهاق روحها في سبيل الله والفكرة والقضية.. ومجازاً

(47) الموسوعة العالمية: ويكيبيديا..تاريخ فلسطين - الأصل الجديد لليهود

(48) قرآن كريم، سورة التوبة: آية 111

سأعتبر عماد تبعا لما ملكت «تضحية بالمال» وهذه التضحية لا تكفيني، وأنا أسير على درب الجنة

- وهل الجنة لا تنال إلا بقتل النفس؟ أو لا يكفيك ما تقدمينه في سبيل هذه القضية المقدسة!! فأنت تقدمين ما يعجز عنه الرجال...

- الرجال.. لماذا هذا الجنس من البشرية يستأثر بالأفضل على الدوام، ويذهب بالأجور والحبور وينال المراتب الأمام والمناقب الكرام، والله تعالى لم يخصصهم في خطابه للبشرية على انفراد من الشق الثاني للبشرية «النساء»، فكل النداءات والبلاغات السماوية عامة وشاملة ولم تحتكر الميدان لفئة على فئة، بل تركت المضمار تنافسياً «وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ»⁽⁴⁹⁾... فلماذا؟! هذا ما يقتلني - سألت وهي ترمي بحفنة من الرمال الرطبة - التقطتها بغضب، في وجه موجة أقبلت عليهن مترنحة، كأنها إجهاض موجة كبرى... لماذا المرأة تتخلى عن دورها ولا تفهم إحياء وصريح الخطاب السماوي لها بالمعنى الصحيح العميق الذي قصده القرآن المقدس؟

- ردت أم رمضان بقناعة وثقة_ وقد شعرت بأن منطقتها قوي وفهمها صواب، فقالت: المرأة لم تتخل عن دورها في الحياة، بل إن أولى أولوياتها أن تربي الأجيال وترعاها حتى تصبح قادرة على بناء حضارتها، ولا تنسى بأن هذه المرأة أصل البشرية ورحمها المفيض...

- هذا صحيح ولكن الرجل يشارك بهذا وله وظيفته أيضاً وبما أن التكليف السماوي جاء للجنسين من الرجال والنساء وأوجب عليهم التعاون وشرع لهم التنافس في العام والخاص، فلا بد للمرأة أن تأخذ دورها في المجالات كافة، ولا سيما مجال الجهاد والتضحية ويقع عليها واجب، كما على الرجل تجاه القضية والفكرة

- لكن أبواب الجهاد لا تعد ولا تحصى، فالعلم جهاد والنفقة جهاد وتربية الأبناء جهاد و...و...و...وأنت دخلت من كثير منها على مدار سنين خلت !!!

- لكن الجهاد ذروة سنام الإسلام، والجنة لا تمهر إلا بالدم ومن عشق جاد، ولا يسمى عاشقاً حتى يهيمَ ولهاً في سبيل معشوقه، ولا يوصف بالجواد حتى يبذل نفسه - وأمك عاشقة ولهي - قالتها باسمه بدلال وقور-: عوضاً عن أنني حُمِلْتُ رسالة لا يمكن كتابة نهايتها إلا بقطرات القلب الحمر القانية على رقعة نفس مقبلة غير مدبرة في ميدان الاستشهاد

- قالت أم رمضان _ وقد مرت على كلمه استشهاد مروراً غير منتبه_:
إنك تتحدثين عن عشق قاتل أُمِّي

- إن هذا العشق ينحدر في نفسي لسببين اثنين..

الأول: كرم إلهي المقدس معي، فهو وهبني روحاً تكرماً دون ثمن، ثم لم ينتزعها غصباً وهو قادر بل اشتراها بثمن الجنة، والسبب الثاني:

البحث عن حريتي وحرية شعبي المسلوبة، ثم أردفت تقول _ بعدما رشفت رشفات ماء من قلة صغيرة أتيتا بها لردم الظماً - : دعيني لا أحدثك عن السبب الأول فقد يصعب شرحه، أما السبب الثاني الذي يجعلني ليس كغيري من النساء الفاعلات خاصة العالميات منهن.. أمثال مارغريت تاتشر الملقبة بالمرأة الحديدية، التي نهضت باقتصاد بلادها، زمن أن شغلت رئيسة وزراء بريطانيا، فهذه المرأة قامت بدورها الدنيوي على أكمل وجه لكنها ملكت حريتها من قبل، وأشجرة الدر التي بدلت وجه التاريخ بحكمتها ودعائها، وأنقذت مصر من الفرقة والشتات، فهي أيضاً قامت بدورها باقتدار مميز لكنها ملكت حرية ووطنًا وجيشًا من قبل، أو الملكة بليس صاحبة اليمن ومؤمنة سليمان النبي _ عليه السلام _ أو كليوبترا (كاترين العظمى) حاكمة بلاد الروس أواليزابث، وغيرهن كثيرات ممن حملن الرسالة وأدينها على أكمل وجه، لكنهن بالإجماع اشتغلن في دائرة آمنة وحرّة، أما أنا فأحمل رسالة وأفتقد الحرية وهذا الواقع يدفعني إلى أن أخطو على درب الفتاة التي ركبت البحر ثلاث ليالٍ سويًا حتى وصلت رمال فلسطين فأسقتها قطر روحها. أتعرّفينها؟ سألت منهيّة...

- ردت أم رمضان بصوت مشتاق لمآتي اللحظات القادمة - : قولي أماء.. قولي فأنا في رضى من الله إذ أصحبنيكِ في يومك الفضيل هذا -
- فهمت أمها من هروبها البليغ أنها لم تحر لسؤالها جوابًا، فقالت -
دلال ثم كررت الاسم بشموخ مفتخر - وهي تحجب أشعة الشمس

التي سخنت قليلاً عن عينيها بطرف منديلها -: إنها دلال المغربي التي فهمت مضمون رسالتها من الحياة، وعرفت تفاصيل التكليف والدور المنوط بها في طريق البحث عن الحرية، هذه الرسالة قررت أن تجود بنفسها في هذا السبيل، فالتحقت بصفوف الثائرين وهي في ريعان فتوتها، ولم تكتف بأن تقوم بدور الأم الفطري، وهي تفتقد لأصل الحياة «الحرية» فزاحمت الرجال وتقدمتهم لتلتحم وإياهم صبيحة يوم 11/أذار 1978 بقطعان الصهاينة الذين اغتصبوا بلادها على سواحل مدينة حيفا الفلسطينية المحتلة منذ العام 1948م، فتوقع بهم مقتلة كبرى أسفرت عن مقتل أكثر من ثلاثين عرجاً، ثم زادت قائلة -وهي شامخة النظر متوثبة الجسد كأنها تنظر تلك الملحمة الساعة -: أتدرين ما كانت وصيتها يا أم رمضان؟

- سألت وأجابت وابنتها في اندهاش مأسور... أوصت أبها بألا يبكيها «لا تبكني ولا تذرف الدمع فأنا صرت بنتاً للبلاد»، وأنا أقول يا بنيتي صرت بنتاً للحرية... هذا هو نمطي من النساء الباحثات عن الحرية ونمطي من نساء العشق الجهادي.. النسيبيات أم عمارة نسيبة بنت كعب، وأم عطية الأنصارية نسيبة بنت الحارث التي غزت مع النبي -صلى الله عليه وسلم- 7 غزوات... من هؤلاء النساء الطاعنات في العمر فهمت الجزء المبهم من رسالتي، وأسأل الله أن توافق وصية العجوز ومضمونها فهمي هذا، ويأتي مع رغبتني بذلك..

-لم أفهم - لم أفهمك يا أمي!

- من فعلهن، أفهم أن الطعونة في السن وضرب جدار الشيخوخة على النفس لا يشكل عائقاً في طريق المسافرين إلى الجنة، فتوصيفات فيئات العمر بالطفولة والفتوة والشباب والكهولة والشيخوخة والانحدار العاجز، كل هذا إنما هي مسميات لا قيمة لها في مفهوم الإرادة ونظرية العشق الإلهي المقدس.. ولقد قيل: من طال أجله وحسن عمله دخل الجنة، وأي خاتمة أرقى وأشرف من الاستشهاد على عتبة السبعين، ومن ثم فإن أمنيته أن تعبر روحي إلى الجنة من بوابة السماء...

- أخفت ابنتها ضحكة مستهترة خلف استفسار طفولي حين قالت: وهل هناك بوابة للسماء يا حاجة!؟

- القدس..القدس بوابة السماء الوحيدة وهي مركز هذا الوجود، وهي عين السماء في الأرض وأنا أوأمن بأن أرواح الشهداء أينما سقطوا فهي تطوف وتجوب أرجاء المعمورة ولا تعرج إلى السماء إلا من قدس الأقداس مدينة الله في الأرض المباركة، وهي تعرج مضرجة بعطر الشهادة على أثر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم المنقوش على شبح الفضاء منذ يوم السدرة فهو دليل تلك الأرواح على طريق الجنة، وثبت ثم انتصبت تنفض ما علق من رمال بثوبها، ثم أطلقت العنان لرجليها يتمشين رهوًا، فتبعثها أم رمضان ورحن يركلن بقايا الزبد بأقدام عارية، وينظرن صبية ألبستهم رثة وأقدامهم نصف عارية استباحوا شريطاً طويلاً من الشاطئ، فجعلوه ملعباً لكرة راحوا يتقاذفونها ببراعة مرتبكة...

- فقالت: أتحسين هؤلاء الصبية يفرون من الموت أم يبحثون عنه بما أن الموت صار لغة اليوم التي يتقنها العدو بجدارة!

- قالت أم رمضان: أظنهم يتناسونه بين صياح وضجيج طفولي مشرد، وبين ركلات تفرغ الحزن والخوف المتشرب في أوصالهم إلى جوف الكرة الغامض

- إذن أنت توافقيني ضمناً... أن هؤلاء وأمثالهم من الأطفال يحق لهم أن يعيشوا عيشاً حراً كريماً حسب كل الأعراف الدولية والأممية

- من قال غير هذا ؟

- وكيف باعتقادك تؤمنين مثل هذا العيش لهم؟

- قالت أم رمضان: بالتربية السليمة والتوجيه العلمي الصائب و...و... وذكرت عديداً من أسس التربية الناجحة ومن مفاهيم ونظريات التوجيه والتلقين التقليدية وغير التقليدية

- هذا جميل.. لكن أفي لهذا كله أن يتحقق إذا أغفلنا حجر الأساس من هذه المنظومة البنائية التي ذكرت

- وما هو حجر الأساس باعتقادك؟

- الأمن...الذي هو حارس ضروريات الحياة الخمس «النفس والعقل والنسل والدين والمال»...

فلا يمكن خلق حياة كريمة بهذه الخماسية الضرورية، إذا فقد الأمن - ولا يمكن إعداد جيل قادر على حمل الرسالة وأداء دوره لبناء حضارة دون توفير محيط آمن... ثم تابعت _ بعدما أطلقت زفيراً برائحة القهر_ : وفي ظل مثل هذه الحياة التي يسكنها شعبنا المغلوب، وهي لا تخفى عليك فالموت يتربصها ويكمن لها في الجو والبحر والبر، كيف لهؤلاء الاطفال أن يكبروا؟ والمقصلة منصوبة لهم بالمرصاد، أوليس من مهمتنا أن نفديهم ونحرسهم بأرواحنا، لا أن نضحى بهم...

- هو كما قلت أماه

- إذن لا يكفي أن نقف متفرجين على الرجال الذين أخذوا على عاتقهم هذه المهمة

- أنعنين...

- قاطعتها قائلة نعم أعني ما فهمت تمامًا، يجب أن نوجد لهم حياة آمنة في رحاب الحرية، وهذا لا يتأتى إلا إذا مددنا وعبدنا جسراً من أرواحنا، يعبرونه من حياة الخوف وواقع التشريد إلى ساحة حرة آمنة... وهذا تمام الرسالة

- إنك تذهبين بعيداً أمي.. إن صح فهمي !!

- نعم هو ما يحور في صدرك... لكني راجية منك كتم أمري ورمس

سري حتى أعزم العزمة الأخيرة:

-كلي قلق عليك... ومتى ستد...؟

- قاطعتها.. لا تقلقي.. لن يكون هذا إلا بعدما ألتقي الشيخ، وأفهم جوهر الوصية، ويا ليتها توافق رغبتني... ثم نظرت في ساعة فضية اللون على رسغها الأيمن وقالت واه واه...

لقد حرقنا الوقت وسرقنا الحديث علينا العودة..

- تبسّمت أم رمضان ثم قالت: إن لحديثك شجوناً أمّاه، ليس فيه ملالة أبداً ولا سامة ثم أردفت برجاء رقيق يا ليتك تصطحبيني أينما حللت وأينما رحلت، وخاصة إذا قصدت هذا المكان من ذكراك العطرة مع جدك الملمهم

- ربتت على كتفها وهي تدفعها إلى فم طريق العودة، وقالت: لقد عزمْتُ ركوب البحر عما قريب إن شاء الله، ويسعدني جدّاً صحبتك في ذلك اليوم

- بكل سرور، بل هو طموح راغب يجتاحني....

٦ سبتمبر ٢٠٠٣

يوم غدرة أبانت حالة الجنون والهلع الفظيعين اللذين أصابا قيادة الاحتلال، ودفعها إلى إقرار عملية اغتيال الشيخ أحمد ياسين مهما كلفهم هذا الجرم التاريخي من دفع أثمان، وليس على المستوى العسكري، فحسب بل أيضاً على المستويات السياسية والمادية والسياحية وفي المجالين العالمي والمحلي...

تدفقت المعلومات الاستخباراتية إلى مكاتب الأمن الداخلي الصهيوني عبر القنوات المختلفة، وأهمها قناة الجواسيس والعملاء الذين كلفوا برصد ومتابعة تحركات قيادة حركة حماس، وعلى وجه الخصوص قائدها السياسي الروحي أحمد ياسين، وإرسال المعلومات مباشرة لرجال الشاباك بواسطة أدوات اتصال ولغات مشفرة...

وقد استطاعت وحدة الجواسيس التي كلفت بهذه المهمة، والتي يزيد تعدادها على العشرات الذين انتشروا بحسب خطة وضعت من قبل رجال الشاباك في كل الأماكن والمساحات المهمة التي يتوقع،

ولا يمكن لقيادة الحركة إلا ارتيادها حينًا بعد حين...

تمكنت هذه الوحدة السوداء (وحدة الجواسيس) من الوقوف على معلومة مهمة جدًا مفادها أن يوم 6 سبتمبر سيتم عقد لقاء موسع لقيادة حركة حماس في شقة سكنية وسط مدينة غزة، وحددت ثلاثة أحياء في المنطقة المسماة للمراقبة والمتابعة.

ورود هذه المعلومة المهمة المصيرية إلى مكاتب الأمن الداخلي على لسان أكثر من جاسوس، والذين لا يعرفون بعضهم البعض وينشطون حسب الحاجة وغير الحاجة في أماكن متعددة ومختلفة و «بأزمة» غير منقطعة كما وصفهم رئيس الشاباك الإسرائيلي زمنداك «آفي ديختر» قائلاً: «لنا رجال ونساء مخلصون في غزة يسهرون على أمننا وأمن أطفالنا يعملون ليل نهار دون مقابل ثم تبسم وأردف قائلاً: «لكننا كرماء معهم ونعطيهم فلوسًا، وأضاف قائلاً بتبجح وقح في رد على سؤال وجهه إليه مذيع تلفزيون القناة العاشرة الإسرائيلية: قد يكون الزوج وزوجه يعملون لصالح أمننا القومي دون أن يعرف هذا عن ذلك ولا تلك عن هذا».

لقد صدقت المعلومة المتواردة من أكثر من جاسوس بعضها البعض، ودعمت صحتها مما عزز القناعة بصدقيتها لدى رجال الشاباك، مما حمل رئيسهم على دعوة حكومة الاحتلال المصغرة إلى عقد اجتماع طارئ، وعلى وجه السرعة في مقر سري من مدينة قيسارية الساحلية تابع لجهاز الأمن الداخلي «الشين بيت»

جلس رئيس وزراء الكيان الصهيوني زمذاك أرئيل شارون، والذي شغل منصب وزير الدفاع في ذات الوقت بعد استقالة أعضاء حزب العمل من حكومته، جلس مترئسًا اجتماعًا سباعيًا مستديرًا، وعن يمينه جلس رئيس جهاز الأمن الداخلي آفي ديختر، وعن شماله جلس رئيس هيئة الأركان العسكرية العامة الراماتكال موشيه يعلون، وبعواره رئيس الاستخبارات العسكرية العامة افان زئيفي فركش واثان من رؤساء حزبي الائتلاف الحكومي ورجل سابع كان يرتدي بالطور روسيًا، ستر قليلًا من سمته الواضحة، ووضع على رأسه قبعة سوداء بشكل فوضوي، وغطى نصف وجهه تقريبًا بنظارات سوداء كبيرة، أخفت شيئًا من ملامحه العربية الواضحة انعكس عليها مصل الفوانيس الخافتة والألوان القائمة التي سيطرت على أجواء المكتب المحصن في عمق ثلاث طبقات غائرة في الأرض من أصل عشر طبقات لبنانية فندقية فارعة في سماء مدينة قيسارية

هذا رجلنا -قال آفي ديختر- وهو يضع دوسيه ورقياً على الطاولة أمام شارون عن شماله، بعدما سحب منه ورقة مكتوبة بالعربية بياضها أكثر من سوادها، وألقاها أمام الرجل المتخفي الجالس عن يمينه.. كانت خلاصة وتلخيصًا لما حواه الدوسيه، ثم انطلق شارحًا ومفصلاً بعبريته المتبحرة مضمون الدوسيه السري للغاية، كما كتب على ظهره بالعبرية «سودي بيوتير» «سري للغاية» ولم ينبس أي من الجلساء ببنت شفة حتى أنهى مبتسمًا وكأنه يشكر نفسه ويمتدحها

- قال شارون: هذا كل شيء!!

-رد آفي على عجل: الوقت ينفد ونريد إذناً بالتحرك

-شارون سائلاً: من منكم يعطيني تقديراً للوضع العام إذا ما نفذ الأمر؟ وما هي توقعاتكم؟

تمللم فركش في كرسيه، ثم قال _وهو يضرب بعقب قلم مذهب على ظهر يده اليسرى_: لا شك أن تنفيذ مثل هذا القرار الصعب سيخلق ارتدادات سياسية عالمية وإقليمية ومحلية وسيكون له انعكاسات سلبية على علاقاتنا مع عديد من دول العالم الصديقة في العالمين العربي والإسلامي، ولن نرحمنا دول العالم الغربي ويجب ألا نغفل أصدقاءنا الأمريكيان

-قال شارون: دعك من الأمريكيان !! ثم سأله ماذا تقترح؟ وهل لديك من خطة لمواجهة ما تتوقع؟

-ليس هناك من خطة سحرية، أما إذا قررتم التنفيذ أرى اتباع سياستنا التقليدية في إلقاء اللوم بكل ما يجري من عمليات إرهابية (حسب زعمه) ومذابح دموية بحق «شعب الله» على عاتق ومسؤولية هذا الشيخ المشلول، وأن عملية اغتياله تأتي في سياق الرد الطبيعي على جرائم الفلسطينيين بحق شعبنا المختار، والتي يدعو إليها هذا الشيخ ويكافئ منفذيها، ويبنى لهم البيوت ويفرض لهم المعاشات الشهرية، ويجب أن نسلط الضوء الإعلامي على تصريحاته الصعبة ضمن خطة إعلامية ممنهجة وموجهة، بحيث يبقى هذا الشيخ نجم الإعلام على مدار الساعة ولا يظهر منه إلا الوجه القبيح

ولا نسمع العالم إلا لسانه الإرهابي السليط باختصار شديد... القيام بعملية غسل دماغي إعلامي للمشاهد وللسامع أينما كان وتواجد في هذا العالم، كما ويجب العمل على تحييد أبي عمار رئيس السلطة الفلسطينية ورجاله؛ مما يجعل حماس وحيدة في مواجهتنا

-قال شارون_ بعدما عرف موافقة الجميع من خلال هز رؤوسهم_:
كم أماننا من الوقت ؟

-قال آفي: خمسة أو ستة أيام فقط..

-هل تكفي لشن حملة إعلامية قادرة على غسل رؤوس العالم وإدخال عقولهم في ضباية واستفهام ؟

-قال فركش: إذا جندتم سيادتكم وزارة الخارجية، وأمرتموه بالانبراء للأمر حتماً ستكفيها هذه الأيام القلائل، وستؤتي ثماراً جيدة

-قال شارون: اعملوا على ذلك وستكون الخارجية بطواقمها كاملة في خدمة أمننا القومي

-قال رئيس أحد أحزاب الائتلاف: لا تنسوا المعارضة وخاصة حزب العمل الحانق بسبب انسحابه من الحكومة حتماً سيشتون علينا حرباً شنعاء

-قال شارون_ بشيء من الغضب_: فليذهبوا إلى الجحيم ثم نظر للرجل ذي القبعة السوداء نظرة تستقطر منه الكلمات لكنه ظل

صامتًا، واكتفى بإيماءة من رأسه للأسفل دلالة على عدم اعتراضه على شيء، فقال شارون_منهياً الاجتماع_: أرسلوا الشيخ إلى ربه ولا أريد أخطاء

أوعز إلى سلاح الجو الإسرائيلي ليقوم بمهمة المراقبة والمتابعة للشيخ، فخرجت الطائرات الاستطلاعية وطائرات التجسس لتحتل سماء قطاع غزة، وللقيام بعمليات مسح أمني شامل وإمداد غرفة العمليات العسكرية التي أعدت لهذا الشأن وترأسها آفي ديختر بالمعلومات والصور التي تلتقطها أجهزة التكنولوجيا المتطورة التي زودت بها هذه الطائرات، كما وتم الأمر باستنفار أفراد الوحدة السوداء كل في مساحته ومنطقته دون استثناء، وفي نفس الوقت شنت الخارجية الإسرائيلية حملتها العالمية والمحلية بتحميل الشيخ ياسين المسؤولية عن كل ما يجري من عمليات استشهادية «إرهابية» حسب قولهم، ولم يألوا جهداً ولم يفوتوا فرصة في إظهار ذلك عبر مؤتمرات صحفية ولقاءات تلفزيونية وإذاعية وعبر توجيه رسائل شفوية وخطية في الأمم المتحدة وإلى العالم أجمع، وقد لعب الإعلام الإسرائيلي دوره الثعلبي الماكر وانتهج سياسة اللقاءات المتلفزة والندوات المشاهدة التي جمعت رجال المؤسسات الأمنية الإسرائيلية، والصحفيين العسكريين التابعين للمؤسسة العسكرية الإسرائيلية، وناقشوا على مدار الساعة حياة الشيخ الياسين ودوره الكبير في إدارة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، والتحويلات الكبيرة التي حدثت في عقلية الشيخ الياسين وقلبته من شيخ معتدل إلى شيخ

إرهابي، يدعو إلى قتل الأبرياء من أطفال ونساء، ولما كانت معظم وسائل الإعلام المحلية والعالمية بوقاً مجنّداً لخدمة الظالم راح يردد دون تمحيص أو تحقيق ما يتناوله الإعلام الإسرائيلي، الأمر الذي هياّ الأجواء السياسية العامة، وأعد العقول العربية والعالمية لاستقبال خبر الاغتيال الأثيم والمرور عليه مروراً هامشياً...

صبيحة يوم 6 سبتمبر أيلول من عام 2003 وصلت المعلومة المصرية إلى غرفة العمليات العسكرية عن طريق أحد أفراد الوحدة السوداء... مفادها أن قيادة حماس ستجتمع اليوم بعد ساعات الظهر في شقة سكنية يملكها «الدكتور مروان أبوراس» أحد قيادات حركة حماس، بالإضافة إلى ثلة أخرى من القيادات الحماسوية أبرزها الشيخ إسماعيل هنية الذي شغل منصب رئيس وزراء فلسطين فيما بعد 2006

رفع آفي سماعة التلفون الآمن وأدار ثلاثة أرقام، تردد الرنين مراراً في أذنه قبل أن يسمع نفساً لاهثاً.. تبعته كلمة واحدة «آفي»

قال: نعم وتابع من غير انقطاع «الهدف x1» سيكون في عين المدفع اليوم تحديداً الساعة الثالثة مساءً

-أرسلوه إلى الجحيم.. قال شارون: لا أقبل الخطأ آفي، وأغلق السماعة

اختيرت ثلاث طائرات من سلاح الجو الإسرائيلي للقيام بالمهمة، منهم اثنتان طائرتا تجسس واستطلاع من غير طيار وواحدة من

نوع اف 16 الأمريكية الصنع؛ للقيام بإلقاء ثلاث قذائف صاروخية بزنة نصف طن على الشقة السكنية التي ستخصص للاجتماع السري لقيادة الحركة

كانت عقارب الساعة تزحف ببطء ثقيل بعد الساعة الثانية بعد الظهر؛ مما جعل الأجواء خانقة لدرجة لا تطاق في غرفة العمليات العسكرية؛ مما زاد من اضطراب طاقمها الذي كان يخشى الفشل والفضيحة، إلا أن آفي كان يردد على مسامعهم ويثني على قدرة سلاح الجو الإسرائيلي الذي يملك أجنحة خافقة ومخالب قانصة...

أطبقت عقارب الثواني والدقائق والعقرب الساعاتي الرئيس على عنق الرقم 3 في الدائرة اليدوية «الساعة»

فظهر مباشرة أمامهم على الشاشة الإلكترونية المستقبلة من حجرة الطيار مباشرة انفجاراً هائلاً في عين الدائرة الحمراء التي حددت النقطة المستهدفة، ثم نطق جهاز الاستقبال بالكلمات التالية نفذت العملية (x1)، وأبيد الهدف

ضج الجميع بالقهقهات، وضربوا كفاً بكف، وجاءتهم التبريكات عبر الهاتف من قبل اريئيل شارون الذي أنهى طالباً إمداده بالمعلومات حول مصير الشيخ (x1)

فشل المتألهين

كانت التقارير الصادرة من غزة حول الموضوع متضاربة وينقض بعضها بعضاً، فقد تحدثت التقارير الأولى عن عدم وجود الشيخ أحمد ياسين في المكان المستهدف، وقالت تقارير أخرى بإصابته إصابات طفيفة، وتحدثت أخرى عن مقتله.. وعلى مدار أكثر من ساعة ونصف الساعة لم يصدر أي تصريح رسمي عن حركة حماس، ولم يعقب الاحتلال لا من قريب ولا من بعيد على الحادثة والتزم الطرفان الصمت...

وفي تمام الساعة السادسة مساءً، أي بعد مرور ثلاث ساعات قاسية بوقعها على أنصار الشيخ الياسين ومحبيه الذين يجهلون مصيره من ناحية، ومن ناحية أخرى على أعدائه الذين ينتظرون نتائج فعلتهم الإجرامية، ويخشون فضيحة الفشل لأعتى قوة تكنولوجية في منطقة الشرق الأوسط..

ظهر الشيخ الياسين في مؤتمر صحفي للحركة، فكانت الصورة أبلغ

رد بمثابة صفة شنيعة على خلفية الاحتلال البشع، والذي أسقط في يده وخاب وخسر بفعلته، ومن ثم صدر بياناً رسمياً باسم حركة حماس التي حملت الاحتلال ورئيس وزرائه ارئيل شارون المسؤولة المباشرة عن محاولة اغتيال الياسين، كما توعدت الحركة باسم ذراعها العسكري «كتائب القسام» الشعب الإسرائيلي بالرد المزلزل، وتدفيعه الثمن على جرائم حكومته بحق أبناء الشعب الفلسطيني، وذيلت الحركة بيانها بعبارات ورسائل موجهة للعالم محاولة بذلك استثمار الحادثة سياسياً وعسكرياً لصالح المقاومة الفلسطينية

أما حكومة الاحتلال التي تذوقت مرارة الفشل، وتجرعت ذل الفضيحة فلم يسمع صوتها على الإطلاق، والتزمت صمتاً مأكراً خبيثاً متربصاً كل متربص لفرصة ثانية قانصة

استندت عضد باب غرفة الضيوف، وهي تستمع للأخبار بذهول صاعق، وتنظر صور الدمار الكارثي بعيون ثرة، وقد ملأ قلبها الجواء، فدارت برأسها دورة فإذا بالسهم قد جن على من حولها، وأطبق صمت المقابر الرعيب على البيت وأهله، فخطت رسفاً باتجاه حجرتها إلى عزلة كتومة تفرغ في ثناياها رماد الأحزان وحطام الأحلام المتكسرة على مذبح غدرة ذئبية لثيمة، وبينما هي تذرع أمتار الحجر الأربعة روحة ورجعة وتضرب بكفين مرتجفين على رأس غزته جيوش الوسوس والظنون المقيمة جاءها البشير نبأ لو أن لها به حمر النعم، فخرجت في عقبه تتهلل حبوراً وتخطو رهواً وتهادياً حتى وقفت في وجه الشاشة التي كانت تنقل صور الشيخ

الحي.. فأطلقت زغرودة ثم لثمت محمد «البشير» بقبلات ساخنات
وقالت: تمنّ عليّ... تنل دون سؤال أو تقتير

- كانت دموع فرحهما قد امتزجت، وبسماتهما قد تعانقت، وقلباهما
قد سجدا شكراً وحمدًا لله العزيز القوي.. فقال بغير تركيز_ وقد
رأى عظم الفرحة الوارثة التي اجتاحت أمه_: حلواني وهديتي أن
عادت البسمة إلى هذا المحيا الطاهر، وأن عادت الحياة إلى قلبك
الروؤوم أماه

ثم حدثها_ وهي في غمرتها فرحانة_: لقد نجا الشيخ ومن معه
بأعجوبة ربانية، ولم يُصب إلا بخدوش خفيفة في ذراعه الأيمن.. هذا
حسب تصريحات أحد مرافقيه

-شلت أيديهم وأهلكهم الله قالت_ وهي تكفكف دمعات الفرح
المنهلة_، ثم عاودت تقبيله وهي تتلو قول الله عز وجل «وَمَكْرُؤًا
وَمَكْرَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ»⁽⁵⁰⁾، قال: «وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرُنًا
مَّكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ»⁽⁵¹⁾، قالت: قدر الله وما شاء فعل، هي
إرادة الله الرحيم بعباده اللطيف بهذا الشعب، ثم قالت في إجابة
على سؤال حار في صدرها: سيكون من الصعوبة بمكان زيارة الشيخ
أو لقائه في مثل هذه الظروف...

(50) قرآن كريم، سورة آل عمران: آية 54

(51) قرآن كريم، سورة النمل: آية 50

-قال: هو ما قلت أماه، من المؤكد أن الإجراءات الأمنية لدى الحركة اتخذت منحى آخر، وارتفعت إلى مستوى الدرجة الأولى من الطوارئ، قالت: قلبي يتقطع شوقاً ونفسي تتوق للقياءه، ولا أدري ما أصنع إذ إنه ترك الأمر بيده منذ لقائنا الأخير.. قال: سيتكفل الله بهذا.... المهم أنه نجا وهذا فضل من الله عظيم

- ونعم بالله، هو ما قلت فيني أفوض أمري إلى الله.. ثم قالت على غير عادة منها_وهي تمسح على وجنتي محمد، أتصحبني في رحلة بحرية؟، إني أتوق إلى ركوب البحر، أشعر وكأن ذكراه تجتاحني بجنون لا يقاوم..

-قال محمد قبل أن يسأل وكأنه يهتبل⁽⁵²⁾ الفرصة النادرة: أتعنين ما تقولين؟!

-لا بد من رحلة إلى عمق الماضي، ومن ثم إني أختنق من سامة المدينة وعكرها، أريد أن أفضي بنفسني إلى أفق لا ينتهي، وقد كنت قد عزمت على ذلك من قبل، وستكون أختك أم رمضان الثالثة ثلاثة لقد وعدتها بذلك...ومن ثم ألا يستهويك هذا الصيف المتجلي بروعته والمهفهم بنسائه النادية؟

-لم يعلق ولم يعقب بشيء فقال حاسماً أمره: ساعد للرحلة، فهناك صديق يبهر كل يوم بسفينة صيد متواضعة نوعاً ما..

-تبسمت ثم قالت: لا نريد يختاً فارهاً، ولا تابتك عابرة للبحار، ولو
كان قاربه الأثري قوياً على السباحة لما ركبت غيره فأى شيء يفي
بالغرض، ولا تماطل فالشتاء يحبو مُجداً ولن يهمل صيفتنا الرائعة
تزهو طويلاً..

قارب في بحر الماضي

أبحروا ثلاثتهم على متن سفينة صغيرة هي أشبه بقارب كبير من أن تكون سفينة، ربّانهم محمد الذي أدار محركها مولياً وجهها جنوباً في عرض البحر الأبيض المتوسط، فنادته أمه بصوت متثائب ما زال يصحو على مهل، دعها تحبو حبواً، لا تنهرها واترك الموح يبحرها والريح تقودها ببطء متناهٍ.. رفع محمد قدمه عن دواسة الوقود وأطلق للسفينة العنان وسرّح حبلها على غاربه.. وقال: ما تأمرين يا حجة..

التفتت الى ابنتها قائلة: قاربنا يسبح حرّاً، وأنت اسبحي في ملكوت الله، ولا تسأليني شيئاً حتى أحدث لك أمراً

كان البحر يزدحم بالسفن وقوارب الصيد وكأن الناس خرجوا على قدر، فضاقت نفسها فسألت بامتعاض: متى سنخلو والفضاء لوحدنا؟

رد محمد وهو ينفث زفيراً متقطعاً: لن نخلو البتة أُمي

رمقته بنظرةٍ فيها من الغضب والاستفسار ما يكفي لاستمطار
الكلمات منه

فأكد الأمر بتكرار ما ذرف آنفاً، لن نخلو أمني، فحصار البحر وتقليص
المساحة المسموحة للإبحار إلى ثلاثة أميال؛ جعل البحر مزدحماً، ولا
تكادين تجدين فيه مكاناً لشم الهواء والترويح عن نفسك، وكل من
تسوّل له نفسه اختراق الحدود المرسومة، طاردته الطرادات البحرية
الإسرائيلية، إما إلى اعتقال مديد وإما إلى موت محقق، ومن الجهة
الأخرى حرس الحدود المصرية ولا يقلّون سوءاً بل هم أكثر تجبراً
وأنكد سياسة...

اجتاحتها موجة حسرة قائمة، وجثم على صدرها أرق نكد، وشعرت
بنفسها تتحشرج ما بين أعلى أترابها وأسفل عنقها، فتملكتها العبرات
ودافعتها ولولا الحياء لأجهشت ببكاء حارق... لكنها أشاحت بوجهها،
وتحسبت على الظالمين وحوقلت مراراً، ثم همست على مسمع
منهما: شيء من الصبر، لا بأس فلن يقهرني حصارهم ولن يطفئ
لوعة الحنين المتقدة في صدري، وسأراه صورة حية في كل قطرة من
هذا البحر الخضم، وسأشتم رائحته في كل نسمة عابرة

تفهم محمد مشاعرها، وحزن لحزنها فهمس محدثاً نفسه.. لو أن لي
حيلة لأبحرت بك عرض البحر ولنهرت هذه السفينة حتى آخر هذا
الجوف الكوني وأسليت عن نفسك همها، وأسريت عنك عموات
القهر والحزن، لكنني مهيب مقهور ولا حول لي ولا قوة...

- قالت كلمات قاصدة ابنتها_وقد راقتها هداة من البحر وصفوة من بعد ازدحام_- وكأنها إجابات الكون والأقدار سمعت شكواها - لقد قال لي مرة إذ كنا منصتين للسكون وقاربنا يجوب بنا هذا الوجه البحري الأزرق المديد قال: «قوة البحر تكمن في هدوئه»، ثم عقبته بكلمة (وقد صدق جدي العجوز)، فعندما يهيج البحر ويلتطم موجه؛ فإنه يكشف لك ما وراء الاندفاع من إحياء بالخطر... وعندها عليك اتخاذ القرار الصائب، فإما تنسحبين قبل فوات الأوان، وهذا سبيل الهوان واختيار العاجزين، وإن اخترتِ المواجهة فإما أن تواجهي بأدوات التجربة وعلوم السباحة، فتقهرين الموج حتى يندثر ويذوي في غيب الشاطئ، وإما أن تنداحي عن سبيله وتتحاشين اندفاعاته، وهي طريق السلامة السهل لكنك عندها تفقدين روح المغامرة، وعندها لا تذوقين طعمًا للحياة، فالحياة دون مغامرة كالورود دون رائحة، والأسد أقوى ما تكون لحظة الإكمان الأخير في دائرة الهدوء أي ما قبل وثبة الافتراس الفاصلة بين النجاح والفشل، وما بين مصير الفريسة المنوط بخيط النجاة الدقيق الفاصل بين موتها وحياتها، فالضواري المفترسة ساعة الصيد، تُسبل أجنحتها ثم تنزلق في مسارب الريح من علٍ دون تجديف..

وبينما هي تفيض فكراً وحكمة، تراءت لها سفن عملاقة كأنها الجواري المنشآت، تجثم على صدر البحر، فسألت محمداً، فأجابها ندفاً سريعاً كأنه انتظر سؤالها.. إنها طرادات العدو وكمائن الموت

التي تصدر حرية سفننا وقواربنا، وتقنص كل من تراوده نفسه الاقتراب من تلك الكرات الحمراء، وأشار_ماغطاً ذراعه في الهواء_ ثم عقب على قوله: إنها بمثابة خط حدودي مائي لا يجوز لأي غزّي تجاوزه، إنها خط الموت أو الغياب المريد..

لقد فهمت الرسالة فقالت بعدما شكت ظلامتها إلى الله_ عز وجل_ بهمسات وجلة: طف بنا محاذاتها ولا تقترب، يظنون أن باستطاعتهم أسر أحلامنا كما أسروا أرضنا وبحرنا وسماءنا، ثم أردفت قائلة بشموخ_وقد أسفر وجهها وصفا_: إن مساكن أحلامنا البحور والسماوات والأراضين، فنحن خلفاء الله ورسله في الأرض وهم يعلمون بيقين لا ممامجة فيه أن هذا البحر ينقل أشواقنا إلى يافا عروس ساحلنا المحتل، وإلى حيفا إكليل كرمنا والى صفا والجليل الأخضر...وهم يعلمون لكنهم يتجاهلون، أن اندفاعات هذا البحر هي آهات أهلنا في مناطق الثمانية والأربعين المحتلة، وما زلنا وسنظل حتى التحرير نرضع من أئداء أمواهه دموع الشوق والحنين، ومتمص من حفيف سَريانه أنفاس العودة الساخنة القادمة لا محالة يوم لا صريخ لهذا العدو ولا نجاة...

- من المؤكد أنه طاف بك، وغاص بك في الأعماق البعيدة السحيقة، فهذه الحدود البحرية المصطنعة حديثة عهد

- زفرت آهات حرى قبل أن تقول: إن جد أمك يا محمد لا يعرف النهايات!! لم يكن لإبحارنا نهاية إلا خوفاً أنا من التيه في الأعماق

الممتدة من غير آخر، وكانت رحلاتنا يتعاقب عليها الليل والنهار
ومرات ومرات تتناوبها ليلتان متتاليتان أو ثلاث ليال بنهاراتها

- يبدو أنه كان يعشق البحر!

- كان البحر يعشقه وأظنه اليوم يفقدده

- ماذا علمه البحر؟ هل قال لك شيئاً عن هذا؟

- هناك حكمة قديمة كان يردددها «إن السير هو الذي يبتكر الدرب»،
وكان يتممها بشطر من حكمته فيقول: والبحر يكشف لك مجاهل
الغيب، ثم كان يفسر لي بشيء من التبسيط، إذ كنت يومها أنهد
ببطء على عتبات الحياة فيقول: عندما تبخرين على صفحة الماء
ليلاً فإنك ترين السماء بأقمارها وأجرامها تحت قدميك الحافيتين
المدليتين في الماء الساجي المتراقصتين من حول خشبة القارب.. البحر
يقرب إليك العوالم السماوية البعيدة ويجمعها في هذا الحوض
المائي الغامض الواضح في آن واحد؛ ليعلمك أن المستحيل لا وجود له
في هذا العالم الدنيوي... والأمر ببساطة صفاء ووضوح وسعة من
غير ضيق وفهم وانبراء، فتصبح مغناطيسياً للناس ومرآة مجلوة
تكشف الصورة الأصلية للحقيقة، وعندما تبخرين نهائياً فإنك ترين
أم الكواكب الشمس، قالتها ببسمة فيها من السخرية البسيطة
قليلاً وعلقت: لم يكن يومها يعلم كوكباً أكبر من الشمس، ترينها
تتبعك بانعكاساتها على صفحة الماء، فيأتيك دفؤها مبللاً، فتدركين أن

أعظم قوتين طبيعيتين أدركهما الإنسان بهداية الله له إليهما، وهما الضدان العنيدان «الماء والنار» يمكن للإنسان أن يوحدتهما في قالب الإرادة والفهم العليم، فيمتلك بهما قوة لا تُقهر «قوة الحياة» - وهل هناك قوة أعظم منها! - ثم أردفت قائلة بعد إصماتة قصيرة: لم أفهم سر حكمته زمنذاك، ولكني اليوم قادرة على قراءة ما وراء الكلمات التي رطن بها، وأكاد أجزم بأن مقاصده كانت المقاربة بين الأمل والأمل، فهما شعوران متضادان متعاكسان لكنهما بالامتزاج يصبحان قوة لا تقهر، فهذا يغذي ذاك... الأمل يدفع النفس للبحث عن الأمل؛ فتتقد النفس فتتقدح في جوفها شرارة الأمل، فيتحدان ويتلاقحان فيولدان بذرة الإرادة التي لا تلبث أن تورق شجرتها وتورف أغصانها، فتشكل ظللاً شعوبية، ثم تثمر أحشاداً جماهيرية قادرة على تفجير بركان مقاوم من تحت أقدام من صنع أملك وسرق أملك... بل إنهما يتعديان كونهما شعورين يختلجان النفس البشرية في تقلباتها إلى أن يشكلان أعظم الدوافع لخلق قوة قاهرة، وهما ميزان الحياة الدنيا وحافظها من الفساد ومجدداها من الملالة والتزهل على الدوام، وما التوجيه والبيان الرباني إلا إشارة واضحة على ذلك فقد قال الله تعالى «وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ»⁽⁵³⁾

فسنة التدافع هذه، قاضية بدفع الباطل بمعنى دحره ودفع الحق بمعنى دعمه، وقاضية بقهر المتسلط الظالم بمن هو أقوى منه، فمن

هذا الاحتكاك الميداني المواجهي أوحى التنافس على سيادة الأرض بشتى الوسائل، فسواء كان التدافع تطاحناً بالسيف أو تنافساً بغيره من العلوم المختلفة، سينتج عنه حالتان متضادتان، سيكون هناك قاهر ومقهور، قوي يشعر بنشوة الانتصار، وضعيف يلحق مرارة الذلة والهزيمة التي تلجئه إلى الشعور بالألم، والذي بدوره يؤسس بؤرة الأمل ويطورها بحسب حجم الألم وقسوته...

إن اليابان الآسيوي بعد الكارثة التاريخية التي أصابته نهاية الحرب العالمية الثانية، وسحقت مدينتي هروشيما ونجازاكي حتى الاندثار بتاريخ «6_9 أغسطس 1945.. عاد قوياً، فالألم الذي خلفته الكارثة كان دافعاً أساسياً للبحث عن الحياة عن الأمل بين ركام الألم والدمار

تبقى هناك قضية مهمة هي «عملية التوظيف» فالسواد الأعظم من الأفراد، وغالبية الشعوب تعيش حالتها الأمل والأمل بنسب وأشكال متفاوتة ومختلفة، ولكن ليس كل الأفراد أو الشعوب قادرة على إحداث تغييرات جوهرية حقيقية، ولا تحقيق الآمال العريضة التي تحلم بها لأنها تغفل «مسألة التوظيف» توظيف حالة الأمل في خدمة مشروع الأمل، وتجهل كيفية إدارتها واللعب بأدواتها، فتظل ترسف في قيود الأمل وتظل خرائط أحلامها رسوماً على لوح الهواء...

كانا يسمعانها بأذن طربة، كأنهما ينصتان إلى موسيقى كونية تعزفها ريح هبوب، كلما لامست وجه البحر فطنت بهسيس شعوري كأنه لغة كونية قديمة لم يبق منها الدهر إلا جرسها السحري الطروب...

كانا ينظرانها بالصمت، وهي تجود بإفاضة لا تعرف الضنين...

لم تمنحها الظروف الأمنية وحالة الحذر والترقب لمآتي الغيب رحلة هادئة وخالية من الارتباك، كما حلمت وهيأت نفسها لهذا اليوم، فغلبتها غصة _برائحة الاختناق وطعم المرار الدبق_ كتبت أزهار الذكريات وبراعم الشوق المتجددة التي اشأبت، ونهدت من أكمامها في حنايا صدرها، عندما عزمت السير على مضارب ذكراه، ومما زادها حَنَقًا وقرقًا ازدحام البحر بالقوارب العابثة، وإحراق السكون بأبواقها الراحدة، فأمرت محمدًا الذي لم يفاجئه القرار، بالعودة ولم يزل قرص الشمس أبيض حارقًا..

بكاء قبر

هبطوا الشاطئ فرأت أن في عقب النهار سحابة ضوء، فاستأذنتهما دون إفصاح عند مفرق شارع النادي ميممة وجهها غرب جاليا وهما قادتاهما خطاهما مرغمين إلى عزبة ملين حيث يسكنون .

راحت تمشي رهوًا وتقلعًا على الإسفلت، وبدا عليها حرص شديد بالسير على مناطق محددة، وإمعان دقيق في كل شيء قديم تمر عليه، حتى لفتت انتباه من حولها وأثار تطفل عيونهم، وهي لا تأبه لشيء وكأنها غابت عن الوجود وانقطعت عن الحالة، عبرت الشارع على طوله وعقلها رهينة بين فيكي المقارنة بين ماض حر سحيق وبين حاضر محتل أسير... بين ماض ببيوته الطينية وسقيفاته الشجرية وأزقته الترابية المتواضعة الآمنة ودوابه ودواجنه الأهلية الأليفة، وبين حاضر بأبراجه وبنائاته الشاهقة وشوارعه العريضة المخيفة المرعبة.. مشت على آثاره وهي تستنهض ذاكرة الطفولة وتحثها على اقتفاء أثره والدوس على كل ما مشى عليه حتى وصلت عند رمس قبره، فجثت منفجرة العبرات وبكت إجهاشاً ونحيباً

حتى اخضل الجيد منها والعنق وبكت عويلاً، وانهمالاً للدمع حتى
اغتسل الرمس وابتل ثراه، وبكت نسيجاً حتى أجش منها الصوت
وثقلت الأجفان، وقالت لنفسها بكثير لوم وتحسر:

ابكي فاطمة، ابكي فاطمٌ لعل الدمع يطفئ لوعة الشوق ويدفئ
برودة النسيان.. ابكي حالك السئيمة، حتى يعذر لك يوماً قد دنا
أجله واقترب موعدة..

المبادرة

كانت أحداث السنة الثالثة من عمر انتفاضة الأقصى تتصاعد ويتسع أوارها، والعدو يصطلي بلظى جهنم فتعاظم غيظه واحتد حنقه، فجعل من فوهات بنادقه ومدافعه مجرى للموت يصب في جماجم أبناء الشعب الفلسطيني الأعزل...

ورغم الألم الدافق في أوصالها كانت فاطمة معجبة بجنون، بشعبها الذي أصبح من القدرة بمكان مكنته من إنقان عملية إدارة الصراع، ومعرفة استغلال أدواته المتاحة بشكل علمي عسكري؛ مما أحدث نقلة نوعية وعملية خلقت توازن قوى، وكسرت قواعد اللعبة فتزعزت قواعد الرعب الصهيوني، وثلم مفهوم الجندي الذي لا يقهر... ورجحت دفة المقاومة في صراع الحق والباطل... ومن جانب آخر كانت الظروف والأوضاع الأمنية مقلقة بشكل مريب ومخيف، فحكومة الاحتلال ما زالت تنظر إلى شيخ الانتفاضة «أحمد ياسين» المطلوب رقم 1 للقتل على أنه أخطر شخصية على دولة الاحتلال في فلسطين... الأمر الذي يدخلها في حالة توتر نكد، كلما خطرت

صورة الشيخ وهو شهيد مسجى عند نهاية درب الجنة، وعلى عتبة بوابة السماء في انتظار الموكب السماوي الذي سيحمله على أجنحة ملائكية إلى مثواه الأخير.. يوترها هذا المشهد إلى درجة الهذيان.. إذا ما حدث قبل إنفاذ اللقاء الأخير بالشيخ لمعرفة فحوى وصية الجد العجوز، ورغم التماسها المعاذير لشيخها إلا أنها كانت تُحس بالجفاء والقلاء بأنه تركها معلقة عند عنق النهاية، هذا الشعور كان يصيب عقلها بالاستيلاء «الاضطراب» ودوامات العجز...وعلى حين فطنة منها تداركت سبيل المبادرة، فعزمت على ذلك قبل أن تأتي الحيرة على نفسها المتهاوية في أودية الظنون والارتياح فقالت لنفسها: لا ضير بشيء من التطفل وافتعال البله الذكي من أجل الحصول على مرادك أحياناً

عندما تختار درب الجنة وتجعله أولى أولوياتك في ظل ظروف _ مشابهة لظروف شعب فلسطين المحتل _ تفرضها عليك حياة الغاب، فتوجب عليك الانبراء لمقارعة غطرسة القوة، وتصحيح مسار التاريخ، وتصويب بوصلة فطرة الحياة فإنك تشعر بأن هناك قوة حارسة لك، وقوة موجهة وداعمة تضيء لك إذا أظلم الفكر، وتسنحك إذا وهن الظهر وتأويك إليها إذا ما تغول القهر...

خرجت من حميم حجرتها ويدها تلمح رأسها بالحجاب، وقدمها يغطسان في حذاء شتوي من الجلد وصوتها يسبقها منادياً محمداً وقف محمد بين يديها يلتقط أنفاسه _ بوجه تعب ضاقت أجفانه

ووسنت عيناه_ فألقى تحية متثابرة فردت عليه.. وعليك السلام
ورحمة الله وبركاته ثم سألته ما بك؟ الإرهاق والتعب يسكنان
عينيك!! ألم تنم من ليلتك؟ أم أنه ألم بك أمر أجفى نومتك؟

-لا عليك أماه... ما الأمر؟ أوامري يا سيدتي

-أريد مقابلة الشيخ أحمد...

تاهت نظراته في كلماتها المعدودة وانصعق سمعهُ من جرسها النزق
الحاد فدخل في ذهول مبالغت، فنهرته بإعادة عبارتها « أريد مقابلة
الشيخ» ما دهاك؟ واجم ذاهل، كأنك مصفوع على قفاك! انطق
تكلم...

-ها.. ها.. قال وقد انكشفت عنه سحابة الدهول.. لكن أومي..

- قاطعته لكن ماذا؟ قل..

-والله لا أدري بماذا أجيبك

- قل نعم، سأفعل.. لا أدري! لا أريد أن أسمع منك إلا مثل هذا
الجواب..

-أمي.. أنت أدري بالأوضاع القائمة أكثر مني

-لعنت الظروف... سحقا للظروف كل شيء ظروف، ظروف وضع

أمني خطير، حظر تجوال، إغلاق....

جسيم أسود من المصطلحات المقيمة المملة، ما لهذه الأمة عقلت أن تلد هي الظروف التي تليق بها كأمة فضلت على سائر الأمم واختيرت من بينها... لا أسف على أمة تقودها الظروف وتدير عقولها بردات فعل حسب سياستها وهواها، يجب أن نضع نحن الظروف، وعدونا هو الذي يجب أن يسكن دائرة الرعب والخوف، فنحن أهل الحق ثم أنهت بشيء من الهدوء وقد ذهب سَوْرَة غضبها: لا تعينني الظروف «يجب أن أراه قبل فوات الأوان»

تفهم محمد أمه دون أن يدري ما سر هذا الإصرار العجيب على لقائها بالشيخ، فقال بروية فيها من الشفقة على حالتها: أنت تدركين صعوبة الأمر أماه، لأن كل من تسول له نفسه السؤال عن الشيخ يتهم بالجاسوسية، ويقاد إلى مكان مجهول إلى أن يكشف الله غمته أو يقضي أمراً كان مفعولاً

- قالت باسمه: لكنك رجل موثوق عندهم، ولك من الأصدقاء والمعارف رجال لهم من المكانة ما يؤهلهم إيصالنا إليه

وأمام الإصرار المتوهج في عينيها وتبرم شفيتها وتمططهما، وتلك الارتجافة المتسارعة في كفها اليسرى، قال مرضياً: سأفعل ما بوسعي أماه ثم ولي ناكصاً يقني أذنيه وحادبة رأسه بيافته العريضة من رشاش المطر الذي بدأ يزخ بخفة وتقطع

بصيص أمل

أرضها ما انتهى إليه نقاشهما فرجعت إلى حجرتها، وما أن دلفت العتبة حتى صفتها نفسها الروحانية بشريط من اللوم لاتكاليها على غير الله في أمرها هذا.. فردت على ذاتها بقول جميل..

إنه الأخذ بالأسباب التي تبعد وتنفي التواكل فرسولنا الكريم محمد _صلى الله عليه وسلم_ يقول: اعقل ثم توكل وفي هذا جماع القول وأُس الفعل فالإعقال هو الأخذ بالأسباب بعد فهم دينماكية الحياة ومعرفة سير أزمانها وتقلباتها (القاعدة التي تمنح المرء القدرة على كشف أسرار هذه الحياة واستشراف غيباتها).

ومع ذلك وجدت نفسها بحاجة إلى لجأة ضارعة إلى الله _عز وجل_، فقامت من فورها فأصبغت وضوءها، ثم أطفأت النور المصباحي الوحيد للحجرة؛ لتضفي العتمة سكوناً يفضي إلى خشوع هي أحوج إليه اليوم من أي زمن آخر... شرعت في صلاة حاجةٍ واستخارةٍ نقلتها إلى حالة اتصال وانقطاع طال دعاؤها وابتهاؤها، ولم

تفرغ حتى انشرح صدرها وهدأت ثورة صدرها الجامحة على ظهر العجلة فحدثت نفسها بهدوء رضي بآية من القرآن المقدس «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ»⁽⁵⁴⁾ ثم أنشدت بوجل وترنم

أشكو إليك وإما يشكو المحب إلى الحبيب وانتهت الدعوة راجية: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا تجعل للشيطان علي سلطاناً ولا نصيراً»..

قامت تجوس في ثنايا البيت تحرق الوقت في أعماله اليومية، وروحها تتعلق بمآتي القدر وأجوبته، وعلى حين سرحة فكر منها في الغيب السماوي على سهوة درب الجنة الذي عبر بها بوابة السماء «القدس» ثم عرج بها إلى جنة السماء التي تهيأت لها في حلة خضراء وظلال وارفات، ويطوف على ملاطها غلمان مخلدون وتهتز طرباً على زقزقة طيور شاديات.. طرفها محمد بسلامه الحار واستأذنها وهو يبش بشاً..

-فاستنطقته على عجل_وقد رأَت سعادة تفيض من محياه_: قل يا ولدي ولا تؤجل هل وقعت على ضالتنا؟ ثم أشارت بيدها إلى فيه.. منهية.. ولا تقل إلا ما يشفي غليلي

-صبرك أماه... صبرك.. «إن الله مع الصابرين»

-قل...لا أريد درسًا في الصبر هيا تحدث ولا تماطل

-نعم. نعم. لقد وعدني أحدهم بأنه سينقل حاجتك إلى الشيخ الجليل ثم سأل متداركاً صحيح أمأه/ هل الشيخ يعرف القصة وما هو المراد من هذا اللقاء؟

-بلى أمي بلى.. ولولم تكن الظروف بهذا التعقيد لما تأخر في إبرام اللقاء كما وعد فهو معذور..

-أقدر بأن مساء اليوم أو صباح الغد سنحصل على رد، ما عليك إلا الابتهاال والدعاء حتى يجعل الله الرد كما تريدين، فيبرد صدرك ويشفى غليلك...

-أنا متأكدة من ذلك إذا ما وصله رسولنا فالشيخ مديون لي بهذا الوعد وإنجازه، وذلك بإبلاغي مضمون وصية العجوز «جدي المرحوم»

-هل لي أن أعرف شيئاً عن هذه الوصية التي ترددين سيرتها تكراراً، ثم تدارك طفله السافر قائلاً: إن لم يكن في ذلك إزعاج أمي...

-لا لا لكني لا أعرف مضمونها وما هو إلا حدس وتخمين يقول لي: إنها تتعلق ببوابة السماء وفيها دليلي على درب الجنة

- على فكرة_ قال_ كأنه وقع على شيء غاب عنه طويلاً: كم هممت بسؤالك عن القدس، وفي كل مرة ينسينيه الشيطان الرجيم

نبش الماضي

-ماذا تريد أن تعرف عن القدس، أظن بأني حدثتكم عن رحلتي إليها مع جدي..

-كم مرة حججت إليها؟

-مرتين وسأحج إليها ثالثة عما قريب بعون الله، المرة الثانية كانت بعد حريق الأقصى المبارك في 1968/8/21 بعدها بأشهر قليلة أعتقد في ربيع 1969م رحلت إليها لأرى رماد الحقد الصهيوني على مقدسات السماء، وأرى ما صنعته مخططاتهم الخبيثة للنيل من قبلتنا الأولى المقدسة، وإقامة معبدهم المزعوم الذي يحاولون «دحشه» في خاصرة التاريخ باسم الهيكل «بهتانًا وزورًا»..

كان لهذه الرحلة على قلبي وقع جسيم، فما أن وطأت قدماي باحة الأقصى المقيدة بسلاسل الاحتلال، شعرت بغصة خانقة وزاحمتني الذكريات، فجلت بنظري في الأنحاء ورأيت شبحه، وأحسست بروحه تصحبنى في يوميّ الأسيف ذاك... فرحت أسير على أثر خطانا البكرية

الأولى، فاشتعلت في صدري جمرة الشوق لأجمل ليلة مع يومين
تامين من عمري المديد... ثم تذكرت صديقة ودليلاً كان لهما أثر
بائن في حبي وتعلقني بالقدس سعاد المقدسية وعمر السلوادي

-من هؤلاء؟ لم أسمعك تذكرينهما قبل اليوم؟

-أما عمر فلقد كان دليلنا في رحلة الاستكشاف تلك، حيث صحبنا
يومنا الأول بأكمله، يعرفنا بتاريخ القدس وحضارتها وفي اليوم التالي
رأيناه على قدر فطلب من جدي_لما رأى منه دراية ومعرفة بالقدس
وتاريخها، طلب منه أن يعود من غزة في قابل الأيام ليعمل خادماً
بالأقصى ودليلاً... فعجبت من رد جدي عليه زمنذاك

- ماذا قال له ؟

-قال له بثقة المؤمن بالشيء كأنه يراه

لن يكون هناك أقصى يا ولدي!!

فشخصت عينا عمر، وتحشرجت الكلمات في صدره قبل أن يولي
مدبراً والفجيعة تطرده، وأنا متأكدة من أنه ظل يقاوم جهلاً سرمدياً
حتى تحققت نبوءة العجوز، وقد علمت في حجتي الثانية بأنه
مات شهيداً دفاعاً عن القدس التي سقطت تحت نير الاحتلال عام
1967م_رحمة الله عليه... لقد عاش قيماً على بوابة السماء، فكان
حقاً على رب السماء أن يمنحه وسام عبورها إلى جنته الخالدة

إن فراسة المؤمن عين من عيون النبوة، وإيحاء رباني يلهم بالغيب، ويستشرف ما وراء الأيام وفهم مقاصد القرآن السماوي من وراء سرد قصص الأمم الغابرة يغنى بمعرفة الأسباب التي تبني حضارة والأسباب التي تهدم حضارة، والجد العجوز كان من الفراسة بمكان جعله يجزم بحتمية سقوط القدس في هوة الاحتلال، بعدما سقط ما حولها من البلاد الفلسطينية من قبل، ولمّا رآه من تشرذم للأمة التي أصابها عزال الفرقة والتمزق النفعي الأناني، فكان ما تنبأ به بعد قرابة العقدين من السنين..

-وسعاد تلك ؟

-أما سعاد يا ولدي، حتى الساعة لا أدري أهى حقيقة بشرية أم ملاك سماوي جاءني في ليلتي تلك؛ ليعلمني شيئاً ما ثم انتهى إلى الغيب، فقد دَرَعْتُ حارة السعدية في القدس القديمة بحثاً عنها، واستوصفتها لكثير من النسوة اللواتي أجمعن على أن مثل هذه المواصفات لم تهناً بها فتاة بشرية وما هي إلا ملك كريم.. وهي كذلك والله أعلم

-لقد نكأت جروحك الغابرة أُمي، سامحيني ولكن ألم يحرك العرب قاطبة ساكنًا على احتلال القدس ومن ثم إحراقها؟ ما هذه الذلة البائسة ؟

ضحكت بماء فيها ثم قالت _بعدها غمرها حزن موجع ونزت من

محجرها دمعة صارخة_: الأمة يا ولدي انفرط عقدها بعد هدم خلافة الإسلام، وساحت في بوادي الزمان وقفاره، كقطيع تطرده أوباد وذئاب ولا كبش حصيف يدفع عن عقيرته.. أتدري يا محمد!!

لقد كنا ننشد زجلاً زمنذاك، وما زلت أحفظه وهذا الزجل يرسم لك حالة الأمة يومذاك، وقد تسلطت عليها طغمة من الحكام النفعيين والمأجورين، وملكوا زمام أمرها ثم أنشدت_ والبسمة تدافعها بحياء ورفق_ أبياتاً منها..

فراح محمد يميل ويهتز على رنينها من حمى الضحك حتى جثا على ركبتيه، ثم قال_ وهو يمسح دموعات انفجرت من عيون حارت في أمرها_ فلا هي تدري أتبكي فرحاً على هُزء العامة من سادتهم، أم هي تبكي ألماً ورفقاً على حالة أمة يرثي لها ويؤسف عليها قال: يا لك من امرأة محظوظة محفوظة.. لو وقعت بأيديهم زمنذاك لما كتبت لنا حياة هل يريد المظلوم إذناً بالتمرد على ظالمه؟ وهل يحسب الثائر للخسارة حساباً بعدما خسر الأرض والعرض؟

الإنسان بطبعه ثائر، يولد ثائراً على الجوع فيصرخ ويصرخ حتى يلتقم الثدي، ويثور على الألم فيصرخ ويصرخ حتى يُسكن الوجع، ويثور على لفافة القماش حتى يخرج يده معلناً رفضه للقيود ومصادرة الحرية، فمن روض هذا الإنسان الثائر ليقبل الخضوع والعبودية؟ وليفهم الحياة بسلبية على عكس فطرته الأولى التي ألهمت فهماً على نحو آخر..

-ومتى ستحجّين حجّتك الثالثة؟ وهل لي بمصاحبتك فأنا لم أشرف
بزيارة القدس إطلاقاً!

-تبسمت وانداح وجهها ينظر السماء_القائمة الموشكة على الانفجار
- من خلف درفة النافذة ثم نطقت بكلمات واضحة المبني ضبابية
المعنى... أعتقد أن سر حجّتي الثالثة يكمن في ثنايا الوصية، وعليه
فلن أستطيع اتعادك برحلة حجّيج إلى القدس...

- تنهد محمد وأظهر فهمه وتفهمه رغم جهله بما أوحى إليه،
فصرف النظر عن المسألة برمتها وقال_بعدها هم بالرحيل_ : إذن
ما علينا إلا الانتظار

جمر الانتظار

مرت الساعات ثقلاً وأقبل الليل الشاتي مرخيًا سدوله، ولم يرجع الرسول بعد، فاتسقت عليها ليلة رجيمة لا تنذر بولادة ملاك مبشر من خلف حجابها شديد السواد، فباتت تهجسها وساوس مقبته، وتفرش حجرات عقلها بأشواك الظنون، وتلبسها شيطان رجس بظن بهيم شديد الكر «بأن الشيخ سيقضي قبل لقائها»، فراحت تلوم نفسها على مماطلتها وتلكئها في إيصاله الوصية يوم التقته أول مرة... فلا هي أوصلتها إليه، ولا هي تستطيع فتحها أبدًا، فهذا إخاسة ونقض للميثاق والوعد، ثم هاجمتها فكرة مدفوعةً بقوة التطفل الغالبة على النفس بأن تفتح رقعة الوصية، وتقف على ما فيها... فقد تكفي نفسها مؤونة الانتظار والحيرة، وتعفي الشيخ من أمر قد لا يقدم ولا يؤخر ولا يعنيه بشيء.. أعجبتها الفكرة فأخرجت الرقعة من حقيبة يد صغيرة ولما أرادت فض رباطها تمثل لها ضميرها تاليًا قول الله _ عز وجل_ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ»⁽⁵⁵⁾ ثم

(55) قرآن كريم، سورة المائدة: آية 1

أردفها فصلاً من حديث الرسول محمد_ صلى الله عليه وسلم_ آيات المنافق ثلاث «إذا وعد أخلف، وإذا أوْمن خان» فانتهدت مرعوبة وأعدت الرقعة إلى حقيبتها، ثم اضجعت في فراشها تغالب نفسها بالوسنان على أرق عنيد؛ لعلها تغيب في نومة تأتيها بوحى نبوي يُسري عنها ضيقاً ما زال يطبق على صدرها، ويكشف قلقاً يقرع رأسها دون توقف... لكن ليلتها طالت بساعاتها العجاف، فتأوهت جنباتها تقلباً حتى أذن الفجر في الآفاق فقامت إلى ركن الصلاة المعين

لم تقلع السماء بل أثرت إمطاراً واشتعلت بريقاً وأطت السماء إرعاداً فُجِبت الخلائق الضحوة كلها حتى دنت ظهيرة يوم لا ينبي بخبر آت...

فجاءها محمد وهي تتكى عتبة النافذة المطبخية بذراعين مجدولين وتحاكي الأمطار المنهلة بعيون صامته

-السلام عليكم أماه..

-وعليك السلام. هل جد جديد؟

-لا.. لا جديد ثم سأل_ وهو ينفخ في قبضتيه المتكورتين طارداً برودتهما بأنفاسه الساخنة_ كيف كانت ليلتك البائدة؟

-تأففت بتذمر وقالت: رجيمة خالية من كل رحمة، عقيمة لم تلد جواباً، وما كان لعينيّ منها نصيب

- القلق ينهكك أمه وأنت امرأة مؤمنة بل صاحبة رسالة، وهذا لا يستوي أبداً ومن ثم ثقي بالله «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»⁽⁵⁶⁾

-أهذا من القرآن الكريم.. يا إلهي ما أبغضني لنفسي، وكأني لم أسمع بهذا التقرير الإلهي من قبل...أستغفر الله العظيم

تأخذنا متطلبات الحياة وأحداثها بزحمتها، فتتضاءل في قلوبنا «مسألة اليقين» والاستسلام لأمر الله، وينحسر مفهوم الإرادة الإلهية وتديرها وإدارتها لشؤون الخلائق أمام نزوات النفس ورغباتها، فنتوه ونتشعب في نفق الأسباب عند غياب المسبب عن ساحاتنا الفكرية والعملية، فتأتي النتائج عكسية أو منقوصة وغير مرضية، فنلقي اللوم على منظومة القضاء والقدر ولو التزمنا ما استطعنا (فالطبيعة البشرية طبيعة غافلة مائلة إلى الانقلاب والتمرد) لكان المسبب «المدبر في عوننا» ولردم الفجوات العميقة، ولترق التفاوت البوني بين النتيجتين (النتيجة المطلوبة المرجوة وبين النتيجة العكسية أوالإيجابية وبين السلبية)

-لقد فهمت منك قديماً.. بأن أصحاب الرسائل لا يموتون إلا بعد إتمام الرسالة وأدائها، والشيخ الياسين حامل رسالة وفكرة

-هذا صحيح، وقد أتم رسالته وأداها على أكمل وجه، فها هي الأمة تستعيد كرامتها وتؤمن بالفكرة ويمثلها في ذلك «رأس الحربة» شعب فلسطين الذي يترجم الفكرة قولاً وعملاً، ومن ثم فإني أرى من حول الشيخ ربيين كثر هم أهل لخلافته وإكمال مشواره

-قال مطمئناً مرفقاً: الشيخ لا يخلف وعده... ولا بد أن يرسل رسوله، أنا على ثقة تامة بذلك

-إذا أقلعت السماء وغيض الماء، اذهب فتحسس لي، فعقلي ما عاد يحتمل...

استقراء

انسلخت ثلاثة أيام بلياليها ولم تسفر ساعاتها الضئيلة عن وجه
 لنهاية التراجيدية النفسية التي تحتطم بين أضلاعها، ولم يرجع إليها
 محمد، كأنما غاب في دوائر الفراغ المنبعثة بفوضى مزعجة داخل
 جمجمتها وجوف صدرها، ولم يبق له من أثر إلارنين شحيح لصدى
 وعده، وطيف مشوش لصورة وجهه الخجولة لعجزها الطارئ، يوم أن
 رأته آخر مرة فزادها هذا الغياب غير المحسوب وغير المسؤول من
 قبل محمد تشنجاً نفسياً وأجثم عليها أرقاً منغصاً؛ قلب حساباتها
 وأدخلها في حالة من فقد الثقة بنفسها وبمن حولها...

فرأت المناسب في هذا اليوم الشامس وحتى لا تظل أسيرة المبهم
 والمنتظر، أن تزور ابنتها أم رمضان وديعة أسرارها، وحاضنة آلامها
 وأحلامها، لعلها تجد في زيارتها بعضاً من سلوى في صراخ أحفادها
 ومناكشاتهم البريئة..

-أراك متكدرة متجهمة يا حجة! بدأتها أم رمضان السؤال_وقد رأَت

من حالتها ما يقلق وما ينذر بهم مستطر _

- لا تجري الأيام بما تشتهيهِ نفسي، وأراها قد حادت عن صراط حساباتي، فباتت تدفعني إلى التنازل بعد انتظار عقيم شاخ وهرم

- ياااه الأمر جدُّ شديد صعب لك أن تفضضي وتحديثني أين وصلت برسالتك، وهل التقيت الشيخ مؤخراً؟ سألت _وهي عاملة بالجواب_ ولكنها أرادت أن تشاطر أمها حكايتها التي تحب، وأرادت أن تكسر جليد الهم المتصلب على حالتها

كانت أمها قد احتضت حفيدتها الصغرى، وأغرقت أنفها بين خصلات شعرها الثائرة بعبثية الصحوه من نوم طفولي تفركه _كأنها تبحث جرعة أمل تستنشقها من بوصلات البراءة المولودة تحت حمم الموت_، فغزة تدخل في حالة كارثية وتشهد مدنها ومخيماتها مأساة تاريخية، وقد أصبحت حقلاً لتجارب الموت التي تجريها قنابل وصواريخ القتل الصهيوني التي أحالتها إلى ساحة رعب يسكن الموت في هوائها ومائها وترابها...

- قالت دون أن تنظر إلى ابنتها لا.. لا لم ألتق به بعد، وهذا ما يقتلني حد الانتظار الجهول وسيف الإرباك والاضطراب والتطاحن بين فاطمة الرسولة المؤيدة بيد خفية، وبين فاطمة المخلوقة من عجل

- قالت أم رمضان بثقة: سيلتقيك

- من أين جاءتك هذه الثقة؟

تقولينها كأنك أحد مستشاري الشيخ، أو لعله مخبوء في ديارك وأنا لا أعلم!

-ضحكت أم رمضان بانفعال ثم تمت وصدى ضحكتها يذوي في الأرجاء.. يا ليته يشرفنا يوماً ما، فهذا يعد من المكرمات الإلهية، لكنني على ثقة مما قلت، فالرسل لا يخلفون وعودهم ولا ينقضون ميثاقاً قطعوه على أنفسهم وهما أنه وعد فسينجز وعده فطبيي خاطراً يا فاطم.. _أنهت بشيء من الدلال والمداعبة اللفظية_، وهي تهم قياماً لإحضار ضيافة كوب من الشاي الغزي المميز بحمرته الداكنة، وطعمه حلاوة زائدة ممزوجة بعبق دخان المواقد

شربن الشاي ثم استشارت الأم، وهي تمتص آخر سور لكوبها... ما رأيك في التمشي مع شموسة هذا الصباح على أرصفة جباليا؟

-ما كان لأم رمضان أن ترفض عرضاً كهذا.. تصيد به أكثر من عصفور، فمن ناحية قد يكون فيه تسلية لأمها، ومن ناحية أخرى ستخرج هي من حالة الاختناق المقيتة، والروتين اليومي البليد للحياة في ظل المحاصرة المتواصلة من قبل الاحتلال للقطاع...

خرجن متلفعات بعفافهن، وما هي إلا خطوات حتى انسربن في سيل من البشر، تدفق من بعد انحباس مطري إلى فم الشارع الرئيس المتدفق على حرارة شمس باردة...

خرج الناس زرافات وفرادى إلى أشغالهم بعد عطلة قسرية فرضتها حالة الشتاء والأمطار الاستثنائية التي استمرت لأسبوع انقطاع، فخرجوا متمردين على نظرية الرعب التي فرضها الاحتلال من خلال طائراته المفترسة الحائمة في أعالي الجو، ومن خلال دباباته المتربصة بمدافعها ومقاليها على الحدود البرية، ومن خلال سفنه البحرية الحربية الجاثمة على صدر البحر المتوسط (البحر الغزي)

كانتا يسترقن السمع، فتشابه جوهر النقاش بين الناس الذين تناولوا انتفاضة الأقصى وفعاليتها، وناقشوا العمل الاستشهادي وأطروا مديحاً وثناءً على أبطاله، وعلى الأذرع العسكرية لفصائل المقاومة الفلسطينية، وعلى وجه الخصوص الذراع العسكري لحركة حماس كقائد عز الدين القسام الذين استطاعوا بفعل إبداعاتهم الجهادية نقل الثورة الفلسطينية من طور التقليد وزمن ردات الفعل المعاكسة إلى طور الاختلاق والتطوير والمبادرة أي اختلاق أساليب جديدة في فنون الشهادة والاستشهاد وتطوير أدوات المقاومة على أسس علمية وعسكرية _قدر المستطاع_ والقدرة على صناعة الحدث ورسم سياسة الأمر الواقع بالمبادرة

ستبقى أي ثورة تراوح مكانها وتدور في فلك ردات الفعل المعاكس ما دامت جغرافيتها مستباحة ليس لها حدود تحميها

دخل إليها السرور، وسمات الارتفاع تابعت انبثاقاً من محياها كردة فعل طبيعية على ما يتناهى إلى مسمعها من أقاصيص افتخار

برجال المقاومة، واهتمام العامة وتفاعلهم مع الحدث وتناول آثاره ووجهها على العدو من جانب وعلى معنويات الشعب الثائر من جانب آخر.. إلا أن همساً معائباً يندلق من بين شفيتها كان يخفي وراءه تحفظاً ما، الأمر الذي دفع ابنتها للاستفهام عن تمتتها الملفتة، فقالت موجزة: لا شيء إلا أنني أرى أن ثورتنا تحلق بجناح واحد

ستبقى الثورة حالة من إثبات الوجود لا ثورة تحرير إذا لم تصبح ثقافة شعب أو أمة، ولا يمكن لشعب يثور بنسبة مئوية لا تتجاوز واحد/ ألف أن يصنع تحريراً

حاولت أم رمضان أن تستفهم مقاصدها من أن ثورة الشعب الفلسطيني تحلق بجناح واحد، إلا أنها صدتها _وهي تشير بيدها_ باتجاه ثلة رجال بلباس عسكري اقتحموا محلاً تجارياً، ثم خرجوا يقتادون شاباً ملتجئاً في سنوات العشرين من عمره، فأودعوه سيارة سوداء تحمل لوحة تسجيل تدل على أنها تابعة لأحد أجهزة الأمن الفلسطينية المنبثقة عن سلطة أوسلو.. ثم قالت:

-حسبنا الله ونعم الوكيل... كان الله في عون هذا الشاب، ولا أدري أهؤلاء جاؤوا ليسندوا ثورة هذا الشعب؟ أم ليحرسوا أمن يهود

-قالت أم رمضان: أنت تعرفين أمي، بأن أوسلو كالطوق من حول أعناقهم، ولقد رسم لهم خارطة طريق سياسية لا يسمح لهم الحياد عنها

-لقد جعل أوصلو منهم جيش لحد فلسطيني، كما كان للبنان لحدها ثم قالت الأم _بشيء من التذمر_:

أوصلو أوصلو.. إنه المأساة الحقيقية والأكثر مرارة التي لحقت بهذا الشعب؛ لأنها جاءت باتفاق ورضى من قبل ساسة هذا الشعب، وصادرت استحقاقه بالوطن والحياة على رضى وقبول من ساسة الشعب مهندسي أوصلو وصناعه...أما آن لهم أن يفهموا الدرس وأن يعوا بأن عدونا لا يفهم ولا يفقه إلا لغة الرصاص والحراب! وما آن لهم أن يدركوا بأن أرضنا المقدسة لا تقبل القسمة على اثنين، وأن انحراف الفكر وفلسفة الثورة لا يشرع باطلاً ولا يلغي حقاً!!

دار بهن الشارع بمنحنياته وبأرصفته دورته، وأخذن المحال التجارية والمعارض نصيبتها من تطفلهن، وقد صرفن تحت وقع أقدامهن ثلاث ساعات تامات، فرأت فاطمة أن يرجعن أدراجهن قبل أن تطبق السماء سوادها الذي أخذ يتراكم مثقلاً بأحماله...افترقنا عند رأس الشارع وما هي إلا مشية دقيقة حتى دلفت البوابة الخارجية لبيتها، فجهها محمد بالتحية ثم قال مواصلاً: «أبشري يا حجة» فاليوم سيأتيك رسول الشيخ بالبشرى

-أجاءاد أنت فيما قلت؟!

-هز رأسه ثلاثاً وبسمة فرحة تشق فيه

-اللهم لك الحمد، وغالبتها عبرة فنزت صافية تلمع كالدرة، ثم

تابعت قائلة برفق: الحمد لله الذي تتم بفضل الصالحات، وتجري
بأمره الأمنيات ولا يعلم الغيب إلا هو...

صلاح

وقبل أن تفنى سحابة العصر من يومها ذاك، وتغرق الدنيا في دكنة شاتية، ناداها محمد من خلف الباب مستأذناً ومُعَلِّماً بضيف يرافقه -قالت بما يشبه الهمس: وجهك وغرفة الضيوف أُمي، سأتيك على الفور..

دخلت والتحية تسبقها، وعلى يدها فنجانان من القهوة الترحيبية وضعتها على طاولة زجاجية صغيرة ثم قربتها منهم وهي ترحب وتحيي تكراراً، ثم جلست تتأمل شاباً في العقد الثالث من عمره، نبتت شعرات بيض وسط سواد كث عمّر وجهه؛ فزاده هيبة الرجال الصناديد واعتمر كوفية رقطاء بياضها بصيص وربيعها مشبع غامق...

وبينا هي تطوف ببصرها وتحوم بفكرها في الهيئة المهيبة، خاطبها قائلاً: اسمي صلاح، من جند القدس وأنا رسول الشيخ إليك، وقد أمرني إحضار وديعة من جنابكم

كانت كلماته تضرب زوايا دماغها وتعصف بأسئلة كثر، فهمت أن تقذفها عليه دفعة واحدة، لكن حياءها وعدم معرفتها بظروف ضيفها منعها من التطفل فقالت _وهي تسند قامتها بيدها منتصبة_ : على الرحب والسعة...اعذروني سأعود حالاً..

رجعت وبيدها رقعة جلدية، ناولته إياها، وهمت بالسؤال لكنه استبقها قائلاً: لقد أمرني شيخي إعلامكم أن لقاءكما سيكون يوم المهرجان الأعظم

أسعدها سماع ذلك وقد أجاب على سؤال مهم، لكنها كانت تحترق شوقاً لمعرفة حالة الشيخ بعد فشل عملية الاغتيال التي تعرض لها، فقالت قبل أن ينفد الوقت فيغادرها: خبرني، طمن قلبي على الشيخ...

قال _وهو يخطو نحو الباب وقد استأذن مغادراً يردفه محمد_ : هو بخير، ولم يصب بأذى وسترينه عما قريب بإذن الله

حمدت الله وأثنت ثم استودعته أمانة بتبليغ التحية للشيخ، غابا خلف الأبواب ليظل صدى طرقهما من خلفهما يضرب في صدرها وقد جلست تهجس مع نفسها.. يوم المهرجان الأعظم من المؤكد أنه يعني «انطلاقة حماس الكبرى 12/14» الذي يقام في ساحة الكتيبة الخضراء غرب مدينة غزة من كل عام... نظرت إلى رزنامة تاريخية معلقة على الجدار فقلبت ورقاتها حتى وقعت على التاريخ

المنتظر، فهزت رأسها وهي تتمتم ثلاثة أسابيع.. وكيف لي أن أصبر
على لظى الانتظار وحريق الشوق مثل هذا الزمن المديد؟

عاد إليها محمد وما زالت تتساءل بصوت يتردد في حنايا غرفة
الضيافة عن جند القدس، وهل صار للقدس جند؟ وهل عاد صلاح
الدين وانبعث من جديد؟

-إن كتائب القسام تعد فيالق وتدريبها للمعركة الفاصلة معركة
القدس، قال_وهو يريح جثته على كرسيه الذي ما زال يحتفظ
بحرارة جسده، ويمد يده ليرتشف ما تبقى من قهوة في فنجانه_

جند القدس

كانت كتائب القسام في قطاع غزة قد نَحَت منحى تاريخياً عندما قررت بناء جيش وعقدت له لواء باسم القدس، لتتنقل بذلك العمل الجهادي والفعل الفلسطيني المقاوم من حالة الارتجال والفردية إلى حالة العمل الجماعي المنظم والمدروس والخاضع لنظريات عسكرية لا تقبل الاحتمالات والتخمينات، واستطاعت أن تخلق من اللا شيء شيئاً، وأن تصنع من المحال حالاً، وأن تجعل من الوهم حقيقة مما أثار حفيظة كثيرين، فراحوا يُمكرون ويرصدون ويأتمرون ويتآمرون

-وهل أنت من بينهم؟ وهل للمرأة نصيب في هذا الجيش؟ سألت وريحة عتاب تفوح من عينيها

- تبسم ثم تجهم، فقالت: أجبني ولا تلمز ملزاً

-أنت تعرفين أماه، بأن الاحتلال ما زالت يده طويلة ولا يرعوي عن المساس بأعراضنا، هذا ولم نعطه سبباً لذلك.. فكيف إذا ما نهجت المقاومة الفلسطينية نهج الثورات العالمية وزجت بعنصر النساء إلى الخندق والمواجهة؟!

-أنا أخالفك هذا الفهم وسيأتي يوم،_ويجب أن يأتي هذا اليوم_
الذي ستشارك فيه المرأة بواجبها تجاه قضيتها المقدسة ليس فقط
بالكلمة إنما بالفعل وليس أي فعل !!!

-عندما تتغير الجغرافيا ويتغير الوجه السياسي للظروف قد يحدث
ما تقولين..

-لوت وجهها بامتعاض في إشارة منها إلى رفض نظريته التقليدية
لما سمعته على مدار سني الصراع الفلسطيني ومقاومته للاحتلال
وقالت معلنة انتهاء النقاش:

ثلاثة وعشرين يومًا تفصلنا عن يوم المهرجان الكبير، إنها تحتاج
إلى «براميل من الصبر وإطفائيات البلد كلها» لإخماد جمر الانتظار
الذي بدأ يَضْرَم في صدري -الله المستعان-

الوصية

جلس الشيخ أحمد ساهمًا ينظر كلمات صفت باعوجاج لاف
ومفتعل_ يبدو له ذلك من رسم الكلمات_ على رقعة نخرها البلى،
وسحق العتقُ معظم حروفها، قدّر أنها من جلد الجمال قدّت وعملت
لغرض الكتابة، وقد ظهر له بوضوح عند ذيلها الأيسر تأريخًا هجريًا
يشير إلى أنها خطت في رمضان 1375هـ

لم يستطع الشيخ قراءة الحروف الباهتة، ولم تسعفه عيناه الهرمتان
التدقيق والتحميص، فكان لا بد من الاستعانة بشخص حاد البصر
قادر على ملمة الحروف وتركيبها بأمانة وصدق، ولا تنقصه الثقة
وحفظ المضامين فطلب من خالد «أحد مرافقيه» أن يأتيه بعبد
العزیز على وجه السرعة

وقف عبد العزیز في حضرة الشيخ ملقياً التحية ومقبلاً لرأس شيخه،
ثم قال: اللهم اجعله خيراً

-انظر هذه الرقعة وحل شيفرتها..

-من أين وقعت على هذه الأنتيكة المعتقة؟ أهي من عهد الأولين؟
ثم تابع مازحاً أم أنكم حصلتم على العهدة العمرية وتنونون ترميمها
من جديد ومن ثم تزييفها؟

تسابت البسمات وخرجت عن الطوق فضجّ المكان بالضحك،
وزادهم انبساطاً قول الشيخ:

بلاش يسمعك ابوعمار ويقبضها جد.. !!

فضحكوا وضحكوا حتى ضحكت لضحكهم الأشياء، وكأنهم كانوا في
حرمان وعطش لمثل هذا الترويح عن نفس خنقها الحذر الشديد،
وعن أرواح يطاردها الموت والقتل

-قال عبد العزيز: وهل لدينا من الوقت ما نصرفه في هذا؟

-إنك تحرق الوقت في اللا شيء ولم تفدنا !!!

-يكفي أي أضحكت سنك شيخي فمنذ متى لم تضحك هكذا ؟

-أمعن النظر فيما بين يديك لقد استعنت بك لا لتضحكني، بل
لتكفي عيني تعب ساعة

-صمت عبد العزيز وصمت حتى غاب في أتون دقائق أمانتها
الصمت، ثم نطق متفاعلاً _ كأنه وقع على خير الدنيا والآخرة _:
والله إنها لنبوءة صادقة!!!

-قال الشيخ.. اقرأ علي ولا تهذ

-أمهلني رويداً

-لا رويدا، فقد حصد الشوق صبري، تكلم... يا لك من مشاكس
عنيد

تتنحج عبد العزيز وهو يعدل من جلسته بين فكي المقعد المنجد
وقد تناول نظارته وراح يمسحها بمنديل أبيض ثم أعادها من فوق
أرنبه أنفه بقليل، وبدأ يتلو دون توقف..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المطلع على أحوال العباد والعالم بمآل المصائر والآباد،
فمن شاء رفع ومن شاء خفض، ومن شاء أعز ومن شاء أذل،
والصلاة والسلام على محمد النبي ذكر أولاً وجاء آخرًا فمحا الله
به ما شاء، وأثبت به ما شاء، فصار سيد الأولين والآخرين؛ لتظل
في عقبه بذور الرسالة إلى يوم الدين...

من عبد الله محمود إلى عبد الله أحمد «حامل الرسالة»..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، لقد انقطع الأنبياء بانقطاع
وحي السماء، ولكن الله اللطيف بعباده جعل من بعدهم خلفاء
ورثوا الرسالة السماوية بأهدافها الدينية والاجتماعية والسياسية،
أكرمهم الله بالرؤية الصادقة والإيحاء والإلهام بالبصيرة النافذة

والسريرة النقية الصالحة... فهم أنبياء بالرؤية ورسل بالإيمان والعهد والميثاق لا ينقطع عقبهم حتى يرث الله الأرض ومن عليها ولقد منَّ الله على هذا الشعب «بأحمد» أنت ولا نزيك على الله لتحمل الرسالة، وتعيد الكرامة المسلوبة، فإذا بلغتك رسالتي هذه فتقلدها بما حوت ولا تغادر منها حرفاً، ولا تغفل منها صرفاً، وهي أربعة خامستها الخاتمة ولا زيادة...

1- سيتفرق الناس شيعاً، وكل شيعة ستسلك شعباً فاسلك شعب الوارثين وهم شعب حديث الطائفة⁽⁵⁷⁾، والزم غرسهم فإنهم مؤيدون وإن طال الزمان عليهم

2- سيحول الزمان ويجعل الله لكم منه قوة وسلطاناً، فتجتمع عليكم خلق كثير أشدهم مضاضة القريب وأبغضهم إليكم وإلى الله يهود وحلفهم.. فلا تصالح في المبادئ، وإن صالحت في الدم ولا تسالم يهود فلن يرضوا عنك حتى تتبع ملتهم، وإنهم لا يرعون عهداً ولا ميثاقاً، وكن منهم في خصام وعنهم في فصال حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً

3- ومن ثم إنني رأيت في منامي يوم حججت إلى بيت المقدس، وغفوت من ليلتي تلك عند سارية المنبر أن فقرة من فقرات عنقي

(57) قال صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله.. وهم كذلك»، قالوا: يا رسول الله وأين هم؟ قال: «ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس» أخرجه الطبراني

تنقلب «زيتونة معمرة» ضاربة جذورها في عمق لا قرار له، وهيئ لي أنها تموت واقفة فيتناثر زيتها قطرات تضيء كالمصابيح المسرجة، فتخرج من عين جذعها روح موشاة بالأخضر والحوار تطير بجناحين من نور حتى تصل قلب الدنيا (القدس)، وتعبّر بوابة السماء ثم تعرج حتى تحط على مرمى قراط من العرش السماوي

-وعلى حين خشعة منهم، كبرّ الشيخ الله أكبر الله أكبر - إنها هي !! إنها فاطمة إنها فاطمة

-قال عبد العزيز وقد توقف عن القراءة، وشخص إلى الشيخ ببصره.. ومن تكون؟ من هي فاطمة؟ ومن أين جئت بهذا الاسم ولم أت على ذكره البتة؟

-أكمل أكمل، أمره الشيخ قاطعاً سيل أسئلته

-قال عبد العزيز: هنا شيء لا أفهمه وأخذ يدقق النظر، ويحاول تدليك بعض التجاعيد التي أخفت حروفاً وأبهتت أخرى وبعد جهد مؤرق قال: يوجد هنا نصف سطر، لا..لا كلمتين فقط

4- ضمير حي.... ثم ترك فراغاً إلى نهاية السطر

- قال الشيخ مكملًا الشطر الثاني «يرقى شهيداً»

- نظر إليه عبد العزيز فأعاد الشيخ قوله:

ضمير حي - يرقى شهيداً

- كيف يا شيخي؟

- يرقى شهيداً فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون...

- صدقت والله ولكني لا أفقه من هذه الوصية إلا مقدمتها، وما تعلق بشخصكم وما أنا بتأويل الأحلام بعالم، ولا أملك من مفاتيح الألغاز شيئاً فخبرتني، يرحمك الله إن لم يكن في ذلك اعتباط

- بشَّ الشيخ في وجهه ثم قال: هل انتهت الكلمات؟

- آه..لا...إنها الخاتمة باقية

-قال الشيخ: اقرأها

- فقرأ عبدالعزيز بصوت فيه رجاء: يا أحمد لا تترك فراغاً في السلسلة واعلم أن نصر الله إذا جاء دخل الناس في دين الله أفواجاً «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً»⁽⁵⁸⁾

بكى الشيخ وبكى عبد العزيز والحضور من المرافقين يشهدون، ولا يدرون سبب البكاء المفاجئ الذي هجم على الشيخين...لقد علم الشيخان أن خاتمة الوصية هي للشيخ على فهم عبدالله بن

عباس ابن عم رسول الله _ صلى الله عليه وسلم_ لسورة العصر من القرآن المقدس التي نعى الله بها رسوله الكريم

-تدارك عبدالعزيز الموقف، فقال _بعدهما كفكف الدمع_: وما الذي يجعلنا نأخذ ما جاء في هذه الرقعة البالية من المُسلمات فقد تكون هرطقة رجل، أوأضغاث أحلام...

- قال الشيخ بثقة الموقن: لقد أوتي الرجل بصيرة، ورأى بنور الله الذي يمكنه من استشراف المستقبل، وسرد أحداثه وتصورها بأنه يعيشها بصورة تشبه الخيال

-من يكون هذا الرجل؟ وهل عرفته من قبل؟ ومن هي فاطمة التي ذكرت؟

- محمود الجبالي من آل النجار وفاطمة حفيدته

-أهي تلك المرأة «الحاجة» التي حدثتني عنها فيما مضى.. يوم التقيتها على قدر في مكتبك في المجمع الإسلامي؟

-هي هي وما أراها إلا هي الزيتون التي رآها في منام القدس، وسيجعل الله لها شأنًا، ويُعلي ذكرها ويكرم نُزلها ومن عرفها يدرك بأنها من المصطفين الأخيار...

-وماذا يعني إليك قوله «ضمير حي»؟ ولماذا أكملته ب «يرقى شهيداً»؟

لقد شح الزمان يا عبد العزيز، وصار أصحاب الضمائر الحية عملة نادرة، وهم كالدر لا يطفو على السطح، ويبقى في القيعان لكنه عندما يكتشف يبهز الأبصار ويسلب الألباب، وهم كذلك الشهداء أصحاب ضمائر حية متمردة على قيود الدنيا وملذاتها

-وهل أبلغتها بذلك؟

-لا.. لا.. ولا أظنها قرأت هذه الرقعة، فقد فضضتها ونفضت غبارها بمساعدة «خالد»، ولقد رأيت أن من الصعوبة بمكان أن يقرأها أحد بالطريقة التي قرأتها أنت

-كيف، وهل ستخبرها؟

-لقد واعدتها يوم المهرجان الأعظم هذا إن مد الله في الحياة وجعل لي من العمر بقية

-بعد عمر طويل - لساتك شباب يا شيخ

-أنت أعلم بالوضع والحال يا عبد العزيز، فإن لم أبلغ الزمان المنقطع بيننا فخذ مكاني وأخبرها بالذي قلته

-وما سيفيدها ذلك؟

-هي صاحبة رسالة ويجب أن تعرف أن جدها كان قد تنبأ لها بموتة مرضية، ومن ثم اعلم أن الله لم يجمعنا عبثاً، ولم يوافق رؤانا وفكرنا

إلا لسابق علمه بأنك خير خلف لحمل الرسالة، فإذا قضى الله فيّ أمره فأنفذ لذلك، ولا تتباطأ وصل السلسلة، ولا تجعلها مبتورة مقطوعة فينفرط عقدها

رؤية حق

أراد عبد العزيز المتابعة، لكن الشيخ استأذنه لبعض شأنه، فخرج من كان في المجلس وظل الشيخ في مكانه جسداً، لكنه ذوى في سنة من النوم عميقة، فرأى نفسه يسير في درب طويلة بعيدة على ظهر مركب بأجنحة تخفق، ومن حوله خلق عظيم، ثم ينقطع عن الخلق وقد وصل آخر الدرب ثم نظر نظرة في السماء، فرأى سحابات متراكمات شديدة السواد هبطت على رؤوس الخلق فتفرقوا شذراً مَذر... فلاحقتهم تقتل منهم زرافات وفرادى، ولم تنقش إلا بعد زمن وقد محصتهم وفاصلت بينهم، ثم رأى فريقاً من شِعْب الوارثين أسندت إليهم رسالة عظيمة، فعلقوها جهازاً نهائياً على وجه الفضاء، فرآها الناس فتبعها، وآمن بها خلق كثير ثم انحازوا بها إلى ركن شديد... فهجمهم أقوام عجم وعرب «فحزوا منهم الرأس والمفصل» ولم ينج إلا القليل، ثم عاد هذا القليل يتعاضم وينتشر سواده، وما هي إلا بضعة سنين حتى قويت شوكته وعظم شأنه، ثم جاء زمان انفرط فيه عقد الأحزاب، وانفض عن يهود فدخل القليل الباب على يهود، فأحدثوا بهم مقتلة كبرى، ثم اجتمع خلق على

هيئة جيش عرمرم، فعبروا بوابة السماء «القدس» ثم صلوا جماعة عند مسجد الصخرة المشرفة يؤمهم «مقنع»... وبينما هم في صلاة جهرية انهلت السماء من فوقهم بماء منهمر، فغسلت الأرض من عفونة يهود ومن نبت زرع يعجب الزُراع، سمت سنبلاته في نهارها الأول وأثمرت في نهارها الثاني، ثم انتبه الشيخ من غفوته على صوت عبد العزيز الذي عاد مودعاً...

المهرجان الأعظم

14 ديسمبر كانون أول 2003 الأربعاء المنتظر جاء ربيعياً في عباءة شتاء عطوي على غير سابقة من الزمن، ينذر بخير عرمرم محشو في مآتي نهاره...

أنصار حماس وجماهيرها أعدوا عدتهم وشحنوا الحالة الفلسطينية للاحتفال بهذا اليوم المبارك، الذي يشكل في ثقافة هذا الشعب المقاوم محطة لضخ شحنات جهادية، ومسرحاً تعبويًا لمفاهيم الثورة ومبادئها وبيان آليات إدارة الصراع وتطوراتها بالعرض المصور.. لكن فاطمة كانت في هذا اليوم حالة استثنائية مختلفة تمامًا عن كل جزئيات هذا البحر البشري المتماوج مع هتاف البطولة والتحدي... حالة انفجالاتها وتفاعلهما مختلف وغير متشابه؛ لأنها كانت تسعى وراء حاجة في نفسها، وبدخلها ثورة صامتة من الأسئلة والاستفسارات التي تشق منها الروح والجسد، فقد استقبلت هذا اليوم بعد ليلة طال سهادها وغلظ أرقها، فحمدت الله تعالى بعدما أسفر الصبح وتكاملت شمسها، وأذنت بدنوا الأجل «الموعد»، فقامت على عجل

من أمرها كأنها تخشى أن يفلت هذا اليوم من بين حرصها وحذرها، فساعتئذ ستأكل بعضها حسرة وندامة يوم لا ينفع الندم...

- محمد محمد نادت وهي تحت الخطى باتجاه غرفته التي لا تفصلها عن حجرتها إلا عدة أمتار من ممر مرصوف ببلاط منقش برسومات وردية غلب عليها اللون الزيتي اللامع، وثلاث درجات تُصعد الأقدام إلى عتبة الباب، نادت ثم نادت باسمه، لكنها لم تُستجِب إلا برجع صداها، طرقت الباب ثلاثاً فأجابها الفراغ بدوي مقذع، فدفعت دفة الباب فقابلها الفراش الخالي ثم دفعت جسدها بثلاث خطوات أخر جعلتها على طرف الفراش، فمدت يدها تتحسس أثراً للحياة، فوجدته بارداً لا حرارة فيه، فأيقنت أن صاحبه لم يبيت ليلته في مهجعه، فردت أمرها إلى الله...

ما كادت الشمس تتوسط عين السماء، حتى كانت ساحة الكتيبة تزدهم بروادها الذين قدموا من جنبات غزة ونواحيها، وأخذوا مجالسهم المصطفة بطريقة غاية في الروعة، فما احتضنتهم حتى صارت لوحة فنية مفروشة على بساط الساحة متباعدة الأطراف...

تجاوزت سور الساحة الملاصق للشارع، فإذا هي وسط بحر بشري يَوج بخضرة الرايات التي خفقت دون توقف على هدير صوت، وَّحد الحناجر فتناغمت أوتارها لتعزف سمفونية الفكرة (الله غايتنا) والرسول قدوتنا والقرآن دستورنا والموت في سبيل الله أسمى أمانينا)

تاهت الكلمات على شفيتها وبحرت عيناها عجبًا في المشهد المتألق على عين السماء، فقالت في حديث نفس هامس: ويح أمي أين سأجد شيخي في هذا الخضم البركاني المتأجج؟ ثم أردفت _وحالة من التيه قد تلبستها_: إنه الجنون والله أنقب عن إبرة في أكمة قش! يا لي من غيبة ويا لهذا الاتعاد الضائع في دوائر السواد المتداخلة!

ثم جلست متخذة مقعدها بين النسوة اللواتي يرددن بترنم طرب ثائر النشيد الديني والوطني المتوقد خلف مكبرات الصوت التي رجت الفضاء رجًا... لكنها كانت في شرود منكر هاجرة المكان في رحلة سهوم من البحث الشاق عن شيخ قعيد بين حجيج ما زال يتدفق إلى المكان، كمنز ثقال تطردها ريح كانونية ندية... وبينما هي تتنقل بعينها الحائرتين في كل الجهات، إذ بها تلحظ محمدًا ولدها مرتديًا لباسًا أسود، علق على صدره شارة بيضاء يلبسها فريق ضبط النظام.. فتبسمت فرحة _كأنها وجدته بعد ضياع أبدي_، كان يشق الصفوف إلى الجهة التي تحتضنها، فانتصبت لتحدث استثناء لعله يراها إلا أنه اتخذ مسلكًا فرضته خارطة المقاعد غَيْرَ وجهته، فتحركت من فورها تشق الصفوف _مخافة ضياعه من جديد _ دون تريث حتى التفتته فقالت قبل تحيته:

-يا لك من شقي! كيف هانت عليك أمك، فتركتها على عمى من أمرها يوم ميعادها !!

أنسيت أن يومنا هذا هو يوم التقائي بالشيخ !..

-لم أنسَ يا حجة، فصبرك حتى أنبئك الخير

- قل: لعل قولك يغفر لك...هات ما عندك..

- لقد أبلغني صلاح..صلاح الشاب

- قاطعته... أذكره جيداً - كيف لي أن أنساه..فقط قل..

كاد صبرها ينفد وهو يلهج بكلمات حابية باردة فنهرته ليعجل..

- لقد أخبرني صبيحة اليوم وهو يصطحبني إلى هنا بسيارته، أن لقاءك بالشيخ سيكون بين مغرب هذا اليوم وعشائه بإذن الله تعالى...وصلاح هوالذي سيقلك بسيارته إلى مكان اللقاء فلا تقلقي

-أرحت نفسي الغاضبة أيها العابث غير المبالي، حسبت أن الأمر قد ضاع في زحمة الأحداث ونهج المعاذير...

- احمدي الله أمني وقرني عيناً فالله يقدر الخير كيف يشاء

-الحمد لله في الأولى والآخرة اذهب بني وامض في عملك، سأرجع أمتع نفسي وأروح عنها قليلاً بهذا الانبعاث الجهادي الآذن بنصر الله ولو بعد حين...

اللقاء الأخير

تضاءل النهار وخبّت ضياؤه، واتسع سائر الغروب بشريط من غيوم تراكمت في الغرب تنذر بانبعاج ماطر، فبدأت الحافلات تنقل المنفضين من مهرجان الذكرى إلى محطاتهم الأخيرة، فكانت هي وجمع من النسوة قد هبط عليهن الليل في موقف السيارات العمومي وسط جباليا، بعدما أفرغتهن الحافلة لانتظار وسيلة نقل أخرى تقلهن إلى بيوتهن.. هذا الانتظار أدخلها في حالة من الهديان النفسي والاضطراب الخائف من وطأة التأخر، فبدأت تفرك كفاً بكف وتنقر بأصبع مرتبك على ساعة يدها في محاولة بائسة لإبطاء عقرب الدقائق الذي كان يقرع قلبها بمطرقة القلق مع كل دقة منه على عنق الساعة..

وبينما هي تحرق أنفاسها وروحها حسرة على معاكسة القدر لأمنياتها واستسلامها لأنياب الظنون، إذا بسيارة سوداء اللون من نوع «opple» تقف على بعد ذراع منها، وينفتح بابها فيظهر محمد مشيراً إليها بالصعود إلى جانبه

انفجرت أساريها، وثارت بسمتها.. كأنها هبط عليها ملاك سماوي،
فأنقذها من عبث الظروف وتلاعبها بمعنوياتها

استأذنت النسوة وهي تطرق باب السيارة التي انطلقت تشق عتمة
الشوارع بسرعة غير قانونية، ابتدأها محمد قائلاً_ في محاولة منه
اتقاء العتاب واللوم المتوقع من قبلها_ :بحثت عنك في البيت ولما
علمنا بعدم وصولك، أدركنا أنك أسيرة الانتظار في موقف السيارات،
فحالة المواصلات ليلاً سيئة جداً، ثم أنهى قائلاً_ مشيراً إلى السائق_:
هذا صلاح سيصحبك إلى موقع اللقاء...

- آه هذا صلاح، لقد غشمت علي، لم أشخصه بسبب العتمة

- كيف حالك أماه؟...نطق صلاح دون أن يلتفت إلى الوراء_ وهو
يحتضن الدولار بحرص شديد_

- الآن الحمد لله ودائماً «الحمد لله» لكنني قبل قليل ساورتني
سهام من الخشية المنغصة «الخشية من أفول الوقت»، وبالتالي
فقدان الموعد.. الأمر الذي سيبيكيني الحفنة المتبقية من أيام العمر..
علي أي حال لم تتأخر إطلاقاً، ونحن نسير حسب الخطة المرسومة

-لأهمية هذا اللقاء في إتمام رسالتي، أظل خائفة عليه من الغيب،
شديدة الظنون والهواجس بأن هناك شيئاً ما يتربصني ويسعى إلى
إبطاله..

عندما نحب شيئاً نريد أن تتجدد الأقدار والظروف وكل البشرية لتؤيدنا ولتدعمنا في حبنا حتى يتحقق وعندما نكره شيئاً نريد من الأقدار أن تعاديه ومن الظروف أن تعاكسه ومن البشرية أن تلفظه، باختصار ما نحبه يجب أن تحبه كل الأشياء والمسميات وما نكره يجب أن تكرهه كل الأشياء والمسميات... هل هذا ما يسمونه بالأنانية؟

-وقفت السيارة بعد رحلة عمرها خمس عشرة دقيقة في «زقة» شارع فرعي على أطراف مدينة جباليا من ناحية البحر..

كان المكان ساكناً تماماً، ليست فيه علامات حياة، بدا مهجوراً، طريق تراي ضيق وبيوت طوبية مهدمة، وما زالت رائحة القنابل والدمار نفوح من بين ركامها... أطفأ صلاح محرك السيارة وأضاء مصباحاً خافتاً في سقف السيارة، ثم التفت إليها قائلاً: من هنا سيقلك أناس آخرون إلى حيث ينتظرك الشيخ

- نظرت في عينيه وكأنها تتساءل...لماذا كل هذه الإجراءات؟ الهذا الحد صار من الصعب لقاء الشيخ ورؤيته!

كان محمد الذي التزم الصمت طوال الرحلة قد فهم ما يدور في رأس أمه، فانبرى قائلاً: ما زال العدو الصهيوني يترصد الشيخ والظرف الأمني يزداد سوءاً، ولهذا كان يفترض أن يبقى الشيخ وكل قيادات الحركة في مأمن بعيداً عن عيون الجواسيس والخونة

- هزت برأسها ثم قالت: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»⁽⁵⁹⁾...المهم أن ألقاه اليوم وأطمئن عليه فلم أره منذ حادثة الاغتيال المشؤومة.. لعنة الله على الظالمين

-قال صلاح_وهويخرج من جيب صغير في «تابلو» السيارة نظارة بلاستيكية كبيرة نوعاً ما، سوداء اللون يتدلى من ذراعها شريط مطاطي أزرق اللون_: هذا إجراء أمني صغير، فمد يده بتوقيع بالغ وأنهى قائلاً: ضعها على عينيك أماه

لقتها بيد مرتعشة من دهشة الموقف، وقالت _مغلوب على أمرها_: لا عليك لا بأس يا ولدي.. لا بأس

قلبت النظارة بين يديها قليلاً وتحسست عدساتها، فإذا هي من البلاستيك المقوى وشريطها القماشي من المطاط اللين، فتأففت تباعاً وتمتمت في حديث نفس: «أيخشون» من جانبي خرقاً أميناً أم يحسبونني جئت لاغتيال شيخي !! ولكن لا ضير فلا أملك إلا الصبر... وضعت النظارة على عينيها فعميت تماماً، فقالت بصوت فيه من العتاب ما لذع قلبِي محمد وصلاح: فلينته هذا الأمر بأسرع ما يمكن

لحظات من السكون الحذر خيمت على المكان الذي لا يسمع فيه إلا صفير الريح البحري المتجول في بقايا الخراب، خرقها هدير سيارة

تقترب منهم شيئاً فشيئاً، حتى وقفت من خلفهم وأعطت إشارة ضوئية ثلاث مرات، فنزل صلاح ومحمد من سيارتهم..فتح صلاح باب السيارة وأخذ محمد بيد أمه

وقال حذارك -على مهل-: أنزلي قدمك، الأرض قريية، فلامست قدمها الأرض فخشخش من تحتها الحصى، _فثبتتها بحركة نصف دائرية وأحنت رأسها قليلاً، ثم نهدت بهمة حتى انتصبت _قادها محمد بضع خطوات ثم قال: اصعدي بقدمك اليمنى، هناك درجة واحدة !! فعلت توجيهه بالضبط، فاتخذت مقعدها كان كرسيًا فارغًا، مما يدل على أنها تركب سيارة حديثة ودعها محمد قائلاً: في أمان الله سننتظرك هنا..

تحسست المقعد عن يمينها وعن يسارها، فأدركت أنها تحتله وحدها..

ناداها صوت خفيض وعجلات السيارة بدأت تتدحرج وتطرد سرعتها: حياك الله يا حاجة فاطمة

-حياكم الله وبارك فيكم..

-دارت بها السيارة سحابة عشرين دقيقة، والصمت سيد المشوار والصاحب في سفرتها، الأمر الذي جعلها جاهلة تمامًا أين وجهتها إلى الشمال أم إلى الجنوب أم إلى شرق أو إلى غرب! (عشرون دقيقة على متن مركبة حديثة تطوى الأرض كقيلة أن تجوب بك مساحة القطاع

من أقصاه إلى أقصاه)

قالت في خطاب نفسي مع السيارة: دوري دوري امتطي الأرض وابتغي منها نفقاً، وحومي في السماء واتخذي منها سلماً، غوصي البحر واستحمي في قاعه، لا يعنيني لا يهمني عليك أن تقليني إلى الشيخ وحسب

وعلى حين فجأة منها وقفت السيارة.. أطفئ محركها.. فتح الباب.. تفضلي أمه، لوسمحت أزيلى النظارة،

رفعت النظارة عن عينيها، وراحت تفرکہا بقبضتيها ثم فتحتهما عن آخرها، لكنها اصطدمت بعتمة حالكة فكل ما حولها كان غارقاً في ظلام دامس_مرت أجزاء من الدقيقة حتى أخذت عيناها تميز الأشياء وتبصر القريب منها... فرأت شاباً مملوءاً بقامة ممشوقة وبنية صلبة لم تستطع أن تميز قسمات وجهه، لكنه أمسك بشماله باب السيارة، وكان يمينه مصباح يدوي أشعله وهو يستأذنها بالنزول بشيء من الحذر

هبطت من السيارة على طريق حصوي وما هي إلا خطوة واحدة في عقبه، حتى ابتلعهم بهو خافت الإضاءة، ولا يكاد يرى من جغرافيته وتضاريسه شيء إلا المسار الضيق الذي قادهما إلى قاعة واسعة المساحة منارة ببعض المصابيح الكهربائية المدلاة من السقف، دهانها متهالك وباهت الألوان، ليس فيها من الأثاث إلا مقعدان

خشيان متقابلان في حالة انتظار وتأهب...

أشار إليها «الشاب» السائق بالجلوس وبالكاد قال كلمة تفضلي...

اقتعدت المقعد الملاصق لسارية مستطيلة الشكل..

ما هي إلا حفنة دقائق من الانتظار القلق، حتى انفتح باب من أقصى القاعة واندفع منه الشيخ على كرسيه المتحرك، ومن خلفه قامة بشرية مهيبه عريضة المنكبين سابل شعر الرأس كثة، بلحية طويلة عامرة، عيونه مخفية خلف نظارات سوداء زادت هيبته، ورجولة.. كان هذا حارس الشيخ الشخصي ومرافقه الذي يلازمه كظله...

- وقفت في حركة ترحيبية متشوقة للشيخ الجليل

-السلام عليكم ثم تابع قائلاً قبل أن يسمع رد التحية سامحيناً إن تأخرنا قليلاً يا حاجة

-عليكم السلام ورحمة الله شيخنا أبا محمد، والحمد لله على سلامتكم

-لا تؤاخذينا...لقد اضطررتنا الظروف الأمنية لاتباع إجراءات مبالغ فيها، وابتسم منهياً يريدون الهروب بي من قدر الله

ابتعد حارس الشيخ خطوات معدودة ليعطيهم شيئاً من خصوصية

القول...

- لقد استطعنا قراءة الرقعة رغم صعوبة حالتها، فقد أكل «العث» شيئاً منها فتهاكت بعض حروفها، وتشوهت كثير من كلماتها

(كانت تقول في نفسها: في كل يوم لحظة سحرية، وفي كل زمان تأتي لحظة سحرية على المرء أن يتربح حضورها، وإذا حضرت فليغتنمها فإنها لا تعود أبداً، وهذه لحظتي السحرية فلن أفرط بها - لن أفرط بها -)

-أعانكم الله شيخنا، فأنت تعلم أن عمر الرقعة مديد.. فمن الأعجوبة تماسكها كل هذه السنين

-قال الشيخ_وقد شعرت وأدركت بأنه انطلق مباشرة في الموضوع ويريد بناء النقاش على جوابها _ قال سائلاً: هل قال لك يوماً جدك العجوز شيئاً عن الضمير؟

-صحيح - مراراً حدثني عن الضمائر الحية السوية التي يجب أن تبقى حاضرة في حياة البشرية

إن الضمير الحي بين الناس بمثابة الروح للجسد والماء للأرض ومثابة الشمس للنهار والقمر لليل والكواكب للسماء

لقد كان يعطي هذا المصطلح أهمية كبرى، ويفرد له نصيباً من نقاشاته، ولم أذكر أنه فارقني مرة قبل أن يضع يده على صدري

ويقول: اجعلي ضميرك يقظاً، لا تقتليه بحسابات مادية لا فائدة منها، ولا تميتيه بضياح فكري ورؤية تائهة مشوشة...

- تلمل الشيخ في كرسيه ثم قال: صدق العجوز ولقد رسم لك طريقاً معبداً بالحكمة من المهدي إلى اللحد، ثم عقب بجملة «الأمنية الأبدية» _ بعد عمر طويل _

- الأعمار بيد الله ونسأل الله توبة سوية وخاتمة حسنة

- لكننا نواجه مشكلة حقيقية وكبيرة !!

-مشكلة ! خير إن شاء الله يا شيخ

- جدك العجوز...أوصى برؤية ما زالت فكرتها غير ناضجة في عقل الحركة «حماس»، وأبجدياتها تعارض الظروف التي لم تسنح لترجمتها على أرض الواقع في ظل الاحتلال، الأمر الذي سيجعلها تواجه معارضة ورفضاً شديداً في مجالس القرار التنفيذي والشوري لدى مؤسسات الحركة ولا سيما المؤسسة العسكرية منها

- شيخي.. حتى لا أكون حاضرة وغير حاضرة في هذا النقاش... من المفترض أن أعرف مضامين وصية الجدّ المرحوم..

- لقد قسم الوصية إلى أقسام منها ما هو متعلق بشخصكم فقد قص علينا مناماً رآه في زمانه أكاد أجزم أنها رؤية حق فيها شيء من نبوءة، مضى الشيخ يسرد رؤية العجوز ولما أنهى قال: أنت المعنية

بهذا فأنت شجرة الزيتون

-لثمت فمها بكفها دون أن تنبس بنت شفة

سمعته يتابع مؤكداً وهي في أخذة ما سبق:

- أحسبها أنت.. بل هي أنت الفتاة المعنية..ولقد استنبطت المقصد من بطن الرؤية واستشرفت ما وراء كلماتها من توجيه، الأمر الذي دفعني إلى القول إن ما يبغيه العجوز سيلقى معارضة شديدة عند أصحاب القرار

-إن كنت فهمت ما فهمت شيخي، فهذا يعيدني إلى سؤال يطاردني زمنًا عتيًا ولا أجد له جوابًا شافيًا لماذا حركة حماس لم تشرك المرأة الرجل في حمل البندقية ؟ بما أن الله _عز وجل_ جعل الجهاد فريضة عين على كل مسلم ومسلمة عند اغتصاب شبر واحد من أرض المسلمين، وهذا ما ينطبق تمامًا على بلاد الإسرائ والمعراج «فلسطين»

-المعارضة أو عدم إقرار هذا ليس نابغًا من دوافع دينية، إنما هي العوامل المحيطة بالقرار، أقصد واقع الصراع الجغرافي غير الآمن، والذي يفرض علينا عدم زج المرأة الفلسطينية إلى ساحة المعركة لأننا نواجه عدوًا لا يقيم للأخلاق الحربية أي اعتبار، ولا يرعوي عن المساس بالأعراض، وهذا جعل من الحركة أن تكتفي (في هذا الزمن الحاضر) بدور المرأة الاجتماعي ودورها السياسي إلى حد ما، وذلك

لحجم المخاطر التي ستجر عليها جراء مشاركتها المسلحة في الصراع، سواء كانت تلك المخاطر سجنًا أو هتكًا لعرضها أو حتى قتلها، فهذا ما لا طاقة لنا على هضمه واستساغته - كفانا الله- ومن ثم يا سيدي، نحن نخوض حرب استنزاف وحرب إحياء للمقاومة وإثبات وجود، لما نصل بعد إلى ثورة تحرير وحرب مفاصلة...

- لكنني صاحبة رسالة يا شيخ، ورسالتي لن تصل واضحة إلا أن تُرسم لها نهاية كنهاية شجرة الزيتون على رقعة الصراع، نهاية واقعية حقيقية لا نظرية، ومن ثم إن لم تكن حماس مقتنعة بالفكرة فيما مضى، فالיום ليس كالبارحة خاصة وأن الحركة تعاني كثيرًا من عجز الرجال وقدرتهم على التحرك خاصة في القطاع للرد على جرائم المحتل المتوالية فإني أرى بأن حماس بحاجة ماسة إلى إعادة النظر في قرارها واتخاذ قرار تاريخي يقضي بشرعنة الأمر في سياساتها وتعريفه وطنيًا - والرد بالفعل النسوي حتى يفهم العدو أن صراعنا، أصبح يحلق بجناحين يخفقان معًا في وجه التيار..

- لا أخفيك ولا أكشف سرًا إن قلت إن مؤسسات الحركة ناقشت مطولاً هذا الأمر، وقد حقق مؤيدو وأصحاب هذه الفكرة خرقاً في الموقف المتصلب إلا أن البون ما زال مارداً بين الرفض والقبول، وما زلت أشك بأن مثل هذا سيحدث في الزمن المنظور، ولكنني لا أنفي بأن الاستثناءات قد تحدث فلكل قاعدة شواذ...

- أنا لا أريد أن أكون أناية، وأطلب الاستثناء الذي نتحدث عنه،

رغم أني أتوق لذلك فلعلها تكون بداية لتأريخ جديد لنهج جديد، أنا أريد أن تتخذ الحركة خطوة جريئة على سلم الصراع، وتعطي للمرأة حقها الذي كفله الله لها من عالي سمائه ومن ثم ماذا تقصد؟ وإلى ماذا ترمي بقولك استثناء؟

- قد تفرض الظروف اضطراراً معيناً ومحددًا على صناع القرار في الحركة، يدفعهم إلى اتخاذ خطوة في هذا الاتجاه مقيدة بالكيف والنوع والزمن، ومهما كان هذا الضغط وحجمه، لن تلجأ الحركة إلى فتح هذا الباب على مصراعيه، بل سيبقى مواردًا ويخضع لحسابات عديدة

- وهل من المفترض أن تظل المرأة رهينة هذه النظرية المجحفة، ولا تستطيع أن تشارك الرجل الشهادة والاستشهاد؟ وإلى متى ستظل البندقية حكرًا على الرجل؟ وقد ديست الأرض واغتصب العرض

- سيأتي يوم تقف فيه المرأة إلى جانب الرجل في خندق التحرير، فأنا أرى من الواجب بمكان عسكرة الشعب، كل الشعب إذا ما أردنا خوض معركة التحرير، هذا قادم لا محال، لكن زمانه لم يحن بعد..

- رأت أن الوقت يحرق في نقاش متصلب، وأن الشيخ بدأ يتململ على كرسيه، وشعرت بأن ساعة استئذانه منها قد دنت، ولم يشف غليلها بل زادت حيرتها وتاه أمرها خاصة بعدما علمت بأن جدها العجوز قد جعلها في ذمة الشيخ الياسين المقيّد بسياسات وقوانين

مؤسساتية لا يستطيع تجاوزها دون قرار... فطرقها خاطر داه فرمت
بسهمها الأخير في محاولة صيد أخيرة - بماذا تنصحي شيخي؟ وأنت
تعلم خاصة بعدما عاشرتني وعرفت هويتي الفكرية، تعلم أنني لن
أتنازل عن رسالتي وقد اقتربت من النهاية...

- لا أقبل أن تتنازلي عن رسالتك، ولكنني أرى بأن تنتظري حتى يأذن
الله بأمره ويقضي بإنفاذها

- بماذا تنصحي؟ أعادت سؤالها في إشارة منها إلى عدم حصولها
على إجابة توافق رأسها - ولقد كانت من الكياسة واللباقة اللغوية
ما استقطرت منه الكلمات الآتية..

- فقال الشيخ بشيء من الحنان اللطيف الذي ينبئ بنهاية فاجعة
قريبة: لعلي لا أراك بعد يومي هذا، فإن لم يتغير قرار الحركة، ولم
تفرض الظروف سياسات جديدة تجعل من شأنك وأمرك مشروعاً
وميسراً في فكر خلفائي، فعليك بصاحب القرار وهو رجل ستجدينه
بين يديك عندما يحين القدر، ثم قال مستأذناً: سامحيني وادعي لنا
بحسن الخاتمة...

تقدم مرافق الشيخ آخذاً بذراعي كرسيه، وراح يدفعه باتجاه الباب
الذي دخل منه، وقبل أن يخترقا الجدار من فوهة الباب نظر إليها
الشيخ وقال بصوت مخنوق: (ضمير حي يرقى شهيداً)

تركها ورجع كلماته يتردد في المكان الخاوي، فراح لسانها يردد

كلماته ويمحصها ضمير حي يرقى شهيداً... ضمير حي يرقى شهيداً...
 وبينما هي في نزاع بين الواقعية والخيال وبين التناقض الآسف الذي
 لا تستطيع استساغته البتة، ناداها صوت قادم من فوهة «البهو»
 الذي قدمت منه، فتوجهت إليه وقلبها يخفق وعيونها تدافعها
 العبرات على شيخ قد لا تراه بعد اليوم، وقد ألهبته حرارة كلماته
 النازفة من جرح الأجل الآزف

رجل القرار

بعد مرور سنتين

-لم يكن الوصول إليكم ممهّدًا!! (لقد دخت السبع دوخات)، نذفت كلماتها في جو من الترحاب وتناثر البسمات، ثم اقتعدت كرسياً حديدياً، جاء في ربضته معاكساً للباب الذي أدخلها إلى غرفة رابعة الشكل، مزدحمة بالأثاث المكتبي القديم، ودل على قدمه بعض البلى الذي التهم أطراف الكراسي المنجدة وزواياها...

جالت ببصرها في ثنايا الغرفة، فوقفت به عند صورة للشيخ الجليل بلحيته الكثة البيضاء، معلقة على الجدار ومن حولها تناثرت حروف بالعربية.. هيئ لها أنها كتبت بدم الشيخ الشهيد

كانت عيون الرسم تحاورها باشتهاء وتجذبها إلى الماضي الطري القريب، فشخصت دون طرف كأنها في سجدة خشوع في محراب الشهادة الذي استمطر ماء عينيها فتدافعت مداراة من رحم الشوق المثلقل بالحنين.. هيبة وقورة تنبعث من حنايا «الرسم الشهيد»،

وبريق قادح بتصميم وعناد تقذفه عينونه الثائرة، وابتسامه الرضى آتية من خلف الصمت توحى بالحياة... فصاحت في أعماقها «والله إنه حي يرزق» وصدق الله العظيم القائل: «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»⁽⁶⁰⁾

ورب ميت واراها الثرى وروحه في العالمين ضياء

ورب حي يدوس الثرى وروحه في العالمين خراب...

- أهلاً وسهلاً بالحاجة فاطمة، ثم عاود الترحيب ثانية لما لم يسمع منها حساً ولا همساً.. أهلاً بك أماه...

- حياك الله يا ولدي.. لا تؤاخذني فقد شدني الشيخ...

- قاطعها قائلاً: لا عليك.. أعلم أنه الشيخ، فكل من يدخل هذه الغرفة تخطفه صورة الشيخ، بل أبعد من ذلك

- كفكفت دمعات حرى ثم همست بحبور باسم... أعتقد بأنه «الفكرة» التي أنبتت الحياة من أصل جحيم التيه، وفجرت نبغاً نضاحاً للمروءة في صحراء الذلة المجدبة

- صدمته كلماتها الجزلة البليغة فتساءل في صدره «أي عجوز أقابل يومي هذا؟ ما لي ولللسفة فكل الذي أخبروني به، أن عجوزاً

(60) قرآن كريم، سورة آل عمران: آية 169

تدعى فاطمة النجار تبحث عن شخص كني «برجل القرار» من قبل الشيخ الياسين، وقد يكون هذا الشخص أنا أو لا أكون

والآن أراني أجلس في حَضرة رزينة عقل وأدبية لسان..أكد لنفسه مرة أخرى..نعم هي كذلك فالمكتوب يقرأ من عنوانه.

- هل عرفت الشيخ ؟ أقصد عشرة عن قرب

-استأنف متداركاً سقطه لسانه فهل بقي حي على وجه البسيطة، لم يسمع بالشيخ وقد أعلا الله ذكره في العالمين؟ ومجد اسمه على ألسنتهم؟

- كانت تنقر سبابتها على زاوية الطاولة المكتبية، فما أنهى التعقيب على سؤاله حتى أوقفت النقر وانطلقت قائلة: إنك تسألني عن مشروع الإنقاذ الرباني لأمة غرقت في مستنقعات التيه منذ زمن بعيد...أنت تسأل عن عظيم يا ولدي، ومن ثم فأصحاب الرسائل يعرفون بعضهم البعض

- في نفسه العميقة تأوه ثم أقسم..آه... والله «الظاهر وقعتنا سخنة ..» ثم أفصح بشيء من الاستفسار المتشكك...أصحاب الرسائل !!

-أما سمعت ؟؟

- بلى بلى..ولكن...

- لم تمهله يغرق في خضم الشكوك والظنون فقطعت عليه: لقد كان الشيخ رسول هذا الزمن الجاهلي يدعو إلى العودة والنهوض، وهذا من تمام الرسالة المحمدية التي أنقذت الفطرة من جاهلية القدماء، ونهضت بالإنسان من وحل المادية والعدمية القذرة إلى أبراج الروحانية السامقة...

- تململ فوق مقعده وراح يعبث بعقب قلم فضي اللون بشعرات قصر لشاربه المحفوف، ثم ترك القلم وأسند طرف جبهته الأيمن وأسفل فكه الأيمن بالسبابة والإبهام، فجعله هذا الوضع في حالة تركيز قصوى، وقد أيقن أنه يجلس في حضرة «الحكمة» ثم قال باستفزاز مفتعل فيه من التطفل المفضوح: صدقت فيما قلت بحق الشيخ الشهيد فالأمة تعتبره مجددتها في قرنها المنصرم، أما الحاجة فاطمة فما شأنها والرسالة؟

تجاوزت عن قصد منها عن صفاقة بادية في قوله: فهي بحاجة ألا تفسد هذا اللقاء وقد انتظرتة العمر المديد وآثرت أن تمضي إلى غايتها دون الالتفات أو الانجرار وراء استفزازات القول المفتعلة، فقالت: كل في عنقه رسالة.. فهناك من يقوم بدوره فيؤديها كما أمر فهو رسول مؤتمن قد أدى الأمانة، وهناك من يغفل عنها فهو مقصر ملام، وهناك من يحرفها ويزيفها فهو كفور ختار... ولقد ولدنا ورسائلنا معقودة في أعناقنا بمفاهيمها السماوية وبياناتها، ولقد قال الله عز

وجلـ في الذاريات «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»⁽⁶¹⁾ والعبادة ليست مقتصرة على الشعائر، إنما هي المدنية والحضارة والحرب والسلم وسنة الدفع والتدافع، ولكل هذا أدوات وأساليب شتى ومبادئ وأسس متنوعة كلها توصل إلى متطلب الرب من إعمار الكون الدنيوي على قواعد الصلاح ليعمر بذلك الغيب الأبدي... وأنا واحدة من بشرية متوالدة أحمل رسالتي... ولقد حباني الله بعجوز فريد بحكمته غزير بعلمه فتغمدي وأغدق علي مما أتاه الله، وذلك منذ نعومة أظفاري فأوضح لي المسار بالقول والعمل وأرضعني صغيرة... بأن الرسل على شاكلتين، صنف يؤدي رسالته بمعية الوحي حتى يقضى الله أمره وهم الأنبياء والمرسلون_عليهم صلوات الله وسلامه_ وصنف لا تتم رسالتهم إلا ببصمة أرواحهم عند نهايتها... وهم الشهداء

- يا حاجة... والله لا ملالة ولا سامة بحديثك ولكني أفهم قليله
ويبهم علي جله

- سأريحك يا ولدي، وأختصر القول... تركت فاصلة من الصمت ثم ندت عنها آهة ساخنة شعر بحرارتها على بعد المتر المسافي الفاصل بينهما، فأدرك أذيته لها بقوله، فوقف عقله عند نقطة جامدة من اللوم لنفسه فهَمَّ بقول رقيق، يستمطر من فيها آهة راضية ندية توحى بالمغفرة، لكنها صفعته قائلة: أريد الشهادة !!

- فغر فاه واتسعت عيناه ثم طأطأ رأسه جاعلاً ثقله على قبضتيه المنغرستين بين حنجرته وفكه السفلي، ولم ينبس ببنت شفة كأن لسانه ما عاد يمارس وظيفته

- فطرقته ثانية: ما بك واجم كأن صاعقة نزلت بك...أما سمعت قولي؟ أولعلك تقول عجوز خرقاء راقتها الفكاهة في غير مكانها وزمانها، أو لعل عندك خبر بأن الجنة لا تَخْطُبُ عجائز، ثم أنهت وابتسامة داعبة تفتت ثانية عن كلمتها الصاعقة..أريد الشهادة...

- رفع رأسه طارداً الطاطأة الثقيلة فنظر ونظر في عجوز تلفها الحماسة بدرعها، وعيناها ترمي بوهج الإصرار، فقال بحذر متلعثم: لقد فاجأني ما قلت

-وما المفاجئ في قولي يا ولدي؟

- خالد، نادني خالد أماه

- وما المفاجئ يا خالد، أهني حثالة عقلي؟ أم الشيخوخة التي احتطبت عود الشباب ولاكت لحاءه؟ أم أنك تراني أسير عكس التيار أو لعلك تريدني أن أتقبل اليوم ما رفضته زمناً مديداً، وتمردت على الواقع والعادة، فلست أنا التي تتقبل «الجلوس في معادن الإبل تجتر حسرتها اجترار النوق البواد» في زمن طغى فيه الباطل وعربد...أفصح لأملك، حتى أسدد جوايي وأرمي ببيان يشفي تفكيرك، ويزيح غشاوة المفاجأة التي تلبستك...

- هل سمع شيخنا الشهيد مثل هذا الطلب منك من قبل؟

سأل بفظنه وذكاء موارد... في محاولة هروب من لسان قد يجرح موضعًا لا يبرأ بعدها أبدًا

- تحفظت بصمت على مواردته والتفافه الفطن فأعمدت سهامًا غضبي كادت تُقلع من جعبة الانتقام والانتصار للذات، فقالت -وهي تيمم وجهها شطر صورة الشيخ-: رحمه الله وتقبله في الصديقين والشهداء..لم يكن شيخنا بحاجة إلى سماعها صريحة من فمي، فقد أوصى بها !!

ودون تردد سأل.. من أوصاه ؟ عفوًا عفوًا إن جاز السؤال..

- لا بأس يا ولدي..لكنها قصة متفرعة، وفيها من التفاصيل ما قد يزعجك، وقد أخبرني من جاء بي إليك بأن وقتكم متزاحم الأشغال ولا يحتمل الأفاصيل...

- لا عليك.. إن لم يكن هناك من تحفظ، فأني متشوق لسماع هذا ولو بإيجاز غير مضر ولا مخل

- منحت نفسها هنيهة من التفكير قبل أن تجيب ثم قالت: خير الكلام ما قل ودل..كانت وصية جدي العجوز لشيخنا الشهيد من خلال رؤية رآها، ولكن ليست هنا الإشكال أو بالأحرى هناك مشكلة أكبر

- ألا وهي؟... استفسر وهو يأخذ هيئة أخرى في مقعده وكأنه يستعد لتلقي صاعقة أخرى

- أن أكون شهيدة أو استشهادية صار أمرًا مقضيًا ولكن..

- استبقها قبل أن تتم كلامها، فهولا يريد أن يقفز على أمر لم يقره بعد، بل لم يناقشه بالشكل المطلوب، لا معها ولا مع أولي الأمر وأهل الرأي، فقال: ومن قرر بأن أمر استشهادك صار حتمًا مقضيًا؟

- فأومات برأسها إيماءة الواصل من مآتي الأيام، ولم تفض بشيء حول هذا وأردفت قائلة: إن الإشكال الأعظم هو ما وراء حروف الوصية وكلماتها

فهي ترمي إلى ما هو أبعد من استشهاد امرأة مثلي

- إلى ماذا ترمي أماه؟ سأل برفق عجل

- إلى أن أنتزع حقي منكم

- منا؟ من نحن؟ ومن أنت؟ وما هو حقك المغتصب والمسفوح على أعتابنا؟

- أنتم الرجال، وأنا المرأة، وحقي... آه يا حقي... حقي السماوي...

- لعلك تتحدثين عن مساواة المرأة وتحريرها؟ _بشيء من الفكاهة

أنهى تعقيبهِـ

- نعم... المساواة التي فرضها الإله، لا المساواة التي يطالب بها
الشیطان..

- لقد ضمن لك الإسلام حقوقك الاجتماعية والدينية والميراث وووو....

- لكنكم في هذا الزمن اغتصبتم حقي في الإرث

- عن أي إرث تتكلمين؟ فما عرفناك من قبل

- أطلبكم بإرثي في الجهاد والاستشهاد... فلا تتغافل تجاوزاً وتعمداً،
تابعت وقد ازدادت الحدة في صوتها، فأوجس مهابة في نفسه فأثر
الإنصات حتى تنهي،.... لقد فرض الله على عباده الجهاد وبين
أحكامه وشروطه، وجعل العباد سواسية في ذلك، فجئتم أنتم
بمفاهيم هضمت حق المرأة دون الرجل تحت معاذير ما أنزل الله
بها من سلطان، فتذرتم بالمنطق والواقع والظرف.. هذا لا يضمن
ولا يغني من الحق شيئاً

- لا فض فوك أماه، ولكن أين فقه الواقع! فلكل زمان فتواه، التي
تفرضها تصاريفه وأولوياته بما يضمن القطعي من الأصول، ويعطي
المساحة للعقل ليحتكم في المسائل التي يحدثم فيها الحال وتحيط
بها الظروف المؤثرة، فتضعها في دائرة القياس، وتخضعها لكثير من
الاحتمالات ووجهات النظر التي يفرضها واقع ما... ومن ثم من

هذا الذي يجرؤ أن يصادر حقاً منحه الله لأي من عباده؟ ولكن المسألة كما أعتقد مسألة إرجاء، فالظرف غير مناسب اليوم قد يصبح مناسباً غداً

وما تحجبه الظروف اليوم قد تفرضه ظروف الغد، وهذا تماماً ما ينطبق على واقعنا الفلسطيني، في خضم هذا النقاش الساخن طرق الباب ثم انفتحت دفة منه، فظهرت منها يد تحمل صنية بلاستيكية عليها كوبان من الشاي المتصاعد بخاره الفائح برائحة النعنع، اندفع الشاب العشريني إلى جوف الغرفة بعد التحية والاستئذان، فوضع الصنية على الطاولة، ثم ولى منصرفاً من حيث أتى تاركاً دفة الباب من خلفه منشرحة للهواء...

-تفضلي أماه

- بارك الله فيك

- سادت حالة من الهدوء جوف الغرفة ولم يسمع إلا رشفات الشاي المتتالية، وغاب الجدل غيبته، وكأن أهله ذهبوا يتمشون على شوارع الفكر قليلاً.. لعلمهم يعودون بحكمة لقمان

- كانت رشفته الأخيرة مفتاحه للانطلاق من جديد، فبادرها قائلاً:
أتمنعين أماه أن يشاركنا حديثنا هذا جملة من رفقائي

- هزمته ورب الكعبة، فيريد أن يتقوى عليّ برفقائه، تمتمت في نفسها

الباطنية بهذا_وشيء من دغدغة النصر الفرح راحت تهز كيانها_

ثم حاورت نفسها مرة أخرى، ورأت بأن القدر ساق لها فرصة لا تقدر بثمن لكي تطرح عقيدتها، وتحارب من أجلها في حضرة ثلة من الرجال، ولا ريب أنهم من صناع القرار ومن دائرة الفعل والتنفيذ... فهذه مكرمة من الله الذي أسأل أن يعينني ويؤتيني حكمة الإقناع وقدرتها لتنتهي رحلتي على درب الجنة على الوجه الذي أرضاه ويرتضيه.... فقالت مغتمة قوله وقبل فوات الأوان: لا..لا أمانع فهذا من دواعي سروري

في حضرة صورة

قام من فوره فاستأذنها دقائق معدودة، سحب الباب في عقبه، فخلت لها الغرفة، فقامت من مقعدها لتخطو بضع خطوات بتؤدة، فوضعتها في حرم صورة الشيخ المتهجد برسم ما زال ينبض بالحياة، أطالت النظر في عينيه، وجالت في أعماقها فتملكتها حالة من الاتصال الذاكري، ضربتها بسحابة حبلى بأسئلة وأجوبة، كأنها في حالة تلقٍ من الشيخ الشهيد، فقرأت في بصيص عينيه إقراره على صنيعها وتأكيداً منه لها على تواجدها في المكان الصحيح في الزمن الصحيح، وبينما هي في حومة فكر على جنبات الذاكرة، سمعت قرع أقدام تمتطي درجات السلم سبيل الغرفة الوحيد، فهمست وهي تعود لتقتعد كرسيها - : هكذا هم الشهداء أحياء في صورهم، في ذكراهم، إنهم يراقبوننا من خلف الحدود اللامرئية

كانت أصوات رجولية تندفع باتجاه مسمعها من خلف الباب والجدار.. ينتابها جدل يقطع الكلمات والجمل إلى إنصاف فتفهم بعضه ويبهم عليها تاليه

بداية النهاية

طرق الباب نقرًا بأصابع منفرجة، ثم دفع فانفتح على مصراعيه،
فاندفع من فمه عصبة من الرجال يسلمون بالتحية واحدًا بعد
الآخر..

خمسة من الرجال الأشداء نبتت في وجوههم أشعار منها ما
ابيض شيبة فزاد صاحبه وقارًا، ومنها ما احتفظ بسواده فدل على
شدة الشباب وبأسه... أجسامهم صلبة بنّتها العسكرية على أسس
وغذتها على طعم الهدف وروحه، ومما زادهم هيبة وجمالًا لباسهم
العسكري المبرقع الذي جعل منهم قطعة عسكرية من جيش بدأ
يصنع على عين الله ويتشكل من العدم..

شكلت الكراسي المتلاصقة من جلستهم هلالًا، وكانت هي كالنجمة
الموصولة عند فم الهلال.. فرسموا معًا بعفوية تلقائية شعارًا لخلافة
قد تلهها حقبة زمنية ما زالت تحبو على مهاد الغيب البعيد أو
القريب

...بدأ خالد معرفًا تيمناً بالسنة المحمدية الشريفة... هذا محمد وهذا سعد وهذا إبراهيم وذاك عز الدين، وهم أبناؤك منذ اللحظة

- بقم واحد قالوا: ونعم الأم أنت...

- بوركتم - نزت كلمتها من بين شفتين مرتبكتين_ أربكهما شعورها الطارئ بأنها في مجلس عسكري مصغر، انعقد لتوه، لاتخاذ قرار مصيري لحرب أو سلم.. وقبل أن تضيف راحت تزين في صدرها الكلمات، وتخير الأجوبة لأسئلة محتملة ومفاجئة....

- أردف خالد قائلاً في هدوء متناهٍ: لقد حدثت إخواني بكل حيثيات نقاشنا السالف، لذلك سأبدأ من حيث انتهينا، بسؤال الآتي...

ماذا قال لك شيخنا الشهيد ردًا على طلبك للاستشهاد ؟

- لقد حاورت الشيخ الشهيد بالمبدأ وتابعت قولها قبل أن يطرقها سؤال أحدهم (مبدأ اقتحام المرأة للخندق وتقلدها البندقية لبذل واجبتها تجاه قضيتها المقدسة جنبًا إلى جنب مع الرجل سواء بسواء وهذا حقها الشرعي الذي فرضته السماء والذي يجب ألا ينتطح فيه عنزان)

- وماذا كان قول الشيخ ؟

- بعد فسحة من الصمت والتريث الحكيم، نطقت بأدب بليغ... فعندما يكون الكلام عن الشهداء وخاصة شهيدنا الياسين ينتابني

روع حذر، ويتلبسني توتر حاد فأستحضر العقل والقلب؛ لأزن بحرفة ودقة حروفي وكلماتي مخافة أن أزل في جنبه بعلامة جزم تُسكن حركته الدائبة الثائرة، أو بعلامة جر تخفض رفعته ومقامه المبني السامق، ويربكني المقام في محرابهم خشية من أن يطغى نفاقي على جلال قدسيتهم... فاعذروني إذا ما تباطأت كلماتي، وحبت حبوا من مخارجها فلساني سيجرها بحذر شديد على بساط قدسية الشهادة...

- لم يلتفت أحدهم إلى التماسها العذر، فقد كان خمستهم على نفس القدر من الانشدها الذاهل والتشنيف اللا منقطع والإصغاء غير الطارف للحكمة والأدب الذي يتدفق من منابع التجربة، وظني بهم يتساءلون همسًا.. من أي العجائز أنت؟ كيف تندفين الكلام دون فأفة ولا تأنأة؟ هل هي خزينة الأدب التي يصفون؟

أدرك الخمسة أنهم إنما يجالسون امرأة ليست كغيرها من النسوة، امرأة أغنتها صروف الحياة تجربة وحكمة وما زادتها السنون إلا غزارة علم ووفرة رأي

- قال خالد في نفسه: كل كلمة تنطق بها ما زادتنني إلا قناعة فوق قناعتي بأنها رسولة كما ادعت...

تناقل النظرات وتبادلها بين مسارب أبصارهم تؤكد بأنهم آمنوا بأنها من الحكمة بمكان تجعلها قادرة على سلب الأبواب، وإقناع

العقول، وإشباعها امرأة عاملة بما تقول، وقد ظنوا وخاب ظنهم بأنهم جُمِعُوا إذ جمعهم خالد لسماع عجوز ضلت دربها أو امرأة جاءت شاكية حظها من الدنيا فستنفخ في وجوههم آهات حشتها بها الأيام وتصاريفها

- فالشيخ «الفكرة» (أردفت بكلماتها البليغة هذه فنهرتهم من ذولهم الدامس فعادوا إليها، وقد ساح لون الانبهار على وجوههم) هو المشروع.. لقد حاورته وحاورني في لقاءات عدة حول نظريتي وعقيدتي (المبدأ الذي أسلفنا) ولم يوافقني بالمجمل، ولكنه لم يعارضني بالمجمل أيضاً، أخذ وأعطى وأقر ورفض وبقي الأمر سجلاً حتى انتهى بنا المطاف عند قولته الأخيرة «الزمان علاج لكل داء حتى داء السياسة والميدان والجغرافيا» فسيحول الزمان حَوْلته وتنقلب قدور الأيام

- هذا آخر ما كان بينكما أماه ؟

- لا يا خالد – كان آخر ما جمعني فيه «يوم الوداع الأخير» عبرات حرى تهطل مدرارة على صفحة محياي، وهو يندفع بكرسيه نحوالباب الذي أغلق من ورائه إلى يوم الدين – وقبل أن تبتلعه فتحة الباب، التفت إلي وقال: «سيكون هناك استثناءات يا فاطمة فلكل قاعدة ما يند عنها»

- كان صوتها يختنق شيئاً فشيئاً حتى تحشرجت الكلمات، واغتسلت بدموعها المنهلة، فغشي المجلس خشوع باكٍ من رجال تذكروا شيخهم الشهيد ومربيهم الأول ومآثره الندية، وعرفوه اليوم كما لم يعرفوه من قبل، من خلال امرأة حفظت عشرتها الفكرية مع الشيخ الشهيد، ووصفت علاقتها به بأجمل وصف فقالت بمنتهى الأدب والتوقير - حاورني بأخذ ورد وتحرير وتنوير، حتى أسرني حسن إنصاته كما سلب لبي منيع إقناعه، وكنا كفرسي رهان في حوارات ما كانت لتنتهي لولا صواريخ البغي التي اغتالته.

كفكف خالد دمعته السخي، وغالب نفسه المنكسرة شوقاً لشيخه، وهمس لذاته: «لقد أجادت وأوفت وشهدت شهادة صدق، فالحر من راعي وداد لحظة»، ثم قال: «رحمة الله على أستاذنا الأول وسيد شهداء فلسطين»

- ردد الجمع من خلفه... آمين.... آمين

- قالت بعد أن ابتلعت نفساً طويلاً على مهل

-لقد كان رسولاً وفيّاً... أدى رسالته على الوجه الذي يرضي ربه، وأبى أن يفارقنا إلى لقائه تعالى إلا عبر بوابة السماء المقدسة

- اقتحم ابراهيم دائرة الحوار، بتعجب مبرر وتساؤل مغفور... بوابة السماء !! ماذا تقصدين أماه ؟

- بهدوء مريح أردفت قائلة: الشهداء يصنعون على عين الله العظيمة، ثم يسرون برسالتهم على درب الجنة المديد والمنتشعب في خد الأرض، عندما يؤدون الأمانة المناطة بهم... تنذر ساعة القدر بالنهاية بتكرم الله العلي عليهم ببصمة خالدة تنقشها أرواحهم في جدار الذاكرة البشرية فيمضون إلى ربهم عابرين قلب الأرض (بوابة السماء - القدس) إلى عين السماء السابعة حيث مأواهم الأخير من حول العرش المقدس

- قال إبراهيم وقد ازداد عجبًا على عجب: أهذا من مأثور السلف ألمت به؟ أم هو اعتقاد تعتقدينه إيمانًا و يقينًا؟ سأل ولون شوق دافئ كان يرسم على محياه لمعرفة ما ستفيض به من حكمة

- يأي الله يا ولدي على ذاته الجليلة _ جل جلاله _ إلا أن يكرم المختصين بالرسالات من عباده بالاصطفاء والتنزيه بأن يقدر أرواحهم المبدولة في سبيله، وذلك برفعها إليه من أقدس بقاع الأرض.... ليليق ذلك بذاته المقدسة الجليلة، وما هذه البقعة إلا بقعة القدس _بوابة السماء_ أرض المحشر والمنشر مهبط الأنبياء ومعراجهم.. وأنا مؤمنة بهذا إيمانًا لا تشوبه شائبة، ولا يساورني شك بأن الشهداء، سقطوا أينما سقطوا على وجه هذه البسيطة لا ترتقي أرواحهم إلا من هناك من القدس فهي بوابة السماء الوحيدة التي تليق بأن يعبرها الشرفاء على الله إلى حضرته المقدسة..وهذا الفهم يدفعني إلى أن أقول لسيادتكم إن من واجب الأمة علينا أن نوضح لها بأن القدس هي سلم الأمان إلى جنة السماء...

- قال سعد وقد أثارته الجملة الأخيرة من كلامها، وكان على ما يبدو على اطلاع ببعض التلاميذ التوراتية: اليهود يعتقدون هذا ويحشونه في عقول أبناء الصهيونية، ويحاولون تمريره وسحبه على العقل البشري بأجناسه وألوانه ومشاربه كافة.. هناك إنشاد يزعمون أنه توراتي ديني ورد في المزمور 137 من الإصحاح:

إن نسيتهك أورشليم...

فلتشل يميني...

وليلتصق لساني بحنكي...

إن لم أذكرك... إن لم أرفع أورشليم

إلى أوج روحي

-فقالت وهي تبتلع نفساً عميقاً: نحن أحق من يهود بالقدس ويجب أن يكون إنشادنا على نحو..

إن نسيتهك يا قدس...

فلتقطع ساقي ولتشل ذراعي

وإن لم تبصر عيني فلتفقا

وإن لم يذكرك لساني فليخرس

وإن لم أحررك يا قدس

فليحرق جسدي في النار السماوية

- جميل - جميل - جميل بل رائع...قالوا معا بفم مُغَنٍّ واحد

تملعل عز الدين فوق كرسيه كأنه يرفض الهامشية والاكْتفاء بالإنصات، وهز الرأس تأكيداً من غير اعتراض أو تمحيص، فأراد الانخراط في جو النقاش الذي أخذ يسخن شيئاً فشيئاً..

تنحى في فم قبضته اليمنى في إشارة استئذان من صحبه بالحديث.. فهموا قرعة حنجرته، فأفسحوا له مساحة مسمعهم فانطلق يقول بحذر واتزان شديدين، مبتدئاً بطلب المعذرة من الحاجة فاطمة_ فقال: أرجو أن تتفهميني أماه فيما سأنطق به...

- لا عليك يا ولدي، فقلب أمك فيه من الثواب أضعاف ما فيه من العقاب، وفيه من المغفرة أضعاف ما فيه من مطاردة الذنب فانطق ولا تجزع...

- في تقاليدنا (في مقامنا هذا) نرفض من يقتحم الأبواب علينا باندفاع ملفت دون سابق إنذار، مبدئياً جهوزيته للاستشهاد فهذا يثير الشكوك لدينا، وتهاجمنا الظنون حول الأسباب التي دفعته إلى اتخاذ مثل هذا القرار المصيري والجريء، إذ إنه يقرر وضع نهاية أبدية لحياته

كانت نظرات خالد تطارد كلمات عز الدين وتطالبها بالتوقف عن قسوتها، لكن عز الدين كان مسترسلاً كأنه يقرأ من مرسوم برتوكولي لا بد من إتمامه بعيداً عن العواطف، فاضطر خالد لمقاطعته قائلاً:

- يا أخي وفر عليك الجهد، فليس من بحرمننا اليوم كغيرها، فلا

يمكن المساواة... ومن ثم فإن أمننا الحاجة صحبتها إلينا وصية
شيخنا الشهيد

رأت بأن تتدخل قبل أن يحتد النقاش وينحرف عن وجهته فقالت
برجاء وافر: لا... لا يا خالد أقسمت عليك إلا تركته يكمل ما بدأ
وإنني أيم الله أشد سعادة وأهدأ بالاً، فالثقة لا تلغي الحذر...
والحرص الذكي خير من غفلة مفرطة تسوق إلى ندم دام وعندها
«ولآت حين مندم» فدعه يا خالد، ثم نظرت إلى عز الدين قائلة
أكمل يا ولدي وقل ما بدا لك

- شعر عز الدين بعاصفة حرج تجتاحه، فدهنت وجهه بألوانها
المتداخلة السائحة... فحدث نفسه لو أن أمه لم تلده قبل اليوم،
وتمنى على الله أن يشق الأرض لتبتلعه فيغيب إلى غير رجعة

- أدركت بفطنتها ارتباكها الداخلي فنادت ثانياً بحنو أموي: تكلم
يا ولدي لا ضير عليك

- استعادت كلماتها قليلاً من رجولته التي أذابها خالد من غير قصد،
واستجمع قواه الناطقة فأردف قائلاً: كثيرون من الناس يبحثون عن
وسائل وسبل لإنهاء عالمهم الدنيوي المظني؛ ليمضوا إلى عوالم الغيب
الأبدية، هكذا ببساطة يقرر أحدهم أن يموت فيأتينا بالطلب،
فيثور في رؤوسنا تساؤلات وتساؤلات.. منها... هل أن ما يطلبه من
استشهاد من أجل الفكرة والعقيدة؟ أم من أجل الخلاص من كآبة
جحيمية تطارده، أو سامة نكدة دفعته إلى هذه النهاية؟ و...و...و...

- قالت قبل أن يلتقط أنفاسه وقد أغصتها سوداوية أسئلته رغم مشروعاتها، والمنطق الذي ينبع منها... قالت: قد يكون النور الإلهي أوقد بداخله جمرة الفطرة، وأشعل جذوة الانبعاث والتمرد، فأضاءت عتمة عقله وفكره في زمن التكدر الظلامي وشناعة الظلم اللذين صنعهما الاحتلال، وروجه الانهزامية والتبعية العمياء المحجومة، فاعتورت عين الحقيقة والصواب...

- بالضبط قد يكون ما بُحِتَ به أمه هو الصواب والحقيقة، ولكن هذا لا يعفينا من البحث والتدقيق ومن القص والتحري حتى تبين لنا النية، ويسفر الحال عن دراية ويقين

- عاد خالد متداركاً انجراف عز الدين وتوغله، فقاطعه قائلاً: أرى بأن حديثنا هذا الذي لا يمل ولا يسأم سيطول وقد يحتاج إلى لقاء ولقاء... وها هي مطارق الساعة تنذر بهبوط الليل الذي سيزيد من ارتباك الحركة في الشوارع بسبب الوضع الأمني القائم وحالة منع التجوال المفروضة على البلدة بحرًا وبرًا

- قال سعد منقذًا للموقف: ماذا تقترح أخي خالد ؟

- أرى بعد الاستسماح من أمننا بأن نرجئ بقية الحديث إلى موعد نعهده الساعة

- فهم عز الدين ما وراء الكلمات فبادر قائلاً... فليكن الخميس -
الخميس المقبل يا خالد

- تجاوز خالد عن اندفاعه عز الدين التي خلقها ارتباكها، فقال باسمًا... هو كذلك إن لم يكن لأمننا رأي آخر

- فهمت وهي اللبيرة التي تكفيها الإشارة بأن الجمع يريد أن ينقذ الموقف، ويحتاجون إلى مزيد من التشاور وقد أدخلتهم في حالة الهذيان الفكري، وضربتهم بذهول مفاجئ، فليس من السهل مناقشة أحد أهم وأخطر مفاهيم الحركة في حفنة من الدقائق المملمة في كف موعد لم تنظم أجندته من قبل... فقالت وهي تهم قائمة: لا تنسوا بأن الرسل أمناء وهم يصرون على إنفاذ ما أنيط بهم، مهما كانت العقبات فلا يثنيهما عنه إلا الموت ولا يموتون إلا بالخيار، ولأزيدكم بيتًا من الحقيقة وأكشف لكم بأن حالتي ليست طارئة، وأمري ليس ارتجالياً وليد يوم وليلة ولا اعترتني شائبة من شوائب الدنيا فسأقتني إلى ما أنا فيه الآن.. فإصراري ممدود على مسافة أكثر من ستين سنة، ولن أنكص اليوم «بخفي حنين» وأنا على مرمى حجر من الوصول الأخير... فخذوا وقتكم ولكن لا تطيلوا، فقد بدأت خطوتي الأخيرة على درب الجنة، ثم ودعتهم داعية على مسمعهم أن يلهموا سداد الرأي ورشاد العقل والحفظ من كل شر...

اصطحبها خالد نزولاً على السلم حتى أسلمها فم الشارع، فركبت موجة من المارة، وما زال يتبعها بصره حتى غابت في وهج الأفق الهابط، فتلّ جذعه عائداً وفي رأسه دوي محموم من أثر كلماتها يرفل في ألف سؤال، وكأن كل حرف ألقته به سهم يطرق حجاب دماغه ليفيق من غفله دامسة

منطق الجدل

- تفضل يا فهلوي... هات ما عندك أتحنفنا، وقد صرفت أكثر النساء عقلاً وفهماً مما عرفت بحياتي بلباقتك الفاضحة

- صبرك يا خالد، فلا والله ما أردت صرفها ولا دحرها، ولولا إصرارها وعزمها علي لكففت عندما نهرتني

- قال خالد وهو يذرع الغرفة المضغوطة، والله ما نطقت هذه المرأة بحرف إلا وصدقتهابها، وما شككت لبرهة بأني أجالس رسولة تؤمن بفكرة وتسعى وراء هدف

الأفكار العظيمة لا تولدها إلا عقول ملهمة، ولا يحيلها إلى حقائق ويجعلها واقعاً إلا جند يؤمنون بها ويحاربون لأجلها

- مطط عز الدين جثته ثم قال بهدوء وسلاسة:

والله إني لأكثركم استحساناً لبلاغتها وفهمها الذي يشف عن تجربة فذة ودراية ملمة وعامرة، ولكنني لا أدخل في جدل لا يفضي ولا

يضيف لي شيئاً، فإن كانت صاحبة رسالة أو غير ذلك فهذا شأنها،
أما أنا فلست بالخب وأنتم لستم بالأغرار فلا بد من اتباع المنهج
بحذافيره، وأذكركم بأن أي تجاوز على هذا قد تكون عواقبه وخيمة..
وهذا ما كبرنا عليه وأجمعنا عليه منذ انخراطنا في هذا المجال، أظن
أنني لم أخطئ القول

- لا - لا لم تخطئ ولكننا رجال مستبصرون، نستطيع أن نميز الغث
من السمين والصالح من الطالح، ولا يحوجك المرء سليم السريرة أن
تسأله عن صدق نيته

لا تسأل المرء عن جوفه

ففي وجهه شاهد وخبر

وإن كنت لا بد سائله

فيكفيك اللحظ ويكفيه منك النظر

فكم من سليم أعيته الحيل

وكم من سقيم أعانته الحكم

-قال سعد: يداهمني إحياء بأن هذه المرأة السبعينية صاحبة الفهم
المنور، استطاعت قراءة الوضع الراهن الصعب الذي يعجزنا بكل
معنى الكلمة عن إنفاذ فعل جهادي في هذا الزمن العصيب، فالضفة

تحترق وانتفاضة الأقصى يخبو أوارها، وهذه المرأة جاءت على قدر،
فلا بد من أخذ أمرها على محمل الجد حتى لو لم نوافقها على
المبدأ برمته «فما لا يدرك كله لا يترك جله»

- قال محمد_الذي أثر الإنصات طوال الساعات التي صرفها
الحوار_: أنا أوافق سعد والمرأة

- تدخل إبراهيم مقاطعًا: المرأة فرصتنا فلا غفران لكم إن ضيعتموها..
آسف على المقاطعة أخي محمد تفضل

-محمد من جديد،_بعدما بش في وجه إبراهيم_: المرأة قيمة
وعملة نادرة، فلا تدفعكم الحاجة إلى التسرع والإلقاء بها في فوهة
الشهادة على عجل

قال خالد: لا أفهمك أخي أفصح

- أنا مثلكم أدرك حاجتنا الماسية إلى فعل جهادي، ولكن هذه المرأة
تحمل مشروعًا بين جنبات فكرها، فلا بد من الغب من معينه حتى
الارتواء

- لكنك سمعتها والجميع سمعها تطلب الاستشهاد باعتقادها أنه
سيكون تمام رسالتها، وبأنها تصنع للمرأة البداية بنهايتها هي

- قال محمد: هذا صحيح - لكنها إذا قضت واستشهدت فستكون
حالة استثنائية، عابرة وقد يغيب من جديد ما أثارته فينا من

التفكير بجديّة مبدئها ودراسته بعقول مفتوحة، فأنا شبه مقتنع بأن المرأة يجب أن تأخذ دورها في صراعنا مع محتل عنيّد وماكر... وهذا قد يضيف وجهًا جديدًا لجهادنا ومن المؤكّد أنه سيضيف نقطة قوة لصالح المقاومة نتائجها وحسناتها ستكون أكبر بكثير من سلبياتها

- قال سعد_ وهو يؤرّج رجله اليسرى التي ركبت أختها اليمنى وشد عليهما بكفين متشابكين_ : أنا واثق من أنكم تدركون بأن موافقة هذه المرأة على مرادها، سيكون له ارتدادات سياسية واجتماعية وشعبية على المستويات كافة، وبأنه سيكون بداية تغيير واضحة في وجهة الحركة، رغم أن الواقع الجغرافي وأدوات الصراع لم تتغير بالشكل الذي يسمح لمثل هذا الأمر...

- قال محمد: بالإمكان جعلها استثناء، كما نوه إليها الشيخ الشهيد أما قال لها كما أوردت إن «لكل قاعدة شواذ» والظروف قد تفرض خروجًا محدودًا عن القواعد المقررة والعوائد المتبعة، ثم تابع محمد منادياً بلطف رقيق... يا خالد أنت أعلمنا بحكم مجالستك ساسة الحركة ودعاتها الذين ما فتئنا نقرأ مقالاتهم، ونسمع مواعظهم بأن دور المرأة الخندقي بمعناه الحربي لم يحن بعد، وتعلم بأن هناك تياراً قوياً ما زال يتمرس خلف هذا المنطق وليس من السهل إقناعه

- قال سعد_ بحدّة بادية_: وما شأن هؤلاء بالعمل العسكري وملابساته، فنحن الأقدر على فهم الظرف زماناً ومكاناً، ومن ثم كلكم أصابتكم ملامتهم ونال منكم نقدهم واتهامهم لنا بالعجز

غير المبرر

- قال خالد: صدقت يا سعد ولكن هذا لا يعطينا مبرراً بالقفز عن أحد أهم مفاهيمنا الحركية، ولم تتغير الجغرافيا بعد

-رد سعد قائلاً: لكنها ليست كتاباً منزلاً، وبالإمكان إسقاط الأمر على الواقع والتعامل معه كحدث استثنائي ألجأنا إليه الضرورة، وتراكم نسيتم أن الشيخ أنفذ سرية ريم رياشي بقرار خاص

- توالى أربع آهات..آه..آه..آه..آه...آه والله صحيح لقد أنسانا الشيطان هذا

- لا.. لا تنسوا ثم أدرف خالد بلسان مبين

هذا سيكون بوابتنا عند إخواننا في المستويات السياسية والدعوية والاجتماعية وعند قطاعات الحركة المختلفة، ومن ثم سيساعدنا ويعضد وجهة نظرنا بأننا أصحاب الثغور، وقبل أن ينهي أقسم عليهم بالله قائلاً: بالله عليكم أما آن الأوان بأن تعيد الحركة النظر في هذا الأمر؟

- قال عز الدين وقد عاد بعد انقطاع شرود: لم يئن الأوان، فما زالت الجغرافيا الميدانية والعسكرية تفرض هالتها على صراعنا يا خالد... وهذه المعضلة التي لا يمكن تجاهلها، فلا ركن مكين يحمي بيضتنا ويكفي رحمنا، وما زالت يد المحتل طولى وغائلة وفي اليوم

الذي يصبح لك فيه قاعدة عسكرية «درة واقية» اعمل على عسكرة المجتمع بكل ألوانه فلن تجد من يعترضك أو يلومك..

كان خالد وصحبه يعلمون أن مثل هذا التغيير لن يحدث بين عشية وضحاها، ولن يسفر هذا النقاش عن ميلاد رؤية بديلة في نهايته، فأنهى لينفض المجلس: إن موعدنا الخميس على مسافة أربعة أيام بليلتها

فأمعنوا التفكير في الأمر وأكثروا الاستخارة، لأنه سيكون يوم قرار... لا يوم نقاش وحوار

لقاء طارئ

كان خالد قد اتخذ من يوم الثلاثاء موعداً لالتقاء ثلثة من الوسط السياسي والدعوي والاجتماعي، فانعقد مجلسهم في مكان ما وسط مدينة غزة وفي ظل إجراءات أمنية مشددة

بدأ خالد بمقدمة تعريفية بالحاجة، وأتبعها بتقريظ شافٍ قبل أن يطرح عقيدتها للنقاش.. وما كاد النقاش لينطلق حتى اشتعل جدل، وتناطحت الآراء في ظل ضجيج طغى على أسس الحوار وقواعده، فما كان من خالد إلا أن تدارك الموقف وسحب بساط الحوار من تحت ألسن الجميع وراح يتحدث بخلاصة موجزة لعلها توجه النقاش إلى ما يريد ويتوج بقرار خاص أو استثنائي وقد عرف أن من سابع المستحيلات الموافقة على المبدأ بكليته فقال: منذ لقائي الأول بالحاجة غمرني شعور مريح، وعصفت في رأسي فكرة أنها صاحبة رسالة، لها زمان ومكان محددان للانبعاث، وما نظرت في عينيها إلا ورأيت نوراً ملائكيّاً ينسرب كلما طرفت ووهجاً متوقداً كلما جالت، ورأيت كأن وجهها كتاب مسطور انفتح لعيني فاستطعت

أن أقرأ رسالتها، فرسائل الشهداء تأتي واضحة بينة لا ريبه فيها ولا ضبابية، وأمام هذه الحقيقة ما كنت لأقوى على أن أغلق بابي، فجالستها بأذن صاخية، وقلب خاشع حتى أتمت حديثها فكانت قليلة الفضول، مجتازة الكلمات، واضحة السمات، نيرة النسمات.. قدرت ألفاظها بقدرة معانيها، وقررت قواعدها وشيدت مبانيها، قد من الله عليها بالحكمة ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً

قلوبنا عارية لا تفقه كثيراً من عوالم الشهداء فهم باعتقادي من سكان جنة السماء، هبطوا لتبليغ رسالة الله وأمره في زمن قضاه الله وحدد مكانه

كلمة حق

جاء الخميس الموعد على عجل، فقد حرق الشوق المسافات الزمنية وبخر سآمتها، حضر الرجال الخمسة تبعاً، فانعقد مجلسهم على الفور، وبعدهما أخبرهم خالد بخلاصة حوارهم مع ثلة من قيادات الحركة، وكان الرأي عدم اتخاذ قرار نهائي إلا بعدما يوغلون في نقاشها اليوم حول عدة قضايا، راجين أن يزيدهم هذا معرفة بهذه المرأة خاصة، وقد عرفوا أن لها ابناً شهيداً وآخر التحق بالجناح العسكري للحركة، وآخر كان أسيراً في سجون الاحتلال... فهي أم مجاهدة بامتياز، وقد أعذرت إلى الله وإلى الوطن بما قدمت من تضحيات، فلماذا تصر بذل المزيد؟ إلا إذا كانت رسولة كما ادعت!!!

دخلت عليهم بتحيتها المفضلة «السلام على جند الله، السلام على أبنائي».. ثم اتخذت مقعدها الذي تركوه شاغراً، كأنهم توافقوا على ذلك ضمناً دون نقاش.. اقتعدت كرسيها الذي ألقته وألفها من لقائهما السابق، وأحست وكأن حرارة جسمها ورائحتها ما زالت مختزنة في جنباته... ثم بادرت: ها يا أبنائي...أين نحن من أمرنا؟

- هل كان جدك العجوز فيلسوفًا ؟

-بهتها سؤال خالد...فما كانت تتوقع كل هذه الرجعة السحيقة إلى بداية النقاش، ولكنها الآن فهمت هواجسها على مدار الأربعة أيام ولياليها المنصرمة، والأفكار التي طوحت عقلها حتى أعيته، فلم يستطيع حسم صراعه المحتدم ودوامته البغيضة، فظلت تتأرجح بين الممكن وغير الممكن وبين الموافقة والرفض...ثم أنهت مع نفسها قبل أن ترد على السؤال المعرض

- لا بأس.... سأجاريكم حتى لا أعود مبلسة يائسة من كل شيء، ثم شقت ثغرها عن أسنان هرمة، ودارت بنظرات خاطفات على نصف الدائرة الرجولي ونطقت قائلة... فيلسوف !! كأنها تستفهم نفسها ثم تابعت: إن كانت الفلسفة فهم الحياة وتجيير تصاريدها وأزمانها لتوافق ما تريد.. وتحقق أهدافك فهو أستاذ الفلسفة والفلاسفة، أما إن كانت الفلسفة هرطقة من القول وتغليب المادية البحتة على الروحانية، وابتداع النظريات (الاجتماعية والسياسية - العلمية - الاقتصادية) المجردة من الروح الإنسانية ومعاكسة لفطرة الكون التي فطرها الله... فلا والله ما هو بفيلسوف بل هو عدو الفلسفة وأهلها

- من هو من الرجال؟

- لقد ألهم الحكمة، ففهم الصراع الكوني بين الحق والباطل، وعاش

التاريخ قديمه وحاضره بالإحساس والروح

وعلمت بعد حين من العمر..أنه جعلني وصلة بين ماضي القضية وحاضرها (وهذا أحد أجزاء ومفاصل رسالتي متعددة المفاصل) قالت هذه الجملة المعترضة، وصمتت هنيهة لكنها لم تسمع تعقيباً من أحدهم، فتابعت مردفة... ولقد أخذ من الحياة بقدر ما أعطاهم... وكان قديراً على استشراف ما وراء الأفق المنظور

- ماذا تقصدين؟ حتى الساعة كان خالد وحده هو الذي يتصدى
للأسئلة

- لقد كان أستاذه البحر بكل ما تعنيه الكلمة

- ما زدتينني إلا إبهاماً ؟

- علمه البحر بأن النار قد يكون محضنها عمق الماء «البحر المسجور»، وأن القوة قد تكمن في اللين، وهذا يعني أن الضلع الرقيق «المرأة» قد يكون هو البركان والثورة، بما أن نقطة الماء السائلة الهينة قد تصبح طوفاناً، إذا ما توفرت الإرادة

- قال خالد في نفسه... هذه المرأة تجير كل شيء وتجنده من أجل خدمة فكرتها، إنها داهية كبرى...ثم سأل: هل كان العجوز صياداً؟

- كان صائداً لخبايا التاريخ وضالات الحاضر وتجاربه بفهم وإدراك...
ترحل طويلاً ليالي وأياماً غائرات يصيد من السكون الإلهام، ومن

سجو البحر التهيؤ والإعداد قبل الانبعاث، ومن هياجه كيفية التحرك من أجل التغيير

- هل كان يصطحبك بحرًا؟

- يمكن القول إنني ولدت في جوف قاربه المتواضع هناك في العمق البحري البعيد، لقد حبوت على خد الشاطئ، وتقلبت على رماله ورضعت نسائه حتى اشتد عودي وعفت فتوتي..

- إذن أنت ابنة البحر والشاطئ..

- يمكنك قول هذا

- ماذا علمك البحر؟

- علمني كل الأشياء التي تخدم رسالتي وتحققها!

-هل هذا هروب متقن؟ أم ساءها تطفلي الأبله؟، لا يهمني فلتفسر الأمور كما شاءت فسأزيد جرعة أخرى من تطفلي المفتعل، فحتمًا ستفيض خيرًا مما علمتها الحياة، فهذه المرأة معين علم لا ينضب، وبشيء من التغافل الماكر.. قال ماذا مثلًا؟

- رأيت أن خالد وحده هو الذي يتصدى بالأسئلة، وأن الآخرين في حالة من الإنصات المبالغ فيه، فسألت هاجسه في نفسها أهدأ أمر دبر بليل؟ - ثم قالت مؤنسة لذاتها- وما الفرق، إن كان هو السائل

أو غيره فالأمر سيان، فلن يبزوني ولن ينالوا إلا ما سأعطيه عن طيب نفس، علمني أن الماء في الحياة مهم فهو أساسها ودونه فالعدم حتمي «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا»⁽⁶²⁾، وأن حجم الماء من اليابسة بقدر مقدور فإذا اختل اختلت موازين الكون، وكذلك المرأة دونها تعدم الحياة وعدم ممارستها دورها يخرق الوظيفة البشرية، فيختل الميزان وترتبك دورة الفطرة السوية والسليمة

- علمني البحر: التواجد مع الفطرة النقية من أجل توليد القوة الكبرى «الكامنة» فيها والتي تحدث تغييراً إيجابياً

- هناك وأنت تقف مشرعاً كليتك على مقدمة قاربك الساجي في سكون كهف الكون العميق.. تدخل في حالة استنطاق لهذا الكون اللا متناهي، ليمطرك بخفايا غيبه ويكشف لك أسراراً لا يفقهها إلا أصحاب الرسالات، فيسيرون على درب الجنة بنور وهدى أبلجين

- كان خالد شاخصاً من غير طرف ولا عبث، كأن على رأسه الطير ترعى، وكأني به يقول في خلده / يا لهذه المرأة العظيمة.. من أين تأتيها كل هذه المعرفة؟ من علمها؟ صدق من قال إنما المدرسة الحقيقية هي الحياة!

- قرأت بفراستها خطابه النفسي فأرادت أن تبزه أكثر وأكثر فأردفت قائلة...علمتني أمواج البحر يا خالد (وقصدت إفراده بهذا لتيقنها

بأنه القائد وإذا ما ستقوله يتعلق بمكانته ومقامه) بأن الانبعاث يجب أن يكون محكم الاندفاعات والاندفاعات يجب أن تكون تترا حتى لا يحدث تقهقر أو ذوبان في الهوامش قبل الوصول إلى الهدف وتحقيقه، ثم أومات برأسها كأنها تستفسر منه هل وصلت رسالتها؟ أم.....؟

- بادلها خالد الإيلاءة بمثلها، ثم ظهرت على محياه علامات حيرة وتردد... كأنها خاطره أمر مريب، فأحست بموقفه الصعب فأنقذته بنظرة مشجعة فيها من الرضى والملامة ما جرأه على الانطلاق من جديد، فقال وهو يرمي ببصره أسفل قدميه: إن كان لي من سؤال وأنت في حل من أمرك، إن شئت تكرمت وإن شئت أحجمت... كيف قضى ذلك العجوز الحكيم؟

- آهٍ صرعى خالطها نفس عميق كأطول ما عرفت من أنفاس حتى ساعتها سبقا قولها المترنح.. لقد نكأت الجرح الدامي يا ولدي

- آسف - أنا أعتذر أماه - أنا لم أقصد...

- قاطعته: لا تلذع نفسك ولا تجلدها فقد مضى أمر الله فلا بأس عليك.. فمن واجب العظماء على أتباعهم ومريديهم أن يرسموا سيرهم ويتناقلوها دون تحريف ولا تقتير.. فاسمع ومن ها هنا...

قالت بعبرات تتدافع حتى تفتقت محاجرها فهلت دموع نصفها الدم على وجنتين التهمت نداوتهما شيخوخة طاغية وأجرت محراثها

فيهما فبدتا جدًّا بيضًا وأخرى حمر وأخرى سود متعرجات ومنبسطات، فكان الدمع يتلوى كالغرابيب السود الجيع في أخايد وتعاريح سحم⁽⁶³⁾، قالت: بعد الحجيج الأخير إلى بوابة السماء رقد في كوخه الطيني بسلام، فكان في موته رسالة كما كانت حياته رسالة، فأحسبه عاش لهدف وفكرة ولم يمِت يوم مات إلا وقد وصل إلى الهدف، وحقق الفكرة وقد أكون أنا الفكرة والهدف

- صدمتهم جملتها الأخيرة وظهرت الصدمة على وجوههم، ولكنهم لم يجرؤوا على استنطاقها فصمتوا وصمتوا لعلها تجود عن رغبة منها، لكنها أنهت باستمطار السماء رحمات على روح جدها العجوز، والشهداء والأموات من المسلمين والمؤمنين، فأمنوا من ورائها واستسلموا فلا مناص...

سألت وقد شعرت بأنها أشفت غليلهم...هل من شيء بعد؟

-قال خالد: لقد نال منا الجوع فمن يأتينا بقليل طعام نسكت به قرقرة أمعائنا قبل أن نستأنف حديثنا؟

صكت ظهرها إلى مسند الكرسي تريحه من توثبه المتعب، ثم نفخت ببطء سئيم وهمست في أذنها بقول قلق: يا لهذا اليوم الطويل، «نستأنف الحديث»!! وهل بقي كلام استثنائي؟

شعر محمد بضجر يضربها وقد حاصرتها الأسئلة، وتناولت عليها وهذه المرة الأولى التي يتحدث فيها غير خالد في هذا المجلس فقال مسرياً عليها: لن نطيل عليك أماه وما كان ما كان من أخي خالد إلا لاستمطار عقلك الحكيم، فينهمل علينا علمك الوفير من بحر تجربتك العرمم

خبز برائحة الشهادة

عاد إبراهيم وببيديه كيسان أحدهما فيه من الطعام المقلب ما فيه،
والآخر فيه من شراب العصير وبعض الأرغفة من خبز القمح الأسود

قام عز الدين مبادراً ففرش الطاولة المكتتية بورقات من صحيفة
قديمة ممزقة وفرق الطعام والشراب من فوقها وزحفت الكراسي
نحوها زحفاً مثقلاً، فانبرى خالد مكرماً لأمه الحاجة فقال: تفضلي
أماه على نعيم الله الذي أنعم، فما هومن قدرك العلي ولكن
الظروف...

- قاطعته متعجلة: إنها نعمة الله يا خالد، وقليلها الدائم خير من
كثيرها المنقطع، ومن ثم فاللهم إني نذرت للرحمن صوماً

أمسكت الأيادي المنقضة على القصعات ثم قال خالد_ وهو يعيد
اللقمة إلى مرقدتها وراح يللمم الورقات بما عليها من طعام_: غفر
الله لنا وتقبل الله طاعتك أماه...سامحيناً..

- ليس هناك ما يعتذر منه يا أبنائي، فالنافلة ناقله وليست راتبة
فما من حرج عليكم، وأقسم عليكم إلا أكلتم وشربتم، مع بسمه
ندية أنهت قائلة:

احذروا الإسراف فالتخمة تذهب الفطنة وتميت الحيوية، وراحت
توزع عليهم الخبز وتسكب لهم الشراب، وقد غزاها خيال رؤوم
نقل إليها مشهد أبنائها الملتفين من حول مائدتها الخشبية في
بيتها الصغير، وهي تلقمهم الحنان مغموسًا بنعمة أغدق بها الإله
وأفاض...

حمدوا الله وشكروه وغمرتهم راحة نفسية رقيقة فإزدادوا اطمئنانًا
وإيمانًا بأن هذه الأم العجوز إنما هي رحمة السماء تنزلت عليهم
في هذا الوقت العصيب، وإنها قدر الله في يومهم هذا من شهرهم
هذا ليقضي به أمرًا لا يعلمه إلا هو...

الشهداء في عين شهيدة

- سأل خالد في محاولة منه للعودة إلى محيط الحكمة، في محاولة استشفاف لمعرفةها لمعاني الشهادة والاستشهاد ماذا تعني لك كلمة شهيد؟

- لتعلم قبل كل شيء أنت وصحبك، بأن الشهداء رسل الله المصطفين في العالمين، لا ينقطعون عن دنيا الناس مهما تحولت أزمتهما وأماكنها، هم حراس الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهم نور الله العابر في مسارب الحياة، في طرقاتها وبين بيوتاتها، في مواطن الأرض وعلى سلام الآفاق المفضية إلى أبعاد مديدة، تشعر بهم لكنك لا تراهم، وتراهم لكنك لا تعرفهم، تحسهم آتين من الجوانب كلها... هم جاهزون للانطلاق من أجل الرسالة والاحتراق من أجل إضاءة الظلمة عند اشتداد حلكتها وإزاحة سدومها الطويل...

- أو ليس لهم من سمات يعرفون بها بين الناس؟

- أحياناً قد يكشف الله الحجاب لولي من أوليائه، فيعرفهم لكنه

يبقى في مهابة من أمره، فالنور المتدفق من جنباتهم والمتوهج من قسّمات وجوههم يبهره لدرجة الانفعال والارتباك، فيلوذ بالصمت ففيه النجاة من عدم فهمه للهالة الملائكية المتجلية في صورة إنسان...

كان الرجال الخمسة يستمعون القول بإحساس ويصغون بجوارحهم وأنفاسهم المكتومة يشتهون المزيد الذي لا ينقطع.. ولما صمتت هنيهة رفع عز الدين رأسه وأنح بوجهه إلى النافذة الوحيدة في الجهة الشمالية من حوائط الغرفة ثم قال بترنح رقيق وبصوت خن هم بشر وليسوا بشر.. هم ملائكة وليسوا ملائكة هم رسل ليسوا ب....

- لا تكمل.. قاطعته بشكل مفاجئ وحاد.. بل هم رسل من رسل الله لكنهم ليسوا بأنبياء - يعثهم الله في الدنيا بإرادته ويعبرون أزمنتها بمشيئته، يصنعهم على عينه ويصطفيهم ليرحم بهم عباده الضالين السبيل وليسترشد بهم التائهون والحيارى.. فهم بين الناس كالنجوم في السماء كل نجمة توصل نورها إلى أختها وهكذا حتى تكتمل الدائرة وتتشكل حلقة نورانية محكمة لا يضل ولا يزل ولا يعمى من دار في فلكها.. وقد خصهم الله تعالى بحفنة نور لا تتلاشى مهما اشتدت الظلمات، واتسعت أمواجهها بل يبقى يمتد ويحتل الحيز الذي يحتاجه من بعدهم، فرغم غيابهم ورحيلهم يظل أثرهم وأثر رسالاتهم يتوالد حتى يصير ثقافات يتدارسها الناس من بعدهم، ويعيشون في ظلالها الوارفة يستمدون منها الأمل للوصول للهدف.

- الهدف !! قال إبراهيم باستغراب فيه رنة لاذعة..

- قالت: هم لا يذكرون هذه الكلمة بهذه الحرفية، لكننا نقول إن رسالتهم توصل إلى النهاية وما النهاية إلا الهدف، فكل فعل إنما يراد منه تحقيق نتيجة ما أي هدف ما والهدف هنا.. القضية المقدسة «لا إله إلا الله» نداء السماء ومنهج الحياة وأصوله

- عاد إبراهيم قائلاً باستفزاز مقصود لقريحتها لتزيد وتزيد: لكنهم قلة قليلة من بين الناس...

- هم فئة وثلة نادرة كندرة الماء في الصحراء، فوجود الماء تحت كثران الرمال البادية يعد معجزة فعندما تنفجر الصحراء عيوناً جارية كما تدفقت زمزم من بطن الصحراء الميئة في جزيرة العرب في الزمن السحيق، وكانت معجزة السماء على ولد إبراهيم النبي، النبي إسماعيل وأمه هاجر اللذين انقطعت بهم سبل الأرض فوصلتهم السماء بحبلها الذي لا يتقطع وستظل هذه المعجزة نابعة دافقة إلى نهاية النهاية.. وفيها شفاء البشرية من كل داء

كذلك هم الشهداء معجزة الله الخالدة، بمن بهم على أهل الدنيا في أي زمن شاء وعلى أي بقعة شاء، ولقد كانوا أول الخلق وعاشوا أعماق الأزمنة ومدارها، وسيظلون إلى نهاية النهاية، يجبر الله بهم عثرات الأمة، ويضيء بدمائهم شعاب الحياة المظلمة ويشكل منهم سداً منيعاً يحفظ الحق من ورائه ويدحر الباطل بوجهه

- أين أنت من هذا الأمر أمأه... سألها خالد برفق، ومن عينيه ينسرب شعاع شوق لشيء ما مبهم

- قالت: نحن زرع الله في الأرض يلقى في بطن الدنيا، ولا نشور إلا عندما يطغى الباطل ويتغول على أرض آمنة ضعيفة

- حدث خالد ذاته باستغراب نزق.. نحن؟ وهل اعتبرت نفسها من الشهداء؟ وهل منحت إجازة ربانية بالشهادة؟ أنهى حوارها الذاتي بحركة ناقدة من حاجبيه فهمها إخوانه من حوله ولكنه لم يقطعها وأنصت لجرسها المطرب...

نحن اللبنات في صرح الإنسانية المرتقي إلى السماء، كلما سقط شهيد ارتقى هذا الصرح بحيز لبنة.. وهكذا دواليك حتى تبلغ النهاية.

- بما أنها قالت نحن فلقد قرر خالد تحويل السؤال بضمير المخاطب العائد عليها فسألها على نحو.. كيف تعرفون أنكم شهداء؟ ومن يبنئكم بهذا؟

- الأنبياء يؤيدون بالوحي والمعجزات، وأولياء الله يؤيدون بالكرامات والذي أوحى إلى أم موسى بأن تلقي ولدها في يم لجي، والذي أوحى إلى النحلة أن تتخذ من الجبال بيوتًا ومن الشجر أكنافًا، قد يلقي في صدورنا جوهر رسالة لا يكشف نبؤها إلا بانعتاقنا من طوق الدنيا، والرحيل إلى الملكوت الغيبية، ومن ثم هنا سر يدفعنا إلى أن نبحث عن النهاية ونستحضرها، فلا نبقى نهم على

وجوهنا حتى تدهمنا نهاياتنا وتسوقنا على هواها بأدواتها، بل نحن من يختار النهاية ولونها وشكلها في إطار قدر الله ورجائنا عليه، ونسجها بما يليق بمقام الشهادة السامق.

كانت أجساد الرجال ترتعد برعشات متتاليات كلما حمي كلامها، وبان عن الشهداء وفضلهم، فما أنهت حتى غشيهم تفكير حثيث، وتلبسهم خيال جامع بأنهم خلقوا ليكونوا شهداء، وما شاء الله لهذا اللقاء المقدر أن يبرم إلا ليذكرهم بأنهم أصحاب رسالة مختومة بلون أرواحهم...

الرحيل

-قال خالد وقد عاد من سكرة الخيال وحلاوة ظلاله..أظن أن الله
جاء بك إلينا في هذا الزمن العصيب بفضل منه ومكرمة علينا وعلى
شعبنا وأمتنا

- غشتها سحابة حبور، ففتر ثغرها عن ابتسامة وادعة ثم قالت:
إذن هي الموافقة والقبول !!

- هز خالد رأسه مؤكداً، فكبرت وكبر من بعدها الجمع، ثم غاصت
في بكاء ناحب، ثم علا نسيجها واشتد، حتى خشي عليها الرجال،
ولقد أخذتهم الظنون إلى البعيد المحال، فظنوا لها الظنون..أجبت
المرأة؟ هل سقط قناع الزيف عن وجه الحقيقة؟ أين بطولات القول؟
أين الرسل والرسالة؟

- ومن بين الرموش المبتلة ألقى عليهم نظرة مغسولة، ومن بين
شفتين لينتين ندف كلمات نديات قائلة: لا يتنكبكم الشيطان
بالظنون يا أولادي، فوالله ما أبكتني إلا الفرحة التي انتظرتها أكثر

من سبعين سنة، فكيف لا أبكي وقد رضي الله وتقبلني؟ كيف لا أبكي وقد أزف الرحيل إلى جنة الأبد؟ كيف لا أبكي وقد اقترب اللقاء مع من أحب! كيف لا أبكي وقد رفعت قدمي لأدوس خطوتها الأخيرة على درب جنة الأبد، فتكون خطوة البداية لعهد جديد ينطلق بجناحين تشكل المرأة أحدهما، فلا يكون الطير مهيبًا ذبيحًا... ثم قالت وكأنها انتبهت لشيء تخشى فواته:

- ومتى ذلك يا ولدي؟

- اطمأن خالد وصحبه وغادرتهم الأفكار الشنيعة التي طوحتهم بعيدًا، فرد عليها بقول لين طيب..

متى تشائين أمأه؟ ثم تدارك قائلاً: متى يشاء الله وما علينا إلا البدء والاستعداد النفسي والعملية والأخذ بالأسباب..

- استعداد نفسي!! دعك من هذا يا ولدي فوالله ما اهتديت إليكم بعد الضياع الآمد في دنيا تخطفتني بمخالبها وكلايبها إلا لعلم الله بأن النفس قد تآقت إلى بارئها، وحتت إلى جواره بما بقي لي من دنياكم إلا أنفاس معدودة وخطوات نحو العلا مكتوبة، فعجل يا ولدي فقد آن أوان الانعتاق من أغلال الحياة والتحرر من قيود الجسد الطيني، فالرسالة تمت بمشيئة الله والفكرة نضجت في عقول أهل الحل والعقد، وضربت الجمود الفكري بقوتها فأحدثت فيه صدوعًا سينبت من شقوقها الأمل النسوي، والمبدأ سيوضع حجره الأساس بمقتلي، فاقتلني يا ولدي.

استشهدت الحاجة فاطمة النجار في 2006/11/23 من صبيحة يوم الجمعة في عملية بطولية /استشهادية سميت بـ «عملية صيد الأفاعي»، قتل فيها عدد من جنود الاحتلال الصهيوني، فارتقت بروحها، لتخط للمرأة من ورائها بداية مشروعها الجهادي...

ولقد كان ما سعت إليه طوال دعوتها وتحقق المبدأ وجسدت الفكرة التي تبنتها، وصار بعد عدة سنوات من استشهادها تشكيل عسكري للمرأة الفلسطينية المسلمة في غزة هاشم

تم بحمد الله

23 رجب 1438 هـ

30 نيسان / أبريل 2016

سجن نفحة الصحراوي

جمال الهور



نبذة عن المؤلف الأسير القسامي / جمال الهور

- ولد بتاريخ 1974/5/24م في قرية صوريف بالخليل.
- تلقى دراسته الابتدائية في المدرسة الشرعية للأيتام بمدينة الخليل ثم انتقل إلى مدرسة القرية ليكمل المرحلة الإعدادية والثانوية.
- تزوج عام 1992م، ورزق بطفلين (تقي الدين وأحمد).
- مع بداية الانتفاضة الأولى كان من السابقين إلى مقارعة المحتل، ومن الأوائل الذين حملوا هم الدعوة والجهاد في قرية صوريف مع انطلاقة " حماس ".
- اعتقل في المرة الأولى بتاريخ 1992/10/19م، وفي المرة الثانية بتاريخ 1993/7/5م.
- في منتصف عام 1993م التحق بالجهاد العسكري لحركة حماس، وشارك في إيواء أبطال القسام ماهر سرور وصلاح عثمان ومحمد الهندي منفذي عملية اختطاف الباص الصهيوني.
- في عام 1995م قام مع رفيق دربه عبد الرحمن غنيمات بتشكيل خلية صوريف إحدى أشهر خلايا القسام، التي نفذت 7 عمليات قتل خلالها 11 صهيونياً أبرزها عملية أسر "شارون ادري".
- اعتقلت الخلية في سجن المقاطعة حتى تم تسليمهم للعدو على يد أجهزة السلطة بتاريخ 1997/11/13م.
- حكمت عليه محكمة اللد العسكرية بخمسة مؤبدات و18 سنة.

